الرواية الناقصة

د. إياد ناجي

- 1 -

بدأ هذا النهار المضطرب الرمادي القاتم بصورةٍ مختلفة عن بقية النهارات.. لقد بدأ بزلزال.

كنت قد استيقظت متأخراً على صداعٍ عميق سببه السهر الطويل والتحديق المديد في الأوراق مع أعراض انسحابٍ من القهوة.

وإذ تناولت أول رشفةٍ من فنجان القهوة المتأخرة طالعت عيني أول صفحةٍ من جريدة الوقائع الأدبية فصدمني عنوانٌ كبير:

)عشاق الرواية ينعون بأسى فقيد الأدب الروائي الكبير أكرم السعدي، إذ توفي اليوم بأزمةٍ قلبيةٍ عن عمرٍ ناهز السادسة والخمسين عاما.(ً

قليلون هم الذين تندّ عيني لنبأ وفاتهم شهقةٌ أو آهة كما فعلت ذلك الصباح، وفي الواقع فقد صفعتُ وجنتي صفعةً قويةً لم أنتبه آنذاك لقوتها حتى سألني صديقٌ يومها عن سبب احمرار وجنتي.

لكن عظم قامة الراحل وإنجازاته الأدبية وشعبيته الساحقة وكتبه الثلاثين دفعتني لأردد دون وعيٍ مني:

-خسارة!.. لماذا؟.

حين يغدو الموت خبزاً يومياً ونبأً مألوفاً اعتيادياً يتعين علينا التوقف أحياناً لنتمحص في أولئك الراحلين كي ندرك مدى اختلاف واحدهم عن

الآخرين.. أولئك بشرٌ حقيقيون بلحمٍ ودم، وخلفهم ذكريات وصور وأحباب، وليسوا رقماً أو اسماً أو ورقةً مهترئة على حائط.

تنهدت بعمق محدقاً بعينين محمرتين في الجدار أمامي.. أكرم السعدي رحل! يا للفاجعة.. أعظم روائيي عصره من السوريين (في تقديري). وفضلاً عن ذلك فقد عرفته بصورة شخصية، وفي الواقع قابلته وزوجته وتحادثنا وجهاً لوجه الأسبوع الماضي في إحدى الندوات.. أي نحس! ما إن أصادق علمًا حتى تأخذه مني يد القدر الغادرة.

هبطت عيني إلى المقال الطويل المدَبج المنمق، ورحت أتنقل بين السطور بأسى منقبض الصدر.

)كذلك وصفت زوجة الفقيد الممثلة الكبيرة (صباح) الحادث الأليم..

"كان زوجي جالساً صباحاً في كرسيه الضخم الأثير ذي المسندين الجلديين في الركن بجانب المدفأة يطالع جريدته المفضلة –الوقائع الأدبية– ويحتسي قهوة الصباح.. وفجأة جحظت عيناه نحو الأفق الوردي، ثم رأيته يقفز واقفاً بحذائه الفرائي ويشهق واضعاً راحةً مفرودةً على صدره وقد اكتسى وجهه بعلامات ألمٍ ضاغط عاصر.

وفي ثواني معدودات انهار أرضاً على السجادة الفارسية. حين دخلت الممرضة وجست بإصبعها نبض عنقه قالت بنبرةٍ كئيبة وملامح متجهمة – أخشى أنه فارق الحياة– حين وصل الطبيب أخيراً وقّع في لحظةٍ شهادة الوفاة كاتباً في خانة التشخيص –احتشاء العضلة القلبية الحاد."

بعد قراءة المقال العجيب ارتسمت صورة لحظة الوفاة أمامي بحذافيرها، وارتفع حاجبي باستغرابٍ وفضول.

إذاً فقد كان فقيد الأدب يجلس مثلي صباحاً في كرسيه ذي المسندين يشرب القهوة –مثلي– ويقرأ كذلك الجريدة ذاتها.

ابتسمت رغماً عني.. (محدقاً في الأفق الوردي!).. تصاعدت إلى لساني ورأسي عدة أسئلة وملاحظات أخرى.

أولاً.. لهجة المقال شديدة التنميق والافتعال، غير جديرة بنبأٍ مؤلم وحدث جلل كهذا.. ومن المعيب أن اسم الجريدة (المفضلة) قد حشر حشراً.

ثانياً.. من الواضح أن زوجته كما تسلقت على شهرته في حياته تفعل الآن الشيء ذاته وقد اشتاقت إلى الشهرة، فهي لم توصف يوماً بالقديرة كما أننا لم نرها على الشاشة منذ أعوامٍ طويلة، ومع ذلك تصر على كتابة سطور المقال – هي التي لا تحسن الكتابة.

لكن الأهم هو التالي –أي ثالثاً ورابعاً–

-ماذا كانت تفعل الممرضة مع الزوجين في البيت ذاته؟ أهو اختراعٌ آخر من بنات أفكار الزوجة خصبة الخيال؟..

-ثم إننا نعلم جميعاً ما كان الراجل يشرب صباحاً.. بل طيلة اليوم وإلى الليل.. وهو حتماً ليس القهوة.

ألقيت عني في نوبة إحباط صفحات الجريدة، ونظرتُ عبر النافذة إلى العالم المغبر الكئيب.. هذا العالم الذي لم يعد يحمل إلا الأخبار السيئة والأسى.. ورحت أتذكر بالتفاصيل لحظات اللقاء السريع الذي جمعني بالزوجين في أحد المنتديات الأدبية..

كنت قد سمعت متأخراً عن خبر استضافة صالون دار النهار لكاتبي المفضل، وهكذا حملت مخطوط روايتي (لون الفصول) وأسرعت لحضور

الندوة.. كان هذا المخطوط ذاته قد قوبل بالرفض من عدة دور نشر ومن بينها تلك الدار ذاتها، كان علي أن أفعل شيئاً ما كأن يتبناني أحدهم أدبياً أو أعرض أحد أعمالي على موهبةٍ كبرى عله يساعدني بتوقيعها أو على الأقل يمنحني دعماً معنوياً إذ بدأت أشك جدياً بموهبتي.

حين رأيته على المنصة للمرة الأولى يقرأ فصلاً كاملاً من روايته غير المنشورة (ذلك الشيء المدعو حباً) تملكني شعور غامرٌ بالدهشة والفضول والإعجاب.

بدأ الرجل أطول قامةً مما توقعت، وأشد جلالاً وشحوباً مما تظهره الصور.. أخذ الراحل يقرأ بأسلوبٍ شائق وصوتٍ جهوري ناظراً إلى الأفق.. فهمت فجأةً أحد أسباب شعبية الراحل التي لا تنضب، فقد كان شديد الوسامة رغم سنه، بشفتين دقيقتين وعينين واسعتين عسليتين وصوتٍ جميل وملامح تشي بنهمٍ لا يُشبع لشيءٍ ما.

خارج قاعة القراءة راوغت صاحب دار النشر السيد مروان دغيم الذي حام حول الضيف ككلب الحراسة، وداهمت الكاتب دافعاً في وجهه بمخطوطي بصورةٍ لا تقبل الرفض، فطالعني بغرور وقد افترت شفتاه الدقيقتان عن احتجاج مكبوتٍ وصدمة.. ارتسمت على وجهه وهو يمسك الرقائق ملامح انزعاجٍ خفيف.

هنا غاص قلبي وتلعثمت معتذراً وكدت أنسحب، لكن اليد الرقيقة لزوجته قبضت على ذراعي من حيث لا أدري إذ ظهرت فجأة.. لقد أنقذتني صباح التي قالت بصوتٍ حاد:

-إذاً فأنت روائيٌ كذلك.. زميلٌ لزوجي.. ولكن ما أصغر سنك أيها الشاب!

راحت تدقق في وجهي بعينين جميلتين كحيلتين، وتضيقهما شأن من يرفض بعناد ارتداء نظارة طبية.

وقد ميزتُ هذه النظرة الفضولية بغريزتي الذكورية المكبوتة.. كانت نظرة إعجاب أنثوية مبطنة بالفضول العميق نحو مخلوقٍ من الجنس المقابل.. ابتسمتُ مرتبكاً وأجبت:

-ليتني بهذا الشباب يا فنانتنا، إنما أنا في الثلاثينات وحتى الآن لم أنشر كتاباً واحداً.. أنا إذاً بالكاد زميلٌ للأستاذ.

ضحك الاثنان هي بتلذذ وهو بهزءٍ وسخرية كما لو من حشرة.

-ولكن لا تبتئس يا عزيزي.. زوجي سيقرأ كتابك وأنا كذلك، ولديه كما علمتَ بعض المعارف.

ابتسمتُ بارتياح وانفرجت أساريري وقد لاحظت أن صباح من الأشخاص الذين يبدون أكثر جمالاً وجهاً لوجه منهم على الشاشة.. كانت عيناها الصغيرتان اللوزيتان الجميلتان شديدتا السواد والذكاء بكحلٍ كثيف، وشعرها الكثيف المصبوغ أشقر مرتباً بعنايةٍ فائقة، وبشرتها شديدة الصفاء وساقاها النحيلتان جميلتان متناسقتان.. الأمر الوحيد السلبي أنها بدت لي أكبر سناً مما تذكرتها أو تخيلتها – في الخمسين ربما.

هتفتُ بلهفةٍ مشيراً إلى الصفحة الأولى من مخطوطي..

-وذلك هو اسمي، ورقم هاتفي. إن بدت لكم أسئلة لا تترددوا بالاتصال.

– عمار الخيام! (ابتسم الأديب).. من ذات عائلة الوزير؟

تمنيت من أعماقي لو كان الرد إيجاباً ولكنني هززت رأسي بالنفي ممتعضاً إذ علمت أن الروائي مهووسٌ بالعائلات العريقة والصلات الأسرية ودوائر الحكم والنفوذ.

كان قد نظر إلي من أعلى وقد اتسعت عيناه الكبيرتان و امتلأتا اهتماماً حين لاحظ الاسم.

بعد ذلك اللقاء الخاطف شعرت بالانبهار والرضا العميق من جرأتي ومبعثها اليأس.. لكنني مع ذلك امتلأت كذلك بخيبة الأمل والاستياء من جراء سلوك معبودي. لقد قابلني الرجل بالاحتقار والتعالي عموماً ودون مواربة وهو لم يتنازل بالحديث معي إلا حين أُرغم.

رحت أتذكر نظرته الفضولية من العينين شديدتي الاتساع.. تلك النظرة التي لن أنساها ما حييت.. تنبعث عبر زجاجٍ غير مرئي فصل بيننا، أو غشاوةٍ وضباب كما لو كان الرجل ينظر إلي من العالم الآخر.. نظرةٌ متجمدة لرجلٍ ميت.

* * *

– 2 –

كيف يا ترى يتضاءل العالم وينكمش بفقد شخصٍ واحد؟ وكيف تحوم في الفضاء طيور الأس السوداء ويغدوا كلون بين ليلةٍ وضحاها عدواً لدوداً وسريراً في الشوط؟.

طيلة أسبوعٍ كامل لم يكن من الممكن تجنب السقوط في فخ البرامج اليومية عن الفقيد، وأخبار الجنازة وصورها تملأ الصحف والمجلات ومن حضر ومن لم يحضر.

كان الراحل أثيراً لدى السلطات والناس معاً، وهو في رأيي عظيم الموهبة غزير الإنتاج بموضوعاتٍ متنوعةٍ مؤثرةٍ وساحرة، من ذلك النوع من الكتاب الذي تسهب الإصابة بهوسهم، وقد كنت من أشد معجبيه وأما لقائي اليتيم به فكان حلماً عزيزاً تحقق.

إلى العدسة يحدق مباشرةً بعينين جميلتين محمرتين وابتسامةٍ حائرة، وفي لقاءٍ بالأبيض والأسود له مشهد جانبي يدخن في الظلام وظله على الجدار ويتمعن في تفكير عميق.. ووسط تلك المعمعة كانت هي في مركزها، كعين الإعصار.. صورٌ لهما لا حصر لها قفي كل مكان وكل بلد وفي أزقتٍ مختلفة وبثيابٍ تعكس الحقب المتعاقبة.

والسمة الغالبة على أغلب صورها الضحالة المزمنة.. من الشباب وحتى الكهولة، ولدرجة هزلية.. ثم تتملكني الرغبة في الضحك لرؤية ثوبها الأسود

اللامع الضيق في الجنازة والوشاح ألأسود المفرغ الموشى بالأزهار –كراقصة فلامنغو– ونظرة الأسى العميق تلقيها بغموضٍ على الأرض أو الأفق.. راحت المرأة تلعب دوراً من أدوارها، هذه فرصتها للظهور وذروة شهرتها.

وفي اللقاءات العديدة السريعة تحدثت وأسهبت.. قالت كل شيء ومع ذلك لم تقل شيئاً واحداً.. رأس تلك المرأة فارغ تماماً وكونها مسطحٌ أحادي البعد.. تتحاشى في اللقاء تماماً النظر إلى الكاميرا كأنها على خشبة المسرح وتتمتم: برحيل أكرم يموت كذلك جزءٌ كبيرٌ مني.

بين عشرات الصور يظهر ساسةٌ ونجوم مشاهير وأنصاف مشاهير وكذلك صورة أو اثنتان لامرأةٍ أخرى بالأبيض والأسود تعانقه خمنت أنها لزوجته الراحلة.

هكذا يشدنا للأعماق رحيل الرجل العظيم –بكل تفاصيله– كدوامةٍ هائلةٍ في المحيط.. تتعاقب الصور والذكريات والأحداث والكتب واكتشاف الأعمال التي كتب لها الراحل السيناريو وكل من ربطته بهم علاقة.. حقاً ما أقل ما نعرف.

ثم يقتحم عليَّ رفيق السكن (توفيق) خلوتي متسائلاً:

– لم لا ترد على هاتفك؟ يرن ويرن طيلة اليوم ملقى على الأريكة!

ثم يأتيني صوتٌ أنثويٌ حادٌ معاتباً:

– أنت كجميع الروائيين، شارد الذهن ومهمل!

– المعذرة.. لم أميز الصوت.

– صباح تتكلم.. قابلتنا مؤخراً في دار النهار..

بالطبع علمت من هي صباح، لكن المنطق أبى أن اصدق..

يستحيل أن تترك المرأة معمعتها ومصيبتها لتتذكر الاتصال بنكرة.. على شفتي تجمد الكلام وخطر لي أن يكون في الأمر مقلب، لولا التفاصيل..

– رجاءً تفضل بزيارتي الخميس القادم.. الأمر مهني بحت، وعاجلٌ كذلك.

– أواثقةٌ أنكِ تكلمين الشخص المطلوب؟

– طبعاً.. كاتب رواية (لون الفصول).. أنت الشخص المناسب لتأدية المهمة.. نتكلم يوم الخميس.

أنهت المكالمة فجأةً..

ثن أنني عشت أياماً من عدم التصديق على فراشٍ من شوك.. وبما أنها لم تعطني العنوان فقد اضطررت للتضرع لمروان دغيم كي يعطينيه.. كان هذا الرجل مزيجاً عجيباً بين المثقف الرفيع الذواق للأدب والشعر وبين رجل الأعمال دائم التعرق الحاد قاس القلب المستعد لسلخ جلد جسدته لو تطلبت الصفقة.. لم أنسَ كيف رفض يوماً استلام مخطوطي مني أن يتظاهر كالآخرين بقراءته:

– لا مكان لك بيننا (قال متعجرفاً).

علت قهقهة توفيق زميل سكني:

– لقد خلقتَ انطباعاً عميقاً على نفس الفنانة، وقد لاحظتَ بغريزتك نظراتها.

– توقف! المرأة من جيلٍ آخر، ثم لا تنسَ أنها في العدة.

أطلقتُ بدوري ضحكةً قلقةً متشنجة.

كانت السيدة صباح في انتظاري وقد فتحت لي الباب بنفسها، وبدت جميلةً أنيقة بشعرها ألشقر متوسط الطول.

أقام الزوجان في فيلا فارهة من طابقين بمنطقةٍ عريقةٍ هادئة. لم أعلم أن احتراف الأدب يمكن أن توصل المرءِ لهذا الثراء، وزاد اندهاشي حتى جالت نظراتي في المنزل الفاره وعلى أثاثه الأنيق وتحفه الثمينة!

- أقدم أحر التعازي.. لقد أصبتُ بالصدمة.

- شكراً لمجيئك..

ارتدت يومها ثوباً وردياً فضفاضاً عريض الأكمام، ولم تظهر على وجهها معالم الحزن أو الفجيعة بل ظهر على ملامحها القلق والتحفز:

- بالضبط، الصدمة! لم أخطط يوماً لأن أغدو أرملةً في هذا العمر المبكر..

إن كان في الأمر عزاءٌ لك أخبرتك كيف تعلق زوجي تعلقاً مرضياً بمخطوطك، وهو لم يفارق الصفحات نهاراً أو ليلاً، وهذه ليست مبالغة.. حتى دفعني الفضول لالتقاط الرواية واكتشاف سرها بنفسي.

حبستُ أنفاسي وأنا أحدق بوجهها محاولاً استجلاء الجد من الهزل، لكنها أكملت:

- وقد أصبتُ بذات المرض، أنا التي لم أقرأ حتى كتب زوجي الأخيرة.. لقد استعاد زوجي بصوت عالٍ على مسامعي بعض المقاطع، وأجزم أن روايتك أمتعتني أكثر من كتب زوجي.

– غير معقول!

– لا أفهم كيف يرفض السيد دغيم مخطوطك بهذا الحسم! الرجل أحمقٌ كبير.

– لا يمكن وصف مقدار سعادتي، بل وحسرتي لأنني فقت راعياً محتملاً.. أكرر.. يا للخسارة، لقد ثملت بالنشوة في تلك الندوة الأخيرة حين تلا الراحل مقاطع من روايته الأخيرة.. أجزم أنها ستكون تحفته الكبرى، يتوج بها مسيرته الطويلة.

– وتلك هي بالذات المشكلة.. التحفة الكبرى، وجوهرة التاج.. لقد تكاسل الوغد عن إتمامها وأجّل مراراً كتابة المقاطع الأخيرة، وهكذا أجد بين يدي تسعة أعشار رواية! عملٌ رائعٌ ولكن غير مكتمل، لا أعلم ما يمكنني أن أعمل به.

كان ذهني ما يزال يحوم حول كلمة (الوغد) التي نعتت بها الأرملة زوجها، وهكذا كررت دون تفكير.

0 إذاً فالرواية ناقصة!

– نعم ذلك ما قلته.. هي ناقصة، والمصيبة أنني قبضت نصف ثمنها، وقد بددنا ذلك المبلغ.. كلانا.. وأنا الآن أمام استحقاقٍ صعب.

– لا أفهم.. أي استحقاق؟ لدى الراحل ثلاثين روايةُ أخرى وعليك نشر الجزء الموجود على سبيل التوثيق.

ابتسمت صباح في توجس قائلة:

– نحن لسنا في فرنسا.. لا أحد هنا ينشر أو يقرأ روايات ناقصة.

رمقتها في نفاد صبر، وأنا لا أفهم المطلوب مني.

– السيد دغيم يمهلني شهرين فقط لتسليم الرواية كاملةً وأنا أفاجئه كل مرة بأعذار مختَلَقة.. التاجر فيه يدرك نفاسة العمل وفرادته كونه الأخير بالذات، ويطالبني بإعادة المبلغ الكبير الذي دفعه مع غرامة إن لم أنفذ العقد.

– ليذهب الناشر إلى الجحيم! ثمة ظروفٌ لا يمكن التغلب عليها، وإن عجز الوغد عن تفهم ظرف الوفاة فليأخذ ماله ويمضي.

– لايمكن، المبلغ ما عاد موجوداً (ابتسمت محرجةً ورددت) تعلم وبما أن زوجي كان يشرب ويلعب الورق، وأعترف أنني كنت بدوري مسرفة.. لا أعلم لم أطلعك على كل هذا، ولكن لا تنظر حولك إلى البيت الفاره.. أنا لا أرغب في التخلي عنه من أجل ورطةٍ تافهةٍ كهذه..

هنا بادرتها بالصمت.. التلاعب بالكلمات ما عاد ممكناً، الكرة الآن في ملعبها.. قالت:

– فلتكمل أنت هذه الفصول الناقصة.. لقد أُعجب زوجي بأسلوبك أي إعجاب. لقد ردد مراراً أنه لمح نَفَسه وأسلوبه بين سطورك.

– هذه فكاهة.. لا يمكن أن يكمل شخصٌ رواية آخر دون أن يشوهها.

– لا تبالغ.. هذه ألأمور تحدث طيلة الوقت.. كثيرٌ من الكتاب يعطون فكرة أعمالهم العامة لكتابٍ مغمورين ممن لديهم الكثير من الوقت ويضعون اسمهم على الغلاف.. لقد فكرت في إتمام العمل بنفسي، وحاولتُ مراراً لكن عبثاً.. أنا غير موهوبة وسيتم اكتشاف الأمر لا محالة.

– ولمَ أضع اسم مخلوقٍ آخر على عصارة ذهني؟

– لنتصارح.. لقد لمستُ في دار النشر بأسك.. أنتَ لم تعد شاباً، وليست أمامك أي فرصةٍ للتقدم.. مبلغٌ صغير يساعدك ومخطوطك يُنشر فوراً

في دار النهار، وذلك وعد.. علُ ورطتي وأفتح أنا أمامك الأبواب الموصدة، وبأسلوبك الرائع لن يوقفك شيء.. في الواقع أخذتك لهذين السببين بالذات، أنك موهوب وكذلك مغمور.

كانت تتحدث بطلاقةٍ وسرعة كامرأة أعمالٍ تعقد صفقة.. شعرتُ بالغثيان يصيبني وأنا اسمع لهجتها الخاوية من أي مداورةٍ أو مرح.. أكملت بمرح:

– لقد أقنعني بالعدول عن إتمام الرواية الانتقادات الجارحة التي طالت موضوع النعي في جريدة الوقائع.. كانت تجربةً صغيرةً فاشلة نعتها البعض بالطفولية وآخرون بالزيف!

ابتسمتُ متخيلاً صورة الراحل القابض على صدره ينهار على السجادة التبريزية بخفة الفدائي بجانب جمرات المدفأة المشتعلة.

– ذلك المشهد جدير بإحدى روايات الراحل المبكرة. جرعة الدراما والفانتازيا عاليةٌ جداً، وفي الحقيقة فأنا لا أصدق حرفاً واحداً منه.

تلاقت رموشها وهزت برأسها:

– من يعلم ما حدث بالضبط؟ أنا لم أكن يومها في البيت ولم أرى شيئاً، وقد عثرنا على زوجي في سريره عصراً وليس على الأرض صباحاً.

كنت قد راجعتُ بالتدريج منسحباً في اشمئزاز حتى ألقيت نفسي واقفاً عند الباب تقريباً.

– تصبحين على خير.

– لا تضيع من يدك هذه الفرصة، فهي لن تتكرر.. اتصل بي حالما تقرر، ولكن لا تطل الانتظار وإلا فتحتها لآخر.

انفرجت شفتي عن ابتسامة اشمئزاز ثم سمعتها تعترف:

– وزوجي لم يقرأ (الوقائع الأدبية)، لا يومها ولا في أي يوم.. بل ارتمى في حضنه مخطوطك.. كلماتك أنت.. وددتُ لك أن تعرف ذلك.

* * *

– 3 –

البارحة كانت في متناول أيدينا حقيقةً ملموسةً كثيفةً معاشةً بكل تفاصيلها. الآن غدا الأمس ذكرى اليوم كما سيغدو اليوم ذكرى الغد.. كنت أعيش شعوراً بالكآبة والصدمة من غدر الدنيا وسرعة تقلباتها.

البارحة كان الرجل مالئ الدنيا وشاغل الناس، واليوم يتقاتل الأحياء على مخلفاته كالطيور الرمامة فوق الجيفة، وعلى صورة في كل مكان ارتسم شريطٌ أسودٌ عريضٌ مائل..

البارحة كنت من عشاق العبقري، واليوم أفكر جدياً في الصفحات الفارغة التي تركها في ما يشبه الخيانة والطعنة في الظهر.

لكن لماذا أنا؟ لم اختارتني هذه المخلوقة الغريبة؟

أ لأنني مغمور محرومٌ وبائس؟ ولم يصدقني مخلوق إن رحت أثرثر أو خالفت الاتفاق؟.. أ ولأنني موهوب؟.. ألم يغمض الراحل عينيه وفي حضنه كلماتي؟ آخر صفحةٍ قرأها كانت لي!

هنا انسحب فوقي شعورٌ باردٌ بالزهو والخيلاء كما يتسلل المذهلة فوق شاطئٍ رملي.

حاولت عبثاً أن أتحاشى التفكير بها وتصورها.. لكن المرأة أثبتت لي أنها عظيمة التأثير شديدة العناد والإلحاح بصوتها الناقب وشخصيتها القوية وعينيها الداكنتين الجميلتين القلقتين لا تهدأن أو تتوقفان عن الحركة.. وحتى بضحالتها

وسذاجتها الفكاهية، إذ ما فتئت أستعيد كلماتها وصورها وتذكرت مقاطع من أدائها رسخت في ذاكرتي.. كانت رغم ضيق الأفق وقلة الثقافة موهوبة على الخشبة شديدة العفوية آسرة.

وبما أن حياتي مغلقة وضيقة بلا أفق وبلا أبوابٍ أو فرص وجدتني رغماً عني أطلب منها موعداً رسمياً للتباحث و(التشاور) في الخيارات المطروحة..

حين استقبلتني بدت أكثر بشاشة واسترخاء إذ لاحَظَت أن حصون مقاومتي قد بدأت تتهادى واحداً تلو الآخر.

– أعترف أنني في دوام.. لقد غرقتُ طيلة الأسبوع الفائت في تفكيرٍ عميق متأملاً عرضك العجيب.. ممزقاً بين أفكاري.. بين الوفاء لذكرى معبودي وانتهاز الفرصة؟؟

تلاقت رموشها الكحيلة عدة مرات وهي تنظر ببراءة إلى الأفق:

– أنا لا أفهم حقيقة ماذا تعني! أنت حقاً شاباٌ مثالي وتفتقر للخبرة والنضج.. لو أنني أفهم سر تحفظ!

– كيف لا تفهمين؟ أن نقدم للجمهور صفحاتٍ بقلمي على أنها تكلم الراحل لطعنةٌ له وخيانةٌ لثقة القراء.

– ليس ثمة كاتبٌ شهير لم يستعن بكتابٍ شباب في حياته وبعلمه في مراحل مختلفة.. لو أن أكرم كان حياً لما تردد في الموافقة عليك بالذات إذ حظيتَ بإعجابه.

هنا ضحكتُ في ازدراء:

– ذلك تعميمٌ خطير.. بل هو افتراء.

– حين يتعين عليك تقديم مئة صفحةٍ في ظرف أسبوع، ليس أمامك خيارٌ آخر.. الناشرون ملحون لا يرحمون، وكذلك متطلبات الحياة.

– لحظة.. الراحل بالذات لم يستعن بأحدٍ طيلة حياته.. ذلك مستحيل.. وحدة أسلوبه لا يترك مجالاً للشك.

– لقد قرأت وحفظت كل كلمةٍ كتبها.. للأسف.. تلك هي الخطورة بعينها.. حين تتعمق في كاتبٍ أو موضوع لدرجة التوحد تفقد قدرتك على التحليل والنقد الموضوعي كأنك تقرأ كتاباً مقدساً.. أنا هنا لست في معرض كشف هفوات زوجي، لكنه كان غزير الإنتاج لدرجةٍ لا تصدق.. هل تنكر ذلك؟.

– أين ومتى استعان بالآخر في (رحت أصيح).

– ليس بمقدور أحدٍ اليوم تحديد أين تنتهي سطوره وتبدأ سطور الآخرين.. هذا الموضوع تاريخيٌ بحت ولا طائل منه الآن.

– بل هو في منتهى الأهمية، بالنسبة لي على القل.. إذ هو بمثابة رخصةٍ لي من المرحوم.. ولو أنني لا أصدق كلمةً واحدةً مما تقولين.

كانت كلماتها قد استفزتني فأخذت أتحدث بسرعة وأنا أتعرق وأبصق رافعاً بإصبعي في وجهها.. لذلك راحت تضحك باستغراب وهي تحدق في وجهي.

– أنت مضحكٌ حقاً.. ما شأنك اليوم والماضي وما فعل الآخرون؟ ولم فقدت السيطرة على أعصابك هكذا؟ أنت إذاً مخلصٌ وطيب القلب.. أمامك الآن فرصة، خذها أو دعها لغيرك.

تابعتْ قهقهتها وصمتت ثواني ثم تابعتْ على مضض:

– (الموت يأتي إلى المختار).

شهقتُ وقد اتسعت عيناي:

– مستحيل.. تلك إحدى روائعه الأولى وقد حفظتُها عن ظهر قلب..

– ولكن لا يمكن إنكار أن بعض فصولها التي كتبتها امرأةٌ مفرقةٌ في مشاعر أنثوية بأدق تفاصيلها حتى لا يعود بالإمكان تصديق أن رجلاً قد كتبها.

أغمضت عيني لوهلةٍ شاعراً بجرحٍ عميق وأنا أحاول استرجاع الرواية بسرعة، ثم تمتمت قائلاً:

– أرجوكِ لا تفعلي.. هذه إساءةٌ لروح المرحوم، أن يسرق منه انتصاراته ونذروها مع الريح.. لقد أتيتكِ رافعاً الراية البيضاء (كما لاحظتِ)، ولا داعي إذاً لتلك الادعاءات.

– لكنك سألتني وأمعنت في إحراجي.

ضحكت بمرارة، وأجبت بثقة الخبير العارف:

– هذه الرواية من القدم لدرجة أنك لم تكوني قد قابلتِ الراحل بعد.. لا أتخيل أنه فاتحك بعد الزواج وصارحكِ بجميع هفوات الماضي!

– كتبها قبل عشر سنوات من زواجنا.. لا عليك.. إن كنت ترفض سماع الحقيقة لا تسلني إذاً شيئاً آخر بعد اليوم.. والآن لنتحدث في التفاصيل.. متى ستأخذ المخطوط.. ليس أمامنا كثيرٌ من الوقت.

لزمتُ الصمت شاعراً بمرارة الهزيمة وأنا أرفض النزر إلى وجهها.. ثم رددتُ بحروفٍ واضحة:

– ذلك ما ينبغي التباحث به بل واللقاء مراتٍ عدة.. لا تظني أنني واضحٌ أي نهايةٍ لفصول الرواية. إن على تلك النهاية أن تأتي طبيعية ما أمكن تتمةً لما أراد الراحل كتابته بالضبط.. إن عليه أن يكتب بنفسه روايته مستعيناً بأصابعي وقلمي.. الرجل ليس معنا بجسده، لكن روحه ترفرف من هذا المنزل، وعليها أن توجهنا لملء صفحات النهاية.. سيسجل التاريخ هذه الصفحات كآخر سطور قدمها للناس.

تلاقت رموشها ثانية ناظرةً إلى الأفق وارتجفت أرنبتها أنفها.. تلك حركتها كلما أرادت أن تمسك لسانها عن التعليق.. كانت تكشف بالتدريج أن التعامل مع الكاتب المغمور لن يكون بالسهولة التي توقعت، وأنني أصعب مراساً مما خمنت.. وفي الواقع فلطالما فاجأت نفسي بوسوستي وتمسكي بالتفاصيل حتى لو زدت بذلك على حياتي صعوبات لا حصولها.. أخيراً قالت:

– أنت حرٌ في اختياراتك.. فلتقنع ذاتك بأن النهاية التي ستكتب مستوحاةٌ من روح المرحوم وإن كان الأمر يخفف من ألم ضميرك.. ولكننا في الواقع لن نعلم أبداً ما كان الرجل يخبئ لنا.. أبداً لن نعلم يقيناً، وهو المعروف بتقلبات مزاجه ومفاجأته طيلة الفصول والصفحات.

قالت ذلك ثم دست في يدي بمغلف يحوي المخطوط:

– لتقرأ المخطوط إذاً بسرعة وتخبرني عن أفكارك.

– سيتعين علينا أن نلتقي مرات عدة..

– لا مانع ولكن بسرعة.. السيد دغيم يتصل بي مراراً وقد أخذ الشك يتسلل إلى قلبه.. أنت لا تعرفه.

حملتُ الرواية بحذر وتقديس، وضممتها قريباً إلى قلبي في خشوع، بينما اضاء وجهها الجشع بنظرة فضولٍ وطمع وظهرت ابتسامةٌ دقيقة على شفتيها الرقيقتين.. كانت تستمتع بالمشهد وبمراقبتي وتتساءل سراً إن كانت قد اختارت الشخص المناسب لأداء هذه المهمة الدقيقة.

* * *

– 4 –

في ظلام غرفتي ضممت المخطوط إلى صدري كما يضم المرء الحبيبة.. منفرداً به كأن المرحوم بذاته جالسٌ في العتمة معي، هو وأنا لا ثالث لنا.. أسمع أنفاسه العميقة، وألمح بصمات أصابعه على زوايا الصفحات تماماً كما استلقت كلماتي في حضنه لحظة النهاية..

من منا لم يختبر تلك العلاقة الوثيقة تربطنا أحياناً بأشخاصٍ موتى؟ مشاهير أو اقرباء وفي أزمةٍ مختلفة يصلنا بهم خيطٌ رفيع غير مرئي مصنوعٌ من الفهم العميق ووحدة الصفات والخبرات.. وهكذا كلمهم في سرنا ونشعر مراراً بوجودهم حولنا.

كانت خطيبتي قد خاصمتني مؤخراً –مرةً أخرى– وهكذا تفرغت تماماً لقراءة المخطوط.. وقد أدهشني أنه كتب بخط يدٍ أنيقٍ مقروء وليس مطبوعاً.

تلمست الصفحات ويدي ترتجف، وخيل إلي أنني تنشق منها رائحةً خاصةً نفاذة.. رائحة الخلايا العالقة لرجلٍ ميتٍ حديثاً.. سرت في جسدي رعدة.

بدا الفصل الأول لي أليفاً، وتذكرت أنني سمعت معظمهُ يتلى في الندوة الأدبية فرحت أراجعه على عجل.

وراوي الفصل هو بطل الرواية ذاته، وقد راح يصف فيه محاولاته اليائسة المحمومة لجذب انتباه صبيةٍ حسناء من كلية الآداب اسمها ليلى.

((وهي خالية البال كثيرة الضحك مرتفعة الصوت تحرك ذراعيها كثيراً ولا تبذل أدنى جهدٍ لإخفاء أفكارها حتى أنها تقول أحياناً اشياءً محرجة وتكلم الجميع دون استثناء ودون أدنى تردد)).

((بهذه البساطة والتلقائية عاملت معبودتي الجميع.. كلمتهم بذات اللهجة ودون تمييز بين عشاقها وحاسداتها)).

((كانت خصالها تعاكس بالضبط صفاتي، أنا البارد المتحفظ الخجول نوعاً ما المقتصد في الكلام كما في المصروف.. وما كان ذلك التضاد الغريب ليعصر قلبي أو يؤلمني لهذه الدرجة لو أنها لم تكن رائعة الجمال.. ربما لعيني، حتى أنها امتلكت جميع صفات الجاذبية التي تخيلت منذ يفاعتي وجودها.. لو أنها كانت وسيمة فقط أو عادية المظهر لاكتفيت بالابتسام من فكاهاتها وخفة دمها واستمرت حياتي كما هي بذات الضحالة والملل.. وأما بوجودها فقد أضافت إلى ذبك الفراغ الحرمان والشوق والهموم)).

((لقد اكتمل وجهها الدائري القمري كبدرٍ شاحب، ونظرت عيناها الضاحكتان الشهلاوان رائعتا الجمال جاذبياً وأما فمها –أبرز صفاتها– فكان كرزياً ممتلئاً باسماً شديد العذوبة.. والخدان أملسان صقيلان مكوران ورديان كتفاحتين.. مؤلم حقاً أن لا أتمكن من تجميد الزمن ورسم لوحةٍ لوجهها المبهر الضاحك إذ تنظر لي جانبياً وهي تواصل الثرثرة والقهقهة.

وما هي ساذجةٌ تافهة ولا صدر عنها لغوٌ أو هزر، بل شديدة الذكاء مثقفة قوية الملاحظة.. كانت ابنة محامي، ثرثارةً ومتحدثة دقيقة بالفطرة)).

بذلك الوصف البارع خيل إلي أنني أرى صورة معشوقة الشاب اليائس ترتسم أممي في العتمة.. ارتعدتُ وأنا اراها أمامي.. أترى هي حقيقةٌ أم من رسم الخيال؟ أم الاثنان معاً؟

من منا لم يقع في غرامٍ مستحيلٍ يوماً؟ أهٍ من ايام الجامعة الحزينة، وكيف تسحق الروح كحجر الرمى..

وهكذا حملت حماستي إلى لقائي مع الأرملة المهمومة، وعاجلتها بأسئلتي:

– (ذلك الشيء المدعو حباً)، أتساءل ماذا عنى الراحل بالعنوان.

– الرواية تتكلم عن هذا الشاب الذي توهم أنه وقع في الحب، وأمضى حياته يلاحق سراباً.. لقد اضاع سني عمره على مخلوقةٍ ما كان أقل منها مناسبة له أو استحقاقاً لعواطفه الجارفة.

– حتى الآن ليس في الكتاب نقدٌ لها، ولكن ملأها الكاتب إيجابيات!

– تلك غشاوة اللقاء الأول حين لا نرى إلا الخصال الحميدة.. ثم إن البطلة لم ترتكب جريمةً بكونها مختلفةً وغير ملائمة، بل الخطيئة تكمن في البطل إذ رآها يعين قلبه ولم يستشر العقل.. البطلة لم تخفي عنه شيئاً، وبقيت مخلصةً لنفسها وطباعها دون أن تتغير يوماً.

– هل من الصواب التسليم بأن الروائي هنا يسجل سيرته الذاتية من ايام الجامعة؟.. تحن لعلاقات الماضي البريئة، ويستعيد أخطاءه ومحاسباً النفس.

هنا لاحظتُ انتفاضةً خفيفةً مفاجئة، بل ورعدةً مست جلسة مضيفتي.. ثم إنها عدلت في جلستها وقالت وهي تحدق في وجهي بانزعاج:

– من أين أتتك هذه الفكرة؟ سيرةٌ ذاتية! ما أبعدك عن الحقيقة.

– لا أعلم.. هو شعوري الذاتي وحسب، وربما الطريقة الوجدانية المؤثرة التي تلا بها الراحل أمامي الفصل الأول.. وكذلك بعض التشابهات.. الراوي في كلية الآداب وهو مغرمٌ بكتابة القصص.

– سذاجةٌ أن نتوهم توحد الكاتب بأبطال شخصياته، كما هو مضحكٌ أن يعتقد جمهوري أنني أماثل الأدوار التي أؤديها.. وحتى لو استعمل زوجي بعض خبرات حياته في بناء الأحداث أو نقل شخصيةً رأها إلى الورق ببعض صفاتها فإن من الخطأ التعميم.. كلا.. الكاتب هنا لا يحكي قصة حياته.. ثم إن زوجي خريج كلية الفلسفة.

ومع أنني لم أقتنع تماماً بمسوغاتها فإنني تساءلت عن سر انزعاجها، وربما كان انزعاجها ذلك هو ما سرب الشك إلى قلبي.. ثم إن الراوي يعاود مناجاته:

((هو ذا الحب الحقيقي.. الذي يحرمك من النوم إذ تُضحي حياتك وخيال تعطيك أشد جمالاً ورومانسيةً من الأحلام.. تفتح عينيك طيلة الليل في رعبٍ خشية أن يختطف شخصٌ آخر قلبها منك، أو أن تضحك في غيابك من فكاهةٍ لمنافس... أنتَ مهووسٌ تماماً بها.. ممسوسٌ ومسكونٌ بروحها.. تلك التي ترقص كما لو كانت وحدها، وتغني بصوتٍ أحشٍ فظيع كما لو لنفسها تضحك من أشياءٍ خفيةٍ لا يفهمها غيرها.. هي الأشد عفويةً من فراشة والأكثر طبيعيةً من زهرةٍ برية)).

تنهدت وأنا أقرأ تلك السطور مستعيداً ذكرى خطيبتي الغاضبة دائماً.. العابسة والمهمومة أبداً من شيء ما.

((ذلك الحب الذي يجعلك مستعداً لفعل أي شيء هو ما أصابني، كالمرض! أي شيء.. حتى لو طلبت مني أن ألقي بنفسي من حافة الهاوية فعلت دون تردد.. حتى لو أمرتني عمداً أن اقوم بأشياءٍ محرجة وحتى مهينة.. اختلس المال لأجلها.. ما عليها إلا أن تطلب.. لكنها لا تقابلني إلا بعكس الحب الحقيقي.. وهو ليس الكراهية وإنما اللامبالاة المطلقة وعدم الاكتراث الكامل.. تماماً كما نعامل المسنين والأطفال!)).

((وقد منح انتماؤنا لنادي القصة القصيرة فرصاً كثيرةً للقاءات والنقاشات المتكررة.. وقد بدأت من خلالها تلاحظني وتنظر للمرة الأولى في وجهي، وليس كالسابق حين اعتادت أن توجه لي ملاحظاتٍ عامة وهي تتثاءب وتنظر إلي أي شيء آخر ما عداي..

ولم أتوهم لحظةً أنها تمقتني أو تحتقرني.. كانت في الواقع من نوع الفتيات اللاتي لا يعرفن أي نوعٍ من الرجال يحببن، بل يحمن كالفراشات بتلقائية حتى يحط رحالهن على زهرةٍ ما بالصدفة..

كم تمنيت لو أكون أنا تلك الزهرة المحظوظة.. أنا بعنادي وإصراري وكبريائي تمنيت لو تفاجئني مرةً بنظرة فاحصة.. لذا كان علي أن أحوم حولها أطول وقتٍ ممكن عساها تجدني عند الحاجة في اللحظة المناسبة..

حين صارحتها أخيراً بحبي ورغبتي في الارتباط تكورت عيناها في فزع وتوقفت عن الابتسام ثم قالت شيئاً عجيباً:

– لكنك تسكن غرفةً بالإيجار!

– ذلك صحيح.

– كيف توهمت أن والدي الثري المحافظ يمكن أن يمنحك أدنى فرصة؟

ورغم ذهولي الآتي من إجابتها الصريحة المباشرة ولكنها كانت أرحم مئة مرة من الرفض المطلق أو الإهانة.. هي إذاً لا تكرهني بالمطلق ولكنها ستضع في وجهي عراقيل وعقبات كالجبال.

– متطلبات الحياة في الواقع ليست أوهاماً، بل هي حقائق كالسيف المسلط على الرقاب.. ولكن أشكر اهتمامك وعرضك اللائق..

ردني جوابها البارد إلى صوابي والواقع وألقى بالماء المثلج فوق رأسي، إذ أن عرضي على الابنة الوحيدة للأرمل الثري هو الجنون المطبق بعينه.. ثم أنها استمرت تكلمني وتداعبني كأن شيئاً لم يكن، وتلك هي قوة اللامبالاة.. عكس الحب تماماً الذي يجعلك مفرط الحساسية تنوس بين قمة النشوة وحضيض الاكتئاب.

استمرت تقرأ علي قصصها القصيرة –المتواضعة في رأيي– فأنظر إليها بوله وامتنانٍ عميق لأنها خصتني بهذا التكريم.. نظرة الكلب المتعلق بصاحبه، وكان باعتداد متظاهراً بأن جراحي قد بدأت.. وفي الليلة ذاتها أنشج طيلة الليل –دون سببٍ مباشر– بصوتٍ مكتومٍ مثير للشفقة.

ثم إنني زففت لها نبأً في النادي وبعد تخرجي مباشرةً:

– لقد اتفقت معي إحدى المجلات الأدبية على كتابة مجموعةٍ من القصص تنشر مسلسلةٍ أسبوعياً، بمبلغ معقول.. ثم إنني سأبدأ عملي الجديد قريباً.. الأمور إذاً في تحسن.

تجاهلت تماماً مقصدي وأجابت دون أن تتنازل بالنظر إلى وجهي.

– خبرٌ عظيم.. ليس لدي أدنى شك في أن أسلوبك سيعجب القراء.. أنت موهوب.

أفكر وأنا أعض على شفتي.. أتساءل أحياناً إن كنتِتتذكرين اسمي إذ لم اسمعه أبداً من شفتيك.. يا إلهي.. ترى ما نهاية هذا الألم المبرح؟ راحت تنظر لي من خلال رموشها المنطبقة وهي تهنئني دون اكتراثٍ حقيقي.

ليلتها أبكي مفكراً في هلع أن مخلوقةً كهذه لابد تتلقى عشرات من عروض الزواج لدرجة أنها تنسى من تقدم ومن مازال في طور التلميح.. الفراشة عديمة الذاكرة تنسى حتى الوجوه والأسماء، فهي إذاً بحاجةٍ للتذكير.. قلت لها يوماً بفخر:

– لقد نجحت أولى قصصي، وقد قررت المجلة أن تدفع أكثر مما وعدت، وهو مبلغٌ غير كبير لكنه ربما يغير رأيك؟

انفجرت ضاحكةً:

– ليس رأيي، ولكن رأي والدي.. إنه كما أخبرتك جشعٌ ومادي.. ولكن واظب –من فضلك– على تذكيري بعروضك.. فأنا شاردة البال عادةً قصيرة الانتباه.

تتملكني الحيرة من ردودها الغامضة الغريبة والمنطقة الرمادية التي حبستني بها، فأنا الآن وسط بين الصديق والحبيب. وعلى أن ابتسم متظاهراً باللامبالاة حين يغازلها أمامي آخر أو حتى يتقدم لخطبتها..

– أبوكِ المسكين.. لا يدري أي نوعٍ من التهم والأوصاف تُلصقها به ابنته (أرد في متعاض يوماً في نادي القصة).. والواقع أن الفراشة الحرة البرية قادرةٌ على اتخاذ أي قرارٍ بمفردها، لو أنها عزمت.. ولكن الأب هو حجة الابنة الأبدية.

تكتفي بالضحك مخفيةً وجهها بيديها!

لا يمكن أبداً قراءة هذه المخلوقة، ومعرفة إن كانت تهزل بأجوبتها أم هي جادة.. لكن عليها إدراك مدى حديتي وإصراري.. أنا عكسها لا أمزح.. ثم إنني رددت مرة:

سأبدأ بكتابة روايةٍ مسلسلة لمجلةٍ عربية، وأولئك يدفعون بالدولار.

فتحت عينيها قائلة باهتمام:

– كسرني ملاحظة شيئين.. أنك تسير بمثابرةٍ إلى الأمام، وأنك أيضاً لا تيأس مني..

كان والدها قد رآني عدة مرات في الجامعة والنادي، ونظر لي مراراً عبر زجاج سيارته الفارهة، جانبياً كابنته تماماً. والكهل الوسيم رمادي الشعر مثالٌ للأرمل خائب الأمل يتقدم في العمر بسرعةٍ مفاجئة.. قليل الكلام ممتعضٌ غالباً مع مسحةٍ من الحزن والاكتئاب تخالط تعاليه.. ويتوجه لي –عند الحاجة فقط– كلمةٌ أو كلمتين، وعاملين تماماً ما معاملته لحشرةٍ تحوم حول النافذة.

من المهم دوماً ملاحظة الرابط الخفي بين الأبناء والآباء إذ يتشاركون البيت والهواء والمورثات.. ورغم جمال الأنثى وضحكات الشباب والهزل فإن لهما ذات الرأس المتعالية والأفكار العملية والأحاسيس الجافة، فتأتي إذاً ابنة أبيها.

كذلك مفيد اكتشاف أن المخلوق الرقين الأثيري الذي أحببت والذي طبع خيالاتي وارتسم في فضائي أنى اتجهت، هو في الحقيقة مخلوقٌ واقعيٌ أرضي بارعٌ في الحسابات عاشقٌ للترف..

وما كان أي من تلك الملاحظات والأفكار لتثنيني عن عزمي أنا محكومٌ بالعدم وقبض الريح.. وما الحب على أية حال أن لم يكن صرخةً في العدم؟.. كم ضاعت في الفضاء وقت الأزل مثل هذه الصرخات؟..)).

* * *

– 5 –

تمددتُ على الأريكة وقلت مغمض العينين:

– لحسن الحظ، سننقذ أنا وأنتِ هذه الرائعة.. حرامٌ أن تضع للأبد هذه السطور الوجدانية..

ابتسمت صباح لي دون أن ترد.. أكملتُ ثرثرتي:

– من العجيب أن كاتب هذه الصفحات لم يعد معنا.. إن حرارة السطور لتلفح وجهي، وحقيقة الكلمات وصدقها تجعلني أتوهم أنني كاتبها.. من منا لم يختبر مثل هذه التجارب؟ ثم إنني مدمنٌ الآن إذ لا أقدر على إلقاء المخطوط من يدي.

– تلك هي ميزة (السعدي).. إنه ينومك مغناطيسياً ويستولي على كيانك..

كنت قد توهمت لوهلة أنها توجه لي عنايةً خاصة وأنني أعجبها إذ تصرفت معي بطبيعة وهي تحول في المكان كأنها وحدها.. إلى أن جلست أمامي وراحت تجري مكالماتها السريعة المتلاحقة دون سابق إنذار وتقول أفظع الأشياء، دون تحفظ وهي تطلي أظافر قدميها!

قم سألتني كأنها تذكرت وجودي فجأة:

– هه؟ ألديك أي أفكار؟ أتعلم ما ستكتب؟

– أنا ما زلت في بداية الرواية.

ثم إن امرأةً نحيلة متوسطة العمر بثوب أسود هبطت السلم لحظتين ثم لتمضي دون حكمةٍ واحدة.

– ربما كنت أتخيل! لقد عبر الصالة مخلوقٌ صارمٌ غامض بثوبٍ طويل ومضى دون كلمة.. كالوفى زمنٍ آخر!

ضحكت صباح وهي تزيح الهاتف عن أذنيها:

– ما أوسع خيالك.. نحن لست وحيداً.. في هذا البيت أعني.. ثمة الطباخة والشغالة والممرضة وآخرون على الدوام..

ثم وتأكيداً لكلامها دخل علينا فجأة الناشر (السيد دغيم) وقد ارتسمت على وجهه الشجي تلك الابتسامة الواثقة الكريهة تحت الشارب الكث..

ولم يتنازل بالكلام معي.. لاحظت فقط أنه تعرف عليّ إذ كلمته في الماضي عن مشاريعي وقد رآني عدة مراتٍ في الدار.

كان الرجل يزداد وزناً بسرعةً فيتغلب فيه جانب رجل الأعمال على عاشق الأدب مرهف الإحساس، ومع الوزن تأتي حبات العرق على الجبين وتحت الإبط ملطخة القميص، وكذلك يغدو الصوت أجشاً مبحوحاً من التدخين..

يقول السيد مروان من بين أنفاس لفافته:

– مبيعات المرحوم تتصاعد مؤخراً – كريه أن يضطر المرء للموت كي تزداد شعبيته.

تقهقه صباح بصوتٍ حاد دقيق:

– لسوء الحظ أو لحسن الحظ.. ينبغي إذاً أن نكون في غاية الحذر عند إطلاقنا الرواية الأخيرة.. وفي الواقع هي بحاجةٍ لبعض التشذيب إذ لم يتسنى لزوجي أن يدخل عليها لمساته الأخيرة المعتادة.. وهذه إذاً مهمتي الآن.. أن أشذبها بحذر.

– نعم أرجوك.. كما تعاملين الخزف الصيني الثمين.. ى تفسديها.

– بالطبع.. كلماتٌ قليلة هنا وهناك.. لحسن الحظ أنني من الوسط ذاته.

ثم إنه نظر إلي لحظةً واضعاً إصبعه على شفتيه وهو يحدثها:

– والسرية واجبة.. أنتِ تفهمين طبعاً..

– بلا شك.

ثم انفجر الاثنان في ضحكةٍ مفاجئة دون سببٍ واضح.. بدا أن في جعبتهما الكثير من الكلام الذي كتم بسبب وجودي.. تجاهلتهما وتابع القراءة:

((ثم إنني تقدمت نحوها بفخر حاملاً بيدي ورقة:

– لقد وقعت اليوم عقداً مع ناشرٍ عربي لأولى رواياتي.. هو ذاته الذي نشر قصصي القصيرة.

ابتسمت عيناها وتلورت شفتاها، ومع الابتسامة تحركت الشامة الجذابة تحت عينها اليسرى التي أعطت لوجهها غموضاً وجاذبية..

– أرني العقد (هَتَفَت بخبث).

سحبت الوريقات مني وراحت تجردها بعينيها ثم هتفت فوراً:

– ذلك مبلغٌ محترم..

– نعم.. لقد وضعت قدمي على أول الطريق فأنا إذاً لست مجرد حالم خيالي..

– أرى ذلك.. (تابعت ابتسامتها الغامضة الجذابة وهي تنظر إلى الأفق).

– ألا ترين الأوان قد آن كي أحدث والدك؟..

لم تجب بل اكتفت بأن هزت كتفيها رافعةً الحاجبين.. لم تكن واثقةً مما تريد أو من ردة فعل أبيها.

في اللحظات التي تبدو فيها فتاتي غامضةً أغرق في سيلٍ من التساؤلات.. هل تجدني بهزالي ربما متعراً جسدياً؟ أم أنني يا ترى أثير مللها وشفقتها؟ وودة الكاتب تتقدم لخطة العصفورة الحالمة ملونة الأجنحة!

هذه صبيةٌ تعشق الموسيقى والرقص والحفلات والسفر وتفتح جناحيها للحياة والمستقبل.. من يلومها إن أثرت اشمئزازها وترددها؟ أنا الجاد الكئيب قليل الكلام المفكر الباحث عن معنى للحياة المنهك أبداً في القراءة! من لا يجيد المزاح أو الحديث ولن يغدو يوماً نجم السهرات أو المجتمع المخملي.. حتى إنني لا أجيد انتقاء الملابس وأفسد بهزالي وكتفي المنحنيتين أي ثياب وأرتديها!

ثم أعود لأنتشل نفسي من حضيض اليأس والعذاب مفكراً: لكن الأضداد تتجاذب، كما أنها لم ترفضك يوماً قطعياً وكان ذلك بوسعها.. لقد تَرَكَت رغم العقبات الباب مواربا لدخولك.

الآن وقد رأت الرقم المكتوب على العقد ينبغي انتهاز الفرصة.. لقد كنت دوماً جَدْياً عنيداً لا ييأس، وسأفعل ما بوسعي لإقناعها بالزواج مني ما دامت غير متأكدة.. سأرجوها أن تطلب الأمر.

حين جلست في المنزل الفاره مع والدها شعرت بالتفاؤل والانكماش.. في غرفة المكتبة غرقتُ في كرسيٍ وثير جلدي محاطاً بخزائن هائلة من خشب الزان امتلأت بالمراجع القانونية السميكة.

نظر إلي الكهل الأنيق في بذلته السماوية وعبر زجاج نظارته الشفافة في اشمئزاز.. رفع حاجبيه باستغراب والتوت شفتاه ولسان حاله يقول: لا أفهم حقاً ما رأت فيك ابنتي (أيها القميء).

حتى إنه لم يكلف نفسه عناء طرح الأسئلة.. نظر لي بازدراء وكأنه يوشك على التقيؤ وقد جاهد لرسك طيف ابتسامةٍ على وجهه.. وأما أنا فرحت أتلعثم.

– أنا ما زلت أتلمس طريقي للشهرة... وكلي ثقةٌ بأن... لابد أن ابنتكم حدثتكم عني.. أنا وهي.. أو أنني لوحدي.. آمل أن توافقون على أن...

مؤكدٌ أن تلك المقابلة المقتضبة كانت أصعب مقابلةٍ في حياتي.. لقد تعرفتُ فيها بلا حدود، ولم أعرف كيف أنهي جملةً واحدة.. لابد أنه يحتقرني الآن أكثر من السابق..

حين ما عاد يطيق صبراً قال بصوتٍ هادئ دون أن يحول عينيه عني طيلة الجلسة كأنه ينظر إلى عينه في متحف أو إلى كومة قذارة.

– عليّ أن أكلم ابنتي.. انتهت المقابلة.

حين رأيتها في اليوم التالي أوشكتُ عن الانهيار.. علمت أنني لم أترك انطباعاً جيداً لدى والدها الارستقراطي وأنا المنحدر من الريف القريب الفقير.

لاحظتُ على الفور أن عينيها قد احمرتا، ربما من البكاء طيلة الليلة الفائتة..

يمكن تخيل المناقشة العاصفة التي دارت عني في المنزل الفاره ليلة البارحة، ولا داعي إذاً للسؤال.. يمكن كذلك تخيل بعض الصحون تكسر، وبعض الكتب تُرمى في الوجه وربما الوسادات.. ليتني لم أسبب المشاكل.

– لابأس.. لقد حاولتُ جاهداً، ولكن عبثاً..

– لقد صرخ في وجهي (أنتِ عاقةٌ كأمك بالضبط).. ثم نعتني بالحمقاء (سترتكبين الخطأ تلو الآخر تنتهي كذلك حياتك ببؤس).

ارتجفت أرنبة أنفها وهي تقول:

– كلما شبهني بأمي انفجرتُ في البكاء تلقائياً.. إنه يستغل نقطة الضعف هذه.. مراراً وتكراراً.

– أنا آسف.. لم أقصد التسبب في...

– حتى إنه طرق بأصابعه على صدغي، كمن يحاول تحريض العقل والتفكير برأسي، ودعاني بالمتهورة قليلة العقل.. لكن الحق يقال.. رغم فظاظة أبي وعجرفته فهو يقدس الديمقراطية والحرية الشخصية.. لقد أنهى نوبة زعيقه المرعبة بأن قال: (وفي النهاية أنتِ حرة، ولكن لا تعودي إلى هنا باكية مستغيثة.. أنتِ حفرتِ وفي الحفرة تستلقين)!

لم أتوقع مطلقاً أن تحمر عينا ليلى لأجلي أو أن تدافع عني (كخيارها) إذ لم أكن يوماً ذلك الخيار.. وليس لدي أدنى شك في أنها لا تحبني.. لقد عاكست أباها الفظيع لمجرد العناد وإثبات الرأي، والآن ما عاد بإمكانها التراجع.

– لا أفهم! وما النتيجة؟ أنت حرةٌ بماذا؟..

– يمكن اعتبارنا إذاً في حكم المخطوبين.. لقد أعطانا أبي مباركته بعد أن شتمك بأقذع الشتائم..

اعتقدت أنني لم أفهم أو سمعت خطأ.. رفعتُ الحاجبين في استغراب دون أن أفهم معنى للعينين الباكيتين.

لكن ابتسامةً ماكرةً وسيمة أشرقت في وجهها كالشمس ينزغ من ظلام الفجر أكدت لي باطني.. بدا وجهها جميلاً جداً، وقد اختلطت فوقه الابتسامة مع الدموع...))

* * *

– 6 –

رحت أتخيل الوجه الباكي ذي العيني المحمرتين لبياض الثلج وقد أشرقت تحت غيومه شمس ابتسامةٍ جذابة، والشامة تحت العين اليسرى تتحرك باستمرار حسب تعابير الوجه.. ارتسم بوضوح الوجه الجذاب القمري أمامي كدائرٍ منيرة، والفم الدقيق بشفتيه الكرزيتين المكورتين، والشعر البني المتموج بخصلاتٍ منسدلة تصل إلى الكتفين.. ذلك الوجه الذي فتن يوماً رجلاً ميتاً، ولست أفهم كيف أراه بهذا الوضوح والجلاء حتى خيل لي أنني أعرف شخصياً هذه المرأة الغامضة تسبح على صفحات روايةٍ ناقصة.. أحاول عبثاً أن اعتصر ذاكرتي لأكتشف أنني رأيتها.

ثم يطل على وجه خطيبتي نهال، وقد جمعت كل التناقضات:

– كيف لا تتصل؟ ما الذي يحدث؟

عادتها تظهر بعينين مطرقتين شديدتي الاتساع معطبةً انطباعاً بأنها لم تنم طيلة الليل.. وأما الوجه فأسمرٌ وفي الآن ذاته شديد الشحوب، ورغم هزال المعصمين وعظام الوجه فهي وبسبب ضخامة الحوض والوركين ليست نحيلة أبداً..

كانت نهال شديدة الجاذبية وقبيحة في الآن ذاته، وذلك يعتمد على الوقت من اليوم أو أي تعبير يرتسم على الوجه وإلى أي جزءٍ ومن أي زاويةٍ إليها ننظر... وفي الواقع فقد اختلط حبي لها وانجذابي العارم بشعور عميقٍ

بالشفقة والكآبة، شعورنا تجاه قطةٍ جائعةٍ هزيلة التقطناها من الشارع.. وأما هي فلم تشفق علي بدورها بل على ذاتها فقط.

– لا أفهم.. نحن لا نتحادث بالمرة! كنا نهمل الحديث في الأمور المهمة وخطط المستقبل، وأما الآن فلا نتكلم حتى في التوافه.

– السبب أنني أعيش هذه الأيام عالماً موازياً.. أنا أعيش بكل جوارحي في روايةٍ حدثت في زمنٍ آخر لروائي أثير لدي.. وهي للأسف روايةً ناقصة، أي أننا للأسف لن تعرف أبداً نهايتها.. ويتملكني من ذلك شعورٌ بالطعنة العميقة والجرح لا يمكن تجاهله.

هزت رأسها بفهمٍ عميق:

– لقد خبرتُ هذا الهجران في الماضي وعدة مرات، لكن انهمكت في الكتابة والإبداع.. أنا التي ظننت أن السبب هو كالعادة جيبك الفارغ إذ لا تقدر على النزهات والمطاعم.. لقد أخبرتك مراراً أنني لا أكترث للكماليات.

نفختُ الهواء من شفتي في ملل.. كالعادة امتلأت علاقتنا بانعدام الفهم وسوء التواصل.. اليوم لا أستطيع التوضيح ولست أرغب في الجدال.

في بيتي أعود فوراً إلى قراءة السطور الغامضة المتراقصة في العتمة والتي أشعر بعلاقتي الوثيقة بها ويبطلها وكأنني كنت معهما في مكانٍ ما، أو أن علاقتهما تمسني بعمق كأنها علاقة أبي بأمي.. أنزوي في حجري دون أن أتفوه بكلمة لرفيق سكني:

((كان الأمر أشبه بمزحة أو حلمٍ قصيرٍ جميل لن ألبث أن أصحو منه. (نحن خطيبان!!).. في كل مكانٍ نتواثب بخفةٍ ونقهقه دون توقف ويدها باستمرار حول ذراعي.. شعورٌ بالسعادة العارمة العصية على التصديق لفرط

حلاوتها.. لا يوقظني منها إلا تقلبات مزاجها المتكررة وحين تتوقف عن مخاطبتي لسببٍ تافه، فاختبر ثانيةً الواقع المرير وأرتد للسنين الخوالي العجاف المقفرة والملأى بالمطاردات والحرمان.

وسط حلم سعادتي ألمح أصدق أنا وزملاءنا يتعجبون لهذا القران غير المحتمل فأفكر مراراً في كآبة:

– آهٍ... ليس لدي أدنى شكٍ في أنها لا تحبني.. وفي الواقع فأنا ككل أولئك النظارة الحاسدين أتساءل من وري لم وافقت على خطبتي!.. هي الحسناء الثرية الارستقراطية السيدة الضاحكة أبداً.. لقد توقعت طيلة سني مطاردتي لها وتعاستي الطويلة أن يخرج علينا فجأةً من حيث لا ندري خاطبٌ ثريٌ وسيم يحملها من وسطنا في سيارةٍ فارهة.. لكن ذلك لم يحدث أبداً!

ثم إن أحد أصدقائنا المشتركين –كجميع سارقي الفرح– أيقظني من سباتي هاماً في أذى:

– أنت محق.. فتاتك لم تُخطب في الماضي أو تطلب مراراً كما نتوقع لمثلها.. خطبةٌ واحدة أو اثنتين عابرتين انتهتا كما بدأتا في سريةٍ وبهدوءٍ تام.

لم أحب بل كشرت في اشمئزاز.. لا يعجبني التهامس الخبيث المكبوت والشائعات اللئيمة، لكنني لم أطق صبراً في انتظار المزيد.

– أسرةٌ غريبة الأطوار حقاً.. الأب ورغم ثرائه ومنظره الصحيح المرفه يعاني كما قيل من مرضٍ مزمنٍ عضال، ولذلك ربما لم يكافح ضدك بكل ما أوتي من قوة.. وأما الأم –وهذا هو الأهم– فقيل أنها عانت من الداء ثنائي القطب.. تتأرجح بين الهوس والاكتئاب وبالعكس، ثم إنها أنهت حياتها بيدها منذ بضعة أعوام.. جرعةٌ هائلةٌ من المسكنات كما سمعت.. وذلك ما ثنى عن

فتاتك عشرات الخاطبين ولاسيما أمهاتهم.. من يريد فضيحةً كهذه وسط العائلة إن كان بوسعه تجنبها؟ ثم الفكرة السائدة بأن المرض العقلي يسري في العائلات إلا يمكن إلا أن تخاف أمهات الخاطبين وتحدث النزاعات.

– ذلك يكفي.. لا أود سماع أكثر من ذلك.. أتساءل إن كنت تغار سراً من حبنا.

ثم إنني سألتها مرة:

– وما هي أقدع الشتائم التي نعتني بها ابوكِ؟.. أحب أن أعلم.

– ولم إثارة المشاكل؟.. أنت تهوى النكد!

– لا أفهم كيف ينظر إلى الرجل، وكذلك وسطِ المخملي بأكمله..

– لا أذكر (كاذبةً).

ثم وبعد دقائق:

– فقير كفأر الجامع، وذو مظهرٍ كئيب (تضحك بصوتٍ عال).

– لكنك لا تشاركينه الرأي (أجبت في انزعاج).

– لا طبعاً.. كما أنه يخجل من الظهور معكَ علناً..

– بلاطك.. ذلك ما توقعت! بذاته الفاخرة وربطات العنق والساعات الثمينة! ذلك شخصٌ ورث عن أسرته كل شيء ولم يتعب نفسه يوماً.

– ذلك تماماً ما أشار إليه.. الحقد الطبقي.. إنه يخشاه غريزياً.. ثم إنه نعتك بالانتهازي..

– ذلك يكفي.. فليتحفظ بماله.. أنا لن أغدو يوماً بمثل ثرائه، ولكن يكفيني القول أنني لن أحتاجه في شيء.. ولن أتسول منه قرشاً وأحداً ما حييت..

– المسألة ليست بتلك البساطة.. لا يمكن للرجل المسن أن يحتفظ بماله إلى الأبد..

من تلك اللحظة وإلى النهاية شعرت بلسعةٍ لكن رأيته من جراء احتقاره لي.. نظرت بحقدٍ إلى بدلاته الثمينة المكوية بعناية وحركاته الدقيقة الارستقراطية بشكلٍ مبالغٍ فيه بينما طالعتني خلسةً نظراته المزدرية.

وصف (الانتهازي) لا ينطبق عليّ أنا.. لا يمكن أبداً أن أسمح لهذه الكلمة بأن تقترن بي ولو بالهمس أو الخيال.

ولكن مخاوفي سرعان ما تحققت.. حين سافرت إلى الكويت لأدرس العقد مع صاحب الدار وكذلك العقود المستقبلية لم يمض أسبوعان قبل أن تصلني منها رسالة اعتذار..

– أرجو أن تسامحني.. فلتنسَ ما بيننا.. لقد حاولتُ أن أردم الفجوة ولكن عبثاً.. للتنازل حدود، وربما كان والدي محقاً رغم فجاعته.

مرت في الغربة علي أسابيعٌ مسمومة.. آهٍ من ذلك الألم.. متاهة فسخ الخطبة والضياع والحيرة والصراخ المكبوت في الظلام.. كي نشفى لينبغي أولاً الاعتراف..

لم يحدث أن عذبني أحدٌ بطول ما فعلت هذه المرأة.. ألمٌ كالخنجر بهذا العمق والنفاذ وعلى مدى أعوام.. كل ذلك الشعر والجذب وفي النهاية الانفجار،

كبركانٍ يغلي أعواماً ثم ينبق فجأة.. أبكي طيلة ليالي وأتأمل واكتب خواطر قصيرة تبللها دموعي ثم لا ألبث أن أمزقها..

أهذا إذاً هو الحب؟.. ذلك الشيء المرعب كالخطر يتهددن في كل زاوية ويتربص لنا في الظلام؟ الحب أشبه شيء بمرض.. ضعفٌ ساحق ومتاعب لا تنتهي، وفي النهاية يجردك بالتدريج من حياتك ويستل منك بالتدريج أنفاسك.

وما نفع الحب؟ والوقوع المؤلم في الحفرة ذاتها المرة تلو الأخرى حتى تحطم هامتك وأضلاعك وكرامتك ولا يعود بمقدورك حتى النظر لوجهك في المرآة.. وحين تبلغ أخيراً الحب الحقيقي والشخص المناسب تكتشف أن ليس ثمة في صدرك بقيةً من قلب من كثرة الندبات والجروح.. في النهاية وبعد طول انتظار تكتشف أن ما عاد بمقدورك أن تعشق إذ أضحيت جسداً فارغاً.. حين أعود إلى الوطن أتجنب رغماً عني الأصدقاء المشتركين، وأهرب من المقاهي ذاتها ومقاعد الحدائق إذ يرتسم لي من حيث لا أدري خيالنا معاً بذراعها حول ذراعي وضحكتها المبحوحة الجذابة في الأذن فتصد ثانيةً القصة إلى حلقي)).

بزغ لي في الظلام وجه الخطيبة صعبة المراس بدقةٍ مذهلة... وإذ أعاد التلفاز عرض برنامج تأبين الراحل في أربعينيته رأيتها فجأةً أمامي على التلفاز.. كانت تلك الشابة الجذابة الواقفة إلى جانبه مرةً أو اثنتين مما بين عشرات الصور ترتدي تنورة منقطة بدوائر كبيرة وذراعها حول ذراعه وشامتها تحت العين اليسرى لا تخطئها العين.

كانت في التلفاز تماماً كما تخيلتها طيلة قراءتي.. الوجه ذاته والضحكة الصادقة من القلب والعينين تنغلقان ناشدة اتساع الابتسامة... لكنها المرة تنظر إلي أنا بالذات كما لو تخاطبني!

من هي هذه المرأة وما حقيقتها؟ وكيف لم أنتبه لها سابقاً؟

* * *

– 7 –

تصيح الممثلة بصوتٍ جذاب مصطنع على الهاتف:

– أرض ثانية.. لقد مررنا بالمحادثة ذاتها المرة الماضية.. أنا في قمة الإحباط، ولكن يا عزيزي.. لست أنا من تلعب دور الأم في سني هذا.. ولياقتي.. لا نرى حولنا كثيراً من الأمهات الشقراوات الكحيلات مرتديات البناطيل.

تابعت جلوسي في غرفة معيشتها منتظراً بصبر دوري لمحادثتها.. وانتبهت إلى رموشها الكثيفة شديدة الجاذبية المغموسة في كحل كثيف.. ليس في هذه المرأة شيءٌ واحدٌ طبيعي، وتحت هذه القنعة والمساحيق تختبئ أنثى أخرى يصعب تمييزها ينبغي تذكر ذلك.

– ذلك مجتمعنا للأسف.. وهو ذا السن المحير.. على الشاشة فقط إذ لا يخيرني سني شخصياً، وليس لدي أدنى شكٍ في شكلي أو إمكانياتي.. ولكن لا تلعب معي تلك اللعبة: الإطراء.. لابد أن في العمل دوراً آخر..

لا يمكن الاستماع إلى محادثات الآخرين على الهاتف دون أن ترتسم على الوجه تعبيراتٌ خاصة.. الدهشة أو الاهتمام أو الابتسام أو حاجبٌ مرفوعٌ، لاسيما مراقبة البشر الذين يتصرفون وكأن لا وجود للآخرين من حولهم..

خشيت أن ترتسم على وجهي أفكاري.. فكرت.. لقد تجاوزت يا عزيزي السن المحير من زمن طويل..

لا أدري كم طال صبري.. كانت المرأة تحدق في الأرض بنقطةٍ واحدة وكأن محدثها مستلق عند قدميها، واليدان لا تتوقف عن الحركة والتناوب على حمل الهاتف.. في النهاية قلت وقد نفد صبري:

– والآن أرجو أن تخبريني من هي بالذات بطلة الرواية.. ليس لدي أدنى شك من أنك تعلمين شخصيتها وربما عرفتها شخصياً..

لقد استرسل المرحوم من وصف شامة خدها الأيسر وشعرها المتوسط وملابسها المنقطة وياقاتها المرتفعة حول العنق، وقد رأيت صورها على التلفاز عدة مرات بما لا يدع مجالاً للشك.

هتفت وعي ما زالت شاردةً مستقرةً من وطأة المكالمة الطويلة المضنية:

– أنت فضولي حقاً، لا بل طفيليٌ مزعج كذبابةٍ لا تكل.. لا تكف عن الوزيز والعودة لبناء للنقطة ذاتها.. ما همك أنت عمن يكتب زوجي؟ ولم لا تتعامل مع الرواية كعمل أدبي منفصل عن أي شيءٍ آخر؟ كأنه نصٌ درسته في كلية الآداب وينبغي معالجته..

– المسألة ليستا بهذا التسطح أو البساطة!

– دون شك! بل هي في غاية التعقيد.. لا تنسى أنك تكلم زوجة الكاتب بالذات.. الأرملة التي لا ترغب الآن في الخوض بمواضيعٍ دقيقةٍ حساسة ولا في نبش الماضي المؤلم..

– يحدثني قلبي أنكِ لستِ بهذه الحساسية المفرطة التي تزعمين (رددتُ في انزعاج).. أم أنه دورٌ آخر تلعبين على المسرح؟ دور الأرملة الجريحة المفجوعة؟.

رفعت حاجبيها وزعقت بحدة:

– أنت وقح..

– شكراً..

– لو أن الوقت لم يداهمني لسحبت منك الرواية منذ زمن، فأنت لا تعمل شيئاً سوى التأمل والتعجب وطرح الأسئلة، ولست أعلم إلى أين يفضي بنا كل ذلك.. ثم أي فرقٍ لو أنني همست في أذنك بأي كذبة؟ وهل ستميز الكذب؟ هي حبيبته أو خطيبته أو زوجته.. امرأةٌ عبرت حياته، وهو لم يكن –كما علمته– زاهداً.

– بل زوجته السابقة! إنها تتصرف على الصور كزوجة.. تضحك للكاميرا مباشرةً، وتغرس أصابعها عميقاً في ذراعيه..

– نعم زوجته الراحلة.. كما تشاء! أنا لست الزوجة الأولى كما علمتَ.. والآن أفضي واكتب شيئاً ما.. أولاً تكتب أي شيء.. فقط خاتمةٌ مفاجئة تنهي الرواية.. زلزالٌ أو حريقٌ أو ما شابه..

– أشكرك على إجابتكِ.. يساعدني حقاً أن أفهم ما حدث..

قلت ذلك ومضيت قبل أن تطلق ثانيةً لسانها الجارح.

في الشقة كان توقيت رفيق السكن يحزم أغراضه للرحيل..

وصديقي شابٌ ممتلئٌ وسيم كبير الرأس دائم الابتسام بحركات عصابيةٍ باليدين لا تتوقف.. تارة ينفجر فجأةً بضحكةٍ عصبية وتارةً ينتف أشعار شاربه أو لحيته أو يغطي وجهه براحته..

– تبدو قلقاً.. أنتَ لا ترغب ربما في ترك المنزل..

– القلق أمرٌ طبيعي.. قبل زماني.. آن أوان الزواج، وما جدوى التأخير إن كان ذلك قدرنا جميعاً؟..

– تدهشني حكمتك البسيطة، واستسلامك التام للقدر..

همستُ له في اكتئاب وعيني تدوران باستمرار بحثاً عن شيءٍ ما فأجاب:

– لا ينبغي للخطبة أن تكون أبدية.. ما لهذا خلقت فترة الخطوبة.

– نعم.. نهال تشاركك الرأي، إن كان ذلك ما تعني..

– لم أقصد السخرية، ولكن فكر في أن الشقة ستغدو لك بالكامل، وإذاً سيخلو لك الجو لاتخاذ الخطة التالية.

– وكيف أدفع أجرة الشقة بمفردي؟ إن كنت فقيراً فطيبتي معدمة.. ثم إنني لا أذكر أن خطبتنا كانت في يومٍ ما رسمية..

أهرب إلى كلماته وسطوره الأليفة النابضة بالحياة:

((حين سمعت من صديقنا المشترك عن الوفاة المفاجئة لعزيمي (والد ليلى)، لم أصدق أذني.. لقد بدا لي الرجل حيوياً معافى وسيماً ما خلا بعض ملامح الكآبة المفهومة، وقد عذبني وجهه المتعالي مراراً إذ أطل علي باشمئزازٍ حتى في أحلامي.

اليوم أصبحت ليلى وحيدة، إلا من بعض الأقارب (الخصوم) لم يطلب بي التفكير قبل أن أقرر زيارتها.. أقلقتني هشاشتها وأمزجتها، وخشيت أن تدفعها الوحدة والفقد لإيذاء نفسها.

في منزلها الفاره ذي الدورين جلس قلةٌ من المعزين بملابس سوداء ووجوه قاتمة في بهو الدور السفلي دون أن يكلم أحدهم الآخر.

كذلك وجت نفسي جالساً بينهم غارقاً في صمت المكان الثقيل لكن أعماقي كانت تضج بالأفكار الصاحبة.. رحت أتأمل ثانية في عذاب الحب.. ذلك العذاب الذي نستغرب ونحب.. تلك الريح التي تعصف منا وتحولنا حيثما تشاء، وتغير باستمرارٍ قوتها واتجاه هبوبها.. وقد دفعتني اليوم إلى هذا المكان لأجلس بين هؤلاء الغرباء دون سببٍ واضح..

حين آن أوان الرحيل لم أكن قد شاهدتها بعد.. أخذ الغرباء ينسحبون واحداً تلو الآخر حتى رحت أتململ في حرج..

علمت أنها هناك خلف أحد الأبواب المغلقة، وربما لا تعلم شيئاً عن وجودي..

قررت فجأةً المجازفة، فنهضتُ بثقةٍ كأهل البيت ورحت أتجول في الغرف الخلفية حتى لمحتها في المطبخ واقفةً تحادث امرأةً تطهو. حين وقعت عيناها علي لاحظتُ على الفور كيف أحاطت بهما الدوائر السوداء واحمرت من كثرة البكاء، ولكن ظلت رغم كل شيء شديدتي الاتساع والصفاء..

ارتسم على وجهها أولاً تعبيرا الدهشة والذهول لرؤيتي، ثم حلّ تعبير الطفل الحائر التائه تعثر عليه بعد أن أضاع الطريق.

راحت تقلب شفتيها وهي تقاوم بصعوبة الرغبة في البكاء. ثم إنها فتحت ذراعيها فجأةً وعانقتني بشدة وهي تجهش في بكاء مرر دون كلمةٍ واحدةٍ أو عتاب علمتُ أن حمل ما مضى قد غفر وأن العذابات التي أرعبتني وأرقتني قد انمحت وغسلت تماماً بسيل هذه الدموع وقوة العناق الشديد!

بعد شهرين تماماً تزوجنا!))

* * *

– 8 –

الآن بدأت أفهم.

المرحوم إذاً يحاول أن يقص علينا بأسلوبٍ هادئ موارب قصة زواجه الأول مع تلك الأنثى الفراشة والتي عذبه.. لأسبابٍ شتى.. حبها.

أصابني الرضا العميق إذ أدركت أخيراً ماذا أقرأ.. كانت لهجة الكاتب ذاتيةً جداً أو مؤثرةً لدرجةٍ يصعب معها تصديق أنه يكتب عن شخصٍ آخر أو أنه يخترع كل هذه الأحداث من بنات أفكاره.

لكن إحساساً بالشك أفسد علي راحتي.. ماذا لو أن صباح ألقت لي بكذبةٍ أي كذبة كي تنهي ذلك الجدل؟ إن علي أن أتأكد بنفسي! وشخصية صباح ليست مثالاً للاستقامة أو الصدق.. إنها ممثلةٌ إلى العظم بكل جوارحها وكيانها.. وهي تكاد لا تعيش في الواقع بل على خشبةٍ وهمية من نسج خيالها أغلب الوقت.. وهكذا دبرت لقاءً مع ناقدٍ أدبيٍ مسن يتردد أحياناً على مقهى الأدباء في ساروجة.

كان السيد الحسيني يظهر مراراً على شاشة التلفاز، وقد ذهلت حين رأيته إذ تقدم في السن بسرعةٍ خيالية.. بدت تجعيدات وجهه كالأرض العطش المتشققة..

أخذ يجيب على اسئلتي مرتدياً –لسبب ما– بذلةً ورطبة عنق وكأنه في لقاءٍ إعلامي آخر.

– نعم عرفت السعدي شخصياً.. لقد التقينا مراراً على فتراتٍ متباعدة، ولكن ليس مؤخراً إذ سيطرت زوجته الأخيرة على المشهد تماماً. لقد ابعدته العقربة الشقراء الخبيثة عنا جميعاً ، والواقع أن حالته كانت تزداد سوءً..

– عن أي حالٍ تتكلم؟..

– ألم تعلم؟ الشرب.. بات الرجل مؤخراً دائم السكر.. حتى أنه تحرك في دوائر المجتمع والتكريم وفي دمه باستمرار نسبةٌ ضئيلةٌ من الكحول، ولم تؤثر تلك النسبة في أدائه أو لغته، ولكنها صبغت وجهه بالحمرة ورسمت ابتسامة رضا حمقاء على وجهه تناوبت أحياناً مع نوباتٍ من الهياج والنكد..

– عرفت أنه كان يشرب، ولكني لم أعلم أن المشكلة كانت بهذا التقدم!. ولكن ماذا عن زوجته الأولى؟.. هل كانت أفضل حالاً من الممثلة؟..

تنحنح عدة مراتٍ وهو يفكر قبل أن يجيب.. كان يشعر بأهميته القصوى وكأنه يعطي شهادةً للتاريخ..

– تقصد ليلى؟.. لقد قابلتها عدة مراتٍ في الماضي الغابر ولا أعلم ما حل بها.. أغلب ظني أنها توفيت فجأةً ولا أعلم مم، ولكن صباح ظهرت فجأةً في حياته آنذاك فسطعت شمسها على الصورة حتى أحرقت جميع نواحي حياته.. أذكر أننا التقينا مرةً في السبعينات بحفلةٍ خاصة وأنهما تشاجرا طيلة الحفل –ليلة والسعدي– حتى إنها عادت إلى البيت وحدها بسيارة أجرة.

– علاقةٌ عاصفةٌ إذاً!

– وباستمرار على جميع الأسنة.. الخلافات المرعبة والفراق ثم لم الشمل المتكرر حتى باتا حديث الوسط.. لقد أحب أحدهما الآخر وكرهه في الآن

ذاته، ولا يبدو أنهما قدّرا السرية حق قدرها.. كانت الحياة لهما مسرحاً هما فيه الممثلين الوحيدين، ولم يعنِ الآخرون لهما شيئاً..

– ألديك صورةٌ لها؟..

– ولِمَ يكون معي لها صورة؟ أخبرتك أننا لم نكن أصدقاء، وهي لم ترغب في صداقة أحد.., لكنني ما زلت أذكر وجهها الممتلئ المنير وضحكتها رائعة الإشراق وعينيها العسليتين الرائعتين فوق شامة الخد الجميلة..

ثم أخذت تلك العلاقة العاصفة بين شخصين مسيئين تؤرقني أكثر وأكثر، وتشدني إليها كالرمال المتحركة.. ومن يمكن أن يساعدني أكثر من صباح؟.. حين سألتها هزت رأسها في عناد:

– لا أعلم.. لم أعرف زوجته الأولى شخصياً.. لا تسألني عنها ثانيةً من فضلك..

– لا عليك.. أشكر أنكِ وضعتني على بداية الطريق.. ثمة دوماً آخرون عرفا كليهما، ومهمتي أن أعثر على أولئك..

عبست صباح فضاقت عيناها الجميلتان، ثم إنها هتفت:

– والآن فلتأذن لي.. لدي زيارةٌ خاصة وأرغب في أن أكون وحدي.

من الواضح أن تطفلي قد بدأ يزعجها..

خارج المبنى رأيت الناشر السيد مروان.. كدنا نصطدم ببعض ولم يعد ممكناً أن يتجاهل أحدنا الآخر.. كشرتُ قائلاً:

– السيدة صباح في انتظارك..

ضحك الرجل بخبثٍ وهو يفتل شاربه الكثيف قائلاً:

– وأنا هنا فالعادة قبل الموعد.. مواضيع العمل بيننا لا تنتهي، وروايات الراحل ما زالت الأكثر مبيعاً..

لا داعي للتبرير! –فكرت– ماذا يفعل رجلٌ متزوجٌ بكامل أناقته ومعروفٌ بكثرة خياناته في منزل أرملةٍ بعد التاسعة ليلاً؟ ماذا حل بالعالم وإلى ماذا يرمي الثعلب؟ هرولت بعيداً وأنا أشعر بالتقزز من الرجل..

ورحت أقرأ كلمات السعدي، ووددت لو كلمته وأخبرته عن ما يحدث في منزله!

((منذ اليوم الأول رحت أتعرف على تفاصيل عديدة في شخصيته حبيبتي لم أعرفها سابقاً، ولكن مهلاً.. رما عرفتُ كل شيء، لكنني تعاميت عن الحقائق الساطعة وتلك غشاوة العشق.

الآن زواجنا ربما يرتاح الحب أو يهدأ.. لقد بلغ حبنا ربما محطته الأخيرة إذ آن له الآن أن يركن ويستريح بعد طول العذاب.. ولكن ما أقل ما عرفت!

لم تهتم حبيبتي كثيراً بالهمس والغزل واللمسات.. كانت بعيدة المنال، وكانت قبلاتي تثير فيها رغبةً عارمةً بالضحك وكأنني أدغدغها.. تقهقه مراراً قائلة:

– ذقنك غير مشذبة..

وهكذا شعرت بأن النار المشتعلة في صدري منذ أعوام، والتي آن أوان إخمادها.. ما زالت تلتهب في أعماقي وإن بقوةٍ أضعف.. ينبغي إعطاء ليلى مزيداً من الوقت لتتمكن من إسقاط الحواجز.. ينبغي تذكر أن هذه المخلوقة الوحيدة تماماً في العالم قد فقدت لتوها القريب الوحيد الحقيقي في حياتها.

ولكني إذ أنظر إليها أرى اثراً للتأثر أو الاكتئاب.. كانت زوجتي تضحك من كل قلبها.. وتبدو شديدة السعادة حتى الثمالة من أمور متناهية في الصغر والتفاهة، بل تنغمس كالأطفال في مشاغل صبيانية تملأ بها وقتها وكيانها جمع أعدادٍ من المجلات القديمة أو الثياب المستعملة أو قراءة قصص الأطفال أو مطاردة الفراشات بشبكةٍ كبيرةٍ في حديقة منزلنا الكبير – وهو بالمناسبة بيت والدها الراحل ومنزل طفولتها..

تعيش ليلى في عالمها الخاص مسحورةً مأخوذة بينما أنتظر أنا في زاويةٍ ما خارج ذلك التلون الصغير بانتظار أن تفتح لي الباب دون أن يبدو أنها تلاحظ وجودي.. أنا مكملٌ للصورة وحسب.. أنا الإطار الخارجي للصورة الجميلة داخله..

ثم تساءلتُ يوماً في خشيةٍ إن كانت أحبتني يوماً ولو لدقيقةٍ واحدة، لكنني أنتبه الآن إلى أنها ربما غير قادرةٍ على الحب... حيث أي مخلوق.. الأطفال لا يعشقون إلا ذواتهم ونزواتهم.. ألعابهم وحيواناتهم الأليفة..

وإذاً سيقدر لهذا الألم المستعر أن يستمر ولو بحرارةٍ أقل.. أنا الآن أجلس داخل قدرٍ كبيرةٍ فوق نارٍ هادئة، وهكذا ربما ينضج جميع العشاق.. أنا أنضج كل يومٍ باكتشافاتي وملاحظاتي.

نجلس في منزل أصدقائنا المشتركين (ربيع ورباب) والذين تزوجا بعدنا مباشرةً في زاويتين متباعدتين من الغرفة، كلٌ على حدى..

تبتسم طيلة الوقت دون أن تكلمني كلمةً واحدة، وفي الواقع لا تتفاعل معي إلا حين أبدي ملاحظةً تخصها.. أي إطراءٍ على شعرها أو ملابسها كفيلٌ بإخراج ضحكةٍ منها فوراً وحديثٍ سلسلٍ يتدفق منها دون توقف.

ويراقب ربيع حيرتي فوق وجهي من زاوية بخبثٍ وهو يبتسم.. كان صديقي هو الذي همس يوماً في أذني عن مرض أمها وغرابة أطوار العائلة.. يغمزني بعينيه السوداوين وشاربه الدقيق وهو يضحك ولسان حاله يقول:

– أخبرتك ولم تصدقني..

وربما:

– أنتَ لم تر شيئاً بعد يا صديقي..

أرتعد شاعراً فجأة بجفاف حلقي، وأنا أخشى من أنه كان على حق ثم أفكر:

– ربما كان يحسدني لا شعورياً دون أن يدري.. هو الذي تزوج فجأةً بعدي وبمن سابق إنذار.. وفقط حين بدأت معالم سعادتي تتضح.. من في زمرة الأصدقاء ولم يقع يوماً في هوى ليلى؟.. شريكتي أنا التي اختارتني دوناً عن الجميع..

أرمي لها بنظرةٍ ملتمساً الثقة والتعاطف فلا أجد! أنظر ناحيتها فأجد خواءً غريباً بارداً.. جسداً شمعياً كالتماثيل ووجهاً جميلاً داخله مجوف كرأس دميةٍ في زجاج العرض)).

* * *

– 9 –

ثمة أناس يمتهم التذمر لدرجةٍ يخشون معها زوال أسباب الشكوى.

صدق وجه نهال الأسمري برهةً من الوقت قبل أن تنطلق ثانيةً في الشكوى.. المرة كانت غاضبةً فعلاً ومجروحة.

بدا لي أن عينيها الواسعتين الجميلتين تزدادان كل يومٍ اتساعاً، وقد تألقت الساعة كنجمتين أو بحيرتين في الليل ربما من خيال دمعةٍ راحت تتكاثف..

– لقد أخبرتُ توفيق أنك لا تفكر حالياً في الزواج!

– لا أذكر أنني قلت ذلك.. (هززت رأسي محاولاً رسم ابتسامة).

– لقد أعاد علي كلماتك بالحرف.. حتى إنك لا تذكر متى خطبتني رسمياً!! ثم لا تفتأ تستغل ظروفك المادية كعذرٍ للتأجيل وتجميد الزمن عند لحظةٍ معينة..

أثارت شفتاها الملتويتان للأسفل شفقتي العميقة، لكنني ما كنت رغم ذلك لأتنازل أو أكذب.

– الواقع أننا لسنا مخطوبين بصفةٍ رسمية.. تفهمين ما أعني.. حفلٌ وخاتمٌ وعائلات..

– لقد قال إنك لا تفكر في الزواج مطلقاً، لا اليوم ولا غداً.. شهقتُ من كلماته وانتبهتُ إلى أن فكرة الارتباط لم تخطر لك على بال، لا اليوم ولا في الماضي.

– لست أدري أي تشويهٍ وتحريفٍ أدخل الغادر الطاعن في الظهر على كلماتي، ولكنني في حقيقة الأمر غير مستعدٍ الساعة للارتباط وأذكر أنني همست لك شيئاً عن ذلك.. والواقع إنك تنتقين من كلماتي انتقاءً ما يناسبك..

هنا اتسعت عيناها وتباعدت شفتاها واستحال وجهها بئراً مفتوحةً عميقة، ثم انهمرت دموعٌ صامتة.

– أرجو المعذرة.. يبدو أنني أعيش وحدي عالمٍ من نسج خيالي.. والحق أن كلمة الزواج لم تصدر يوماً عن شفتيك، لكنك تابعت مع ذلك رؤيتي.. أنا أحلم أحلام اليقظة.. ثوب الزفاف والزهور، وأرغب في الزواج بشدةٍ لدرجةٍ تجعلني أوشك على التقيؤ.. ليس منك بالذات، بل الزواج بحد ذاته.. رغبةٌ شديدةٌ لدرجةٍ تجعلني أهلوس وأتوهم.. أي شيءٍ آخر يمكن أن يعطيني شعوراً بالأمان؟ صخرةٌ صلبةٌ عوضاً عن الرمال المتدحرجة التي أقف عليها؟.. أنا التي لم تشتري ثوباً من ثلاثة أعوام، وقد امتلأت جواربي بالثقوب.

– ما أنا بالصخرة أو الأرض الصلبة التي توهمتِ.. لقد حاولتُ مراراً التوضيح.. لكنني مع ذلك أحبكِ وأرغب..

– كلا أرجوك (رفعت راحتها في وجهي).. ينبغي لهذا الوهم أن ينتهي.. إن عليّ أن استيقظ من حلمي الطويل.

قالت ذلك واستدارت خارجةً من المكان.

ثم إنني وقفتُ طويلاً سابحاً في عرقٍ دون ن أتمالك نفسي من ملاحظة وركيها العريضين الأنثويين غير المتناسبين مع الجذع النحيل.. بعد أن استعدت تماسكي خاطبت توفيق عبر الهاتف:

– ثرثارٌ كعادتك، بل وخائنٌ هذه المرة.. لقد حشوتَ رأس نهال بأكاذيب ومكائد بلا داع..

– لم أذكر كلمةً واحدةً غير حقيقية..

– ثمة أشياءٌ لا يفعلها ذو الأخلاق.. الإنسان الطبيعي و(الصديق).. الرجل الشريف لا يتصل بخطيبة صديقه وينقل لها بالحرف حواراتٍ كاملة.. أي صديقٍ أنت؟

– لقد استعملتَ لتوك كلمة الخطيبة.. حتى على نفسك تكذب..

– لقد تصرفتَ بنذالةٍ لا تغتفر.. تذكر ما فعلتَ إلى ألأبد.

– نعم (بالحرف حواراتٌ كاملة).. إذاً فأنا لم أكذب أو أحرف.. ينبغي توضيح الصورة.

– إلى الجحيم..

هنا أنهيت المكالمة وأنا أرتعد.. ماذا يحدث لي؟..

جلستُ في الظلام محاولاً تمالك نفسي.. لقد انعكست العلاقة العاصفة التي عنها أقرأ وعليها أقتات على حياتي أنا.. كيف عثر (صديقي) على الوقت لإحداث هذه الفتنة وسط استعداداته المحمومة لزفافه المرتقب؟.. ولكن كذلك أَحْدَثَ أصدقاء السعدي شرخاً عميقاً بينه وبين زوجته..

(((أصدقاؤنا المشتركون).. مصطلحٌ وليد معناه أصدقاء الجميع أو اصدقاء لا أحد.. نجلس مراراً –زوجتي وأنا– في الوسط الأدبي متبادلين معهم الأحاديث النخبوية والسفسطة حول كل شيء ولا شيء.. أولئك يحومون دوماً حولنا متراخين مسدلي الأذرع بضحكاتٍ عريضة كضحكات الزواحف –ربيع ورباب والآخرون– ثم نتحول بالتدريج في غيابنا دون سببٍ واضح إلى مادةٍ لتندرهم النخبوي.. يبدو ذلك جلياً في ابتساماتهم وهمساتهم ونظراتهم ذات المعنى وتعليقاتهم الطريفة.. تعلق رباب ساخرةً:

– ما أسرع ما دخلتما إلى ذلك الطور.. الصمت القاتل.. ترى متى نبلغه بدورنا؟

(وجهت سؤالها الأخير إلى ربيع)

أفكر بمرارة وأتنهد.. حقاً صديق الكل صديق لا أحد.. كذلك قال أرسطو.. بعد عشرة أعوام لن يكون أيٌ من أولئك حولنا.. ستغرقنا الحياة كما تذرو ريح الخريف الأوراق الصفراء المتساقطة، وستغدو هذه الجلسة وهماً أو ومضةً في الذاكرة.

وأما في المنزل فيستمر الصمت الكثيف.. تجلس أبعد ما يمكنها عني بجانب النافذة.. وما أقل ما نظرت إلى وجهي! تبتسم لنفسها وكتابها وللشمس والأشياء جميعها ولكن ليس لي.. أنا في الواقع ما زلت صديقها، ولم ارتفع بعد إلى مرتبة الزوج الحقيقي.

تختار مكتب والدها الراحل معزلاً لها عني لتكتب في دفترها الصغير وردي الغلاف مستقرة في الحجرة ذاتها التي استقبلت فيها يوماً كحشرة.

تجلس صغيرةً بين خزائن خشب الأبنوس المليئة بالمراجع المذهبة وأمهات الكتب، ويطل عليها من أرفف بعض التماثيل الصغيرة التي اقتناها الراحل من أنحاء العالم.. فوقها بالذات تمثالان صغيران لملاكين سمينين جميلين.. كيوبيد يجذب قوسه ولكن فقدت القوس.. وأنتبه كلما دخلت إلى القاعة الفخمة كم يشبه وجهها وجه هذين الملاكين بسمنته وتناظره وبياضه..

– كم أكره هذه الحجرة.. إنها تكاد لا تتنفس (اردد شاعراً بالضيق محاولاً أن اذيب الثلج.. أكمل حين لا أتلقى رداً).. وكل هذه الأرفف الثقيلة الموشكة على الانهيار! لم لا تجلسين في الحديقة معي؟ لقد جاءت قريحتي هذا الصباح بجانب النافورة الجدارية فأنجزت فصلاً كاملاً..

كنت قد اتخذت مجلساً بجانب نافورةٍ صغيرةٍ على حائط الحديقة يتدفق بها من فم قناعٍ إغريقيٍ صارخ سيلٌ من الماء إلى حوضٍ صغيرٍ حجري نصف دائري.

– لقد راقبتكَ من هنا، ولكن أفضل أن تجلس بعيداً عني.. الحديقة ليست ساكنةً في ساعات النهار وأنا كما ترى أكتب شيئاً..

– ماذا تكتبين؟..

– أكتب –إن شئت حقاً أن تعرف– قصةً هزلية.. عن مزارع خبيث يسرق بقرة الجار الطيب..

قال ذلك واصفةً يدها فوق فمها لتخفي ضحكةً عريضة.

– وماذا عن العشاء؟..

– لا عشاء لي الليلة.. لستُ جائعة.

ثم إنها تخرج عوضاً عن ذلك لتتسوق، وتعود محملة بأغراضٍ لا تصدق. وكيف ولماذا يخرج المرء فجأةً ويشتري في غضون ساعتين ملء عشرة أكياسٍ كاملة من أشياء غير ضرورية؟.. وكأنها تفعل ذلك عمداً. وللحق لم تطلب مني زوجتي مالاً قط، ولكن تلك المشتريات أشعرتني عموماً بالنقص والصغر.

كان المال الذي تقاضيت لقاء كتابي الأول قد أوشك على النفاذ وها أنذا ثانيةً أسابق الزمن لأنجز كتابي الثاني دون أن أعلم بالضبط مصيره.. لا إن كان سيباع ولا كيف ومتى سأنهيه.. لا يمكن للإنتاج الفكري أن يجعل المرء ميسوراً أبداً.. وتلك القاعدة تصبح حقيقةً ملموسة أكثر حين يعيش المرء في بيتٍ كهذا البيت التاريخي الضخم..

في ساعات الغسق أجوس وحدي في حجراته الكبيرة الهادئة.. أجلس غارقاً في قطع الأثاث القديمة الضخمة غابرة الطراز محدقاً في الأرفف الملأى بالتحف والصحون الصينية والفازات العملاقة.. ثم أقف متأملاً الشارع الخاص عبر النوافذ الكبيرة والأبواب المغلقة داخل شرفاتٍ دائرية فأبدو للمارة شبحاً في الظلام.. شبح المرحوم ربما..

يشعرني ذلك المحيط الفاره بالصغر الشديد وربما بالنقص المؤلم.. كم أنا عابرٌ في هذا المكان وحقير.. وأتأمل في شعوري بالنقص فيفزعني تأملي، إذ أعلم علم اليقين أن الشعور بالنقص لا يؤدي إلا إلى الكراهية العارمة.. هل أنا اتلمس لزوجتي لسقطات والنقائص لأعوض عن هذا الشعور؟ وهل يمنعني إحساسي بالعجز عن تقيرها حق قدرها؟..

ثم اشعر ثانيةً بجذوة الحقد الصغيرة ولكن الحقيقة تلتهب في صدري وأنا أنظر حولي.. كل هذا الفراغ الهائل الأرستقراطي الهادئ فائضٌ بلا داعي،

والطراز القديم الفخم مثالٌ لطبقةٍ متداعيةٍ بدورها فاشلةٍ أخلاقياً ومهترئة ويتم الآن استبدالها على مدار الساعة.. هذه الأرفف واللوحات العملاقة لم تعرف تبدلاً منذ عقود ولا لمستها يد كالذكرى..

كان إحساسٌ عارمٌ بالركود الآسن يلف المكان كالوشاح الرقيق فيغدو من الصعب التنفس تحته)).

* * *

- 10 -

يفوت موعد زفاف صديق -أو من كان صديقي- دون أن أحضره.. أمضيت تلك الأمسية بعنادٍ وحدي شاعراً بالكآبة والوحدة العميقة.. لا أصدقاء لي اليوم ولا حتى خطيبة.

الصداقة كما قيل شجرةٌ تنمو ببط.. من برعم إلى نبات صغيرٍ يتطاول، أما مع توفيق -رفيق أيام الجامعة- فالجشرة مريضةٌ من البداية، يبست تحت أنظارنا وتهاوت من أول ضربة.

رحت أفكر بالسعدي الذي شعر يوماً كذلك بالوحدة العميقة في بيته بالذات وبجعه المدير الذي عصف بحياته كالريح وجعله بائساً مريضاً.. ثم أرثي لحبي.. ذلك المخلوق الضعيف المشوه وقد عصفت به بدوره ريح الظروف والصعوبات فمات في المهد.

انتفضت غضباً ورحت أمشي بلا هدى.. كانت الشمس على وشك المغيب حتى رأيت نفسي أدق على باب الراحل..

فتحت صباح الباب بوجه قلقٍ عصبي قائلة:

- ما الأخبار؟.. هل ثمة جديد؟.

- لقد دخلت تماماً الآن في حالة الكاتب النفسية.. أنا الآن أعيشها بحذافيرها وأكاد أتقمص مشاعره وحتى الظروف الصعبة التي عذبته..

- وإلى أين يفضي بنا هذا؟

– إلى نهاية الرواية الحقيقية، كما أراد لها أن تكون.. أنا الآن داخل رأسه وصدره وأكاد أنطق بكلماته..

– يا إلهي! متى تترك فكرة معرفة ما دار برأس المرحوم؟ وأي خواطر ألمت به وهو يخط السطور؟ أي فكرةٍ سخيفةٍ هذه؟ أنا لا أفهم سر إصرارك.. أنت لم ولن تعرف أبداً زوجي..

– الأمانة الأدبية والأخلاقية ليست فكرةً سخيفةً! إنها السبب الوحيد الذي قبلت لأجله بالتطبع لهذه المهمة.. أن يكلمني الرجل من العالم الآخر فيجري من اصابعي أفكاره وهواجسه لفكرةٌ سماويةٌ وإيحاءٌ اختبره فقط الأنبياء والصالحون..

قالت بعصبية:

– اسمع.. يمكن لهذه الثرثرة والجدل أن يستمرا حتى الصباح.. أنت حقاً مخلوقٌ غريب الأطوار..

– ما لأجل الجدال أتيت فسامحيني ولكن لأسألكِ عن صديقين حميمين للمرحوم هما ربيع ورباب.. ينبغي أن أقابلهما بأي ثمن.. لمعرفة الحقيقة.

صمتت لحظة وهي تحدق بوجهي ثم قالت:

– لا أعلم عمن تتكلم.. لقد اختلطت عليك السنوات.. ربما هذان من أصدقاء الشباب حين لم أكن في الصورة.. ثم إن زوجي عرف آلاف الناس طيلة حياته وربما..

هنا دق الباب الخارجي دقاتٍ عنيفة فانتفضت محدثتي رغم ترقبها البادي.

– اسمع.. إن لدي زيارةً خصوصيةً جداً.. عليك من الآن فصاعداً التوقف عن زياراتك المفاجئة دون موعدٍ مسبق..

هنا أمسكت بيدي وجذبتني بعنف إلى غرفةٍ صغيرةٍ جانبية وهي تقول:

– انتظر هنا عشر دقائق تماماً دون أن تتنفس.. بعدها تفتح الباب وتنسل خارجاً دون همسةٍ واحدة.. نتكلم لاحقاً..

أخذ قلبي يبض بعنف شاعراً بالمهانة، وقد أساءت معاملتي وأهانتني إذ خبأتني بهذه الطريقة.

جلست على مقعدٍ وثيرٍ بجانب مكتبٍ خشبيٍ ضخم في الغرفة الخانقة المظلمة المجاورة للباب الخارجي وأنا أفكر في من عساه يزورها الساعة.. أهو الناشر العاشق ثانيةً؟. ولكنهما لم يجدا غضاضةً في السابق في تبادل الغزل العلني أمامي، وحتى اللمسات والضحكات المتآمرة دونما حياء..

رحت أسترق السمع وقد تناهت إلى سمعي حركاتٌ عنيفةٌ وكراسي تتزحزح كأن عدة أشخاصٍ تجمهروا في الخارج، وخيل لي أنني أسمع صوت صباح:

– لقد فعلت كل شيء وفقاً للأوامر.

سمعت صوتاً عميقاً لرجل دون أن أميز كلمةً واحدة، ثم اختفت الصوات تماماً.. أهي عصابةٌ أم منظمةٌ سرية؟ رحت أنظر في الساعة.. أمامي خمس دقائق أخرى في الظلام.. هل من المسموح أن أنير المكان؟.. وهكذا حتى اعتادت عينيّ على عتمة الغسق المحمرة وزارتا في الأفق الفارغة العميقة...

على رفٍ بعيد لمحت كتلةً بحجم دجاجة.. كانت في الواقع ملاكاً سميناً أو كيوبيداً صغيراً يسحب قوساً..

ينبض قلبي بعنف.. لقد انتهيت إلى أنني أجلس في الكرسي ذاته والحجرة ذاتها التي عومل بها السعدي الخاطب كحشرةٍ وحيث كتبت المرحومة قصصها الهزلية.. ربما تهشم الملاك الآخر، وأفرغت الرفوف من محتوياتها فما عادت حجرة المكتبة تشبه المكتبات في شيء..

جلس الملاك فوق رأسها ربما لأن هذا المكتب نقل من صدر الحجرة لهنا بجانب النافذة.. أنا أعيش التاريخ! أخذت أستنشق عبق الماضي والأرواح التي حامت في هذه الحجرة وقد مات الآن ثلاثتهم، الأب والابنة والخاطب وتدحرج المنزل العريق لأيدي الشقراء التافة اللا أخلاقية.. كيف حدث ذلك يا ترى؟ علي أن أتأكد..

بهبة عزيمةٍ مفاجئة وعوضاً عن مغادرتي عبر الباب فتحت النافذة وهبطت منها بسهولةٍ إلى الحديقة.. خارج نافذة المكتبة بالذات وقعت عيني فوراً على نافورةٍ حائطيةٍ معطلة كسر رخامها..

صباح تخفي عمداً اشياء عني لسببٍ لا أدريه.. انسللت بخفةٍ من باب الحديقة المفضي إلى الشارع.. أنا إذاً على السكة الصحيحة وفي المكان المناسب.. تابعت الهرولة إلى شقتي غارقاً في عرقٍ بارد بعد مغامرتي الصغيرة محاولاً فهم ما حدث دون جدوى..

((– أكاد أتضور جوعاً (تذمرت) ليس في هذا المنزل ما يوكل.. لم أعد قادراً على تمالك شعوري بالإهمال والتهميش..

– كان خطأً أن نطرد الطباخة.. الآن ترى نتائج قرارك المتسرع (تجيب مرغمة)..

– أي إصابة هذه؟.. صحيحٌ أنكِ لا تتناولين العشاء ولكنكِ لا تعيشين وحيدة!

احمر أنفها وهي تقهقه ثم أجابت:

– لا تتصرف كالأطفال.. ألا يمكنك الاعتناء بنفسك؟.. لقد عشت وحدك عقداً كاملاً فماذا جرى فجأة؟..

– ما تغير أنني تزوجت.. أو هكذا ظننت!

– يمكنني أن اقول الشيء ذاته.. ظننتُ أنني تزوجت، ولكنني في الواقع أنجبتُ طفلاً سمجاً لا يفتأ يدق الأرض بقدميه كلما أراد شيئاً!..

لقد دخلنا فعلاً منطقة حقول الألغام.. حين يشلنا الخوف فيمنعنا عن الحديث أو التقدم للأمام. كل ما يقال الآن يمكن تأويله أو عكسه، حتى يغدو مجرد الكلام فعلاً خطراً قد يودي بالحياة.. ينبغي دوماً إيجاد تفسير للنظرات والكلمات وتحليل التصرفات.. أهي الكلمات ذاتها على بساطتها أم لها اليوم دوافع أخرى ومعاني مستترة وخلفها انفعالاتٌ وتراكماتٌ مكبوتة؟..

وقد وجدت زوجتي في نزاعنا عذراً لتنزوي وتبتعد عني.. راحت تتحاشاني مخفيةً عني مشاعرها، كأن لديها ما يقال ولكنها تمسك لسانها. أقف في حجرة النوم ناظراً إلى مجموعة علبٍ على السرير:

– ما الهدف الرمزي الكامن وراء شراء خمسة أزواجٍ من الأحذية دفعةً واحدة؟.. هوس في العقل أم تنفيسٌ عن الغضب الكامن؟ أم أنها رسالةٌ خفيةٌ ما؟..

– توقف عن ذلك! ما همك إن كنت لم تدفع ثمن تلك الأحذية؟

– تلك هي المشكلة! ينتاب الرجل شعورٌ بالألم والعجز حين لا يقدر على شراء الضروريات، وأما حين يعجز عن شراء الأشياء الفائضة عن الحاجة، العجيبة والمسرفة ينعقد لسانه عن الكلام ودماغه عن التفكير.. هل علي أن أعتذر لأنني لا أجيد مثلك في إحراق النقود؟

– لا عليك، ولا تغالي في التفكير، فميراثي يكفيني وزيادة.. والحق أنني أعجز عن الاختيار فأشتري كل شيء تقع عليه عيني دفعةً واحدة.

– من حسن الحظ أن الأزواج ليسوا كالأحذية وأن الاختيار بينهم واجب..

وبدل أن تشعر بالمهانة من تعليقاتي تخفي ضحكتها بيدها وتبدأ في تجريب الأحذية واحداً تلو الآخر.. ثم تهمس فجأةً وهي تنظر من النافذة كأنها تكلم نفسها:

– بالمناسبة.. متى تبيع روايتك الثانية؟ وينبغي أن تبذل جهداً أكبر للتسويق.. أنا على وشك البدء في كتابة روايتي الكبيرة الأولى، علها تلاقي حين أنهيها حظاً أكبر من أعمالك الأخيرة.

يصيبني التجمد من جراء تعليقاتها وتصرفاتها.. المرأة التي أحببت غريبة الأطوار، ولا أعرف من الأشد تطلباً وضغطاً.. هي بأنانيتها أم أنه الوسط الذي ألقيت نفسي به فجأة؟ أم هو البيت الفاره والأثاث الفخم والجيران الأثرياء شديدو الفضول والخمول والذين يصرون سراً على الإجابة عن سؤالين ملحين.. أولهما ماهية مهنتي (الحقيقية) فالأدب بالنسبة لهم هوايةٌ وتسلية، وأما السؤال الثاني من السبب الحقيقي الذي لأجله تزوجتني جارتهم المدللة ذات النزوات؟

يصر الجار الثري المسن الهزيل صاحب المصانع عن سر أغواري واكتشاف عمٍ ثري لي أو حسابٍ سري كنت قد نسيته.. أو حتى معارف مشتركين بيننا دون جدوى..

وفي لاواقع فقد كنت في ذلك الوسط فائضاً تماماً عن الحاجة.. كزوجٍ سادسٍ من الأحذية قفز من العلبة.. كماليٌ ويمكن الاستغناء عني تماماً.. لقد كنت هناك كقطعةٍ باهتةٍ من الأثاث في الزاوية، لا اضر ولا أنفع.. والجماد يعجز عن التفكير أو الإبداع الأدبي وتلك كانت مشكلتي)).

* * *

- 11 -

الحياة مجموعةٌ من الخيارات..نقدم على بعضها، والبعض الآخر يطاردنا إلى الأبد..

كانت نهال قد توقفت عن الاتصال بي زمناً حتى أنها لا ترد على مكالماتي، وقد عذبني الفضول –أكثر من الشوق– ربما لأعلم ما حل بها.

أهي أثياب النوم تغصني؟ هل اتخذت يا ترى قراراً خاطئاً؟. تابعتُ أحلام يقظتي أفكر كل يوم في الحياة التي كان من الممكن لنا أن نحياها معاً لو كتب لعلاقتنا الاستمرار.. شكل بيتنا ووجوه أطفالنا.. لون الأريكة والستائر ونكهة قهوتنا وايامنا معاً.. هل القدر والنصيب أمرٌ حقيقيٌ ملموس أم أنه مجرد نتيجةٍ حتميةٍ لخياراتنا؟

أخيراً رفع أحدهم سماعة الهاتف، وبعد برهةٍ من الصمت الثقيل ردت زميلتها في الغرفة، وراحت تتحدث بصوتٍ مدرسيٍ رتيب وبعد وانيةٍ مبطنة:

– أطلب منك التوقف عن الاتصال.. ليس ثمة فائدة من المحاولة اليومية.. أنت لن تتغير ولا تريد أن تتغير..

– المعذرة.. أنا لم أتصل كي أحادثكِ، بل لأكلم نهال!

– وهي لا ترغب في هذا الحديث فتوقف عن تضييع وقتها وحرق أعصابها.. ثلاثة أعوامٍ أكثر من كافية.. الوعود والكلمات المعسولة والعواطف الكاذبة في مهب الريح..

– أرى أنكِ على اطلاعٍ كاملٍ بأدق تفاصيل علاقتنا!

– نحن الفتيات نثرثر ونتعاطف وتبكي إحدانا على كتف الأخرى، وإذاً فالجميع هنا على علمٍ بكل شيءٍ نعم.. أما الرجال فيضحكون هاذين الكتفين بلا مبالاة ويحضون للأمام دون كلمةٍ واحدة.. اليوم حان دورها لمضي بحياتها للمحطة التالية وهي اتخذت فعلاً هذا القرار..

– هل أفهم أنها ارتبطت؟..

– لستُ في حلٍ للإجابة فسامحني..

هنا انتهت المكالمة!

ما أعجب تلك الجمعية العالمية المكونة من الفتيات العازبات المتعاضدات المتكاتفات أبداً ضد الرجال – الأعداء الطبيعيين.. إنهن يتبرعن بالنصيحة وتمسك إحداهن بذراع الأخرى لشد أزرها قائلاتٍ كلاماً يشبه السم مسدياتٍ نصائح قاسية بأصواتٍ كالفحيح وتضيق عيونهن مفكراتٍ بنا.. هذه الرابطة الرمزية أكثر عدوانيةً وأشد أذى وفتكاً من الرجال المحاربين بالسيوف والبنادق..

هنا توقفتُ نهائياً عن التفكير والتخمين ومحاولات الاتصال، ولكن أبصرتُ في سماء حياتي وخيالي على الدوام عينيها مخيفتي الاتساع كبحيرتين مضطربتين من العسل الراكن..

على طاولته المفضلة عثرتُ عليه.. في مقهى الأدباء لحي ساروجة جلس الناقد المعتزل المسن بالبذلة ذاتها وحده يحدق في الفراغ مكتئباً ويده التي لم تكتب مقالاً من عشرة أعوام ترتجف بخشونةٍ حين يرفعها في الهواء.

– السيد الحسيني.. ما أحسن حظي اليوم لقد خطرتَ على بالي هذا الصباح.. أتسمح لي بالجلوس؟..

لم يُبد لي أنه تعرف علي إذ مر على لقائنا الأول أكثر من شهر لكنني ذكرته بنفسي قائلاً:

– أنا مهووس السعدي.. أعيد قراءة مجمل أعماله هذه الأيام وأحاول كتابة كتابٍ عنه..

– تذكرتك الآن.. وإن بدا لي أنك مهووسٌ أكثر بزوجته وليس به، ولكن ما علينا.

– بل به كإنسانٍ لا ككاتب.. الصفحات والسطور على شفافيتها صخورٌ صماء لا تعكس أحاسيس وحقيقة الكاتب وانفعالاته أو الأحداث التي تعصف بحياته.. كيف لم يخطر ببالك أنت كتابة هذا الكتاب؟ حتى إنني لم أعد أراك على التلفاز مؤخراً!

تنهد العجوز دون أن ينظر إلي:

– إنها قلة الوفاء.. ثم إن يديّ المرتجفتين ما عادتا قادرتين على الإمساك بالقلم.. لقد اعتادت حفيدتي كتابة ما ألقنها.. أما الآن فقد هاجرت كالجميع..

– هل قابلت يوماً مع الراحل صديقاً اسمه ربيع وزوجته رباب؟..

– لا أذكر أسماء تلك الزمرة المزعجة.. كانوا يوماً مجموعة من الشباب المتحذلقين العصريين بقمصانٍ ملونة وربطات عنقٍ كبيرة ممن يهوون الجدال وانتقاد كل شيءٍ بلا استثناء.. الآن بات أغلبهم كهولاً ربما أو ماتوا، وتحجرت

عقولهم في الماضي وباتوا من الطراز القديم الرفيع بذات الذائقة والقمصان المزركشة والدعابات المثقفة السمجة!

كان الرجل يمر بمرحلة الكآبة التي تسبق النسيان.. ينبغي إذاً اعتصار أكبر قدرٍ من المعلومات منه قبل أن يلتهم الزمن كالغول ذاكرته.. راح يحدق في الأفق المزدحم بالمارة ثم قال:

– ربما كان ذلك الشاب الضاحك كبير الرأس ذا الشعر ألأسود اللامع والشارب الدقيق.. سمعت أنه افتتح منذ دهر متجراً للأدوات الموسيقية في حي الشعلان!.. ألأدب والفن في حياة الغني طورٌ لا أكثر.. في النهاية يتغلب الواقع على الخيال..

ثم إنه استطرد مغيراً اتجاه الحديث مئةً وثمانين درجة، وحتى لهجته اكتسبت حيويةً مفاجئة:

– ولكن نصيحتي لك أن تعدل عن موضوع كتابك.. السعدي لا يستحق كل هذه الحفاوة والتكريم.. في زماننا اعتبر الراحل عديم الأصالة، إذ تفاوت مستواه وكلما قرأت له روايةً عجزت عن تمييز كاتبها دون قواسم مشتركةٍ مع الكتب السابقة أو اللاحقة.. ذلك يدعى تعدد الأصوات، أي أن الرجل بلا اسلوبٍ خاص أو دمغة ولا حتى مواضيع أثيرة، كما لو أن زمرةً من الأشخاص المجهولين ينشرون بغزارة كتباً تحت اسمٍ واحدّ.. لا أفهم مغزى ذلك الهوس الجديد المفاجئ به..

هنا انتفضتُ شاعراً بطعنة إهانة.. لقد تسرب الخرف إلى دماغ الناقد، بل ربما الغيرة.. من يحسد كاتباً على التقدير المتأخر؟

غادرتُ المكان على عجل وأنا أسمع قهقهة العجيبة:

– حتى إنك تركض في كل مكان بحثاً عن أصدقائه واسرار زوجته الميتة!

في المساء عاد السعدي لمخاطبتي بصوته الثابت ولهجته الواثقة المريرة.

((إنها تتحاشاني كالمجزوم.. أنا لا أهلوس بل هي الحقيقة بحذافيرها.. تنزوي في مكتبها وتكتب مخطوطها الكبير الأول وتعتقد أنها تؤلف شيئاً ذا قيمة..

وبينما تنغمس في الكتابة دون توقف أحاول جاهداً دون جدوى تسويق كتابي.. ثم إنني اضطر –لضرورات الحياة– إلى كتابة مجموعةٍ من القصص القصيرة المرتجلة في مجلات وجرائد الدرجة الثالثة.. قصصٌ عديمة القيمة أو الموهبة ولدت تحت ضغط الحاجة، ويرعبني أنها تدخل رغماً عني تاريخي الأدبي.. لقد تلوثت كبريائي الأدبية وبتّ أرضى بما لم يكن في الحسبان.. أخاطبها بمرارة:

– كيف انحدرت حياتي بهذه السرعة وإلى هذا الدرك؟ من سعادتي المنشودة إلى وحدتي هذه وجوعي للاهتمام؟ أنا لا أشعر بكِ.. كهذه التماثيل على الأرفف..

ترفع عينيها عن الصفحات وتزفر الهواء عبر شفتيها:

– كلكم سواء.. جميع الأدباء والفنانين –ويا للعجب– رجالٌ شرقيون إلى العظم حتى وإن فعلوا المستحيل لينفوا عنهم هذه التهمة الفظيعة..

هنا أكور قبضتي واضرب بها المكتب.. لقد دخلنا إذاً المرحلة التالية وانتقلنا من الصمت والعداء المكبوت إلى النزاعات الصريحة اليومية.. سم الحياة، لا بهارها كما قيل.

أخاطبها بلهجةٍ مريرة وأنا أرتدي ملابسي:

– سأزور جارنا لمعي وابنه الفاسد، إذ سئمت من الصمت الطويل في هذا المنزل الميت.. التواصل مهارة، وأكاد أجزم أن ليس في روايتك الجديدة أي حوار.

– توقف عن مضايقتي أرجوك.. لقد بتَ لا تطاق! ليست خطيئتي أنك فاشلٌ ومرير..

لذت بالصمت لحظات حتى أتمالك توازني ثم هاجمت:

– الفاشل هو الذي تسعين جاهدةً لمقارعته في مجاله بالذات.. أنتِ حسودةٌ بصورةٍ مفاجئة!.. كنت لأفهم لو أنك اخترتِ الرسم أو الموسيقى.. ولكن لا.. ينبغي تقليدي في كل شيء.

في منزل الجار الكبير ينسحب الأب المسن السيد طاهر في ساعةٍ مبكرةٍ لينام.. كانت صحة الرجل المسن دقيقةً وجسده النحيل محدودباً وهشاً.. بعد أن يأوي مبكراً يضحك ابنه الوحيد لمعي بخبث –وهو شابٌ عازبٌ أبدي– ثم يغيب ليعود بزجاجةٍ من الويسكي وعلبةٍ من السجائر المستوردة..

لم أنتبه وقتها إلى أن تلك السهرات البريئة العائلية عديمة الضرر ترسم ربما قدري ونهايتي.. لقيني يومها غمامةٌ من الخيبة والعزلة تحجب غير الرؤيا.. اكتب في قصتي التالية:

– نعم وحدي.. أقف في العراء كتمثال الثلج الحزين وسط العاصفة.. في الليلة الصقيعية الخاوية أتجمد في العراء وينكمش قلبي ثم تذوب أطرافي رويداً رويداً مع طلوع الصباح)).

* * *

- 12 -

المرة فتحت لي الباب تلك المرأة الغامضة طويلة القامة معقودة الشعر ذات الثياب الداكنة.. لم تتفوه بكلمة.. وقفت على الباب تحدق بي رافعةً حاجبيها في تساؤل.. لم أسمع صوتها وربما لن أسمعه أبداً..

ثم ظهرت صباح وقد بدت في عجلةٍ من أمرها وهي تقودني لغرفة المعيشة.. وجدت نفسي أتسأل مرغماً:

– من تلك المرأة التي تنتمي لعصرٍ غابر؟..

– نعم هي تقليدية الملبس قليلة الكلام.. وهي تُعنى بوالدتي المريضة.. (أجابت في اقتصابٍ رافعةً إصبعها مشيرةً إلى الطابق العلوي).

في المكتب جلسنا وجهاً لوجه.. قالت بعدوانيةٍ مبطنة وقلة صبر:

– الآن.. أرجوك قل إنك بدأت في الكتابة.. كل ما أطلبه منك أربعين صفحةً لا أكثر.. نهايةٌ ما مقنعة..

– ما سر الاستعجال المفاجئ؟..

– لقد سمعتَ ولابد أن الناشر قد انفصل عن زوجته وانتهى فجأةً من النزاعات والمشاكل متفرغاً كلياً للعمل.. لقد طلب مني الرواية في غضون شهر وإلا انصرف لمشروعٍ آخر..

أجبتُ محاولاً تغيير مسرى الحديث، متماشياً النظر في وجهها:

– وما رقم تلك الزوجة؟ الثالثة ربما؟.. أنا لا أفتأ أسمع عن الرجل الخبر ذاته طيلة عقدٍ كامل..

– كل ما في الأمر أنه غير محظوظ (مساءةً).. والآن لنتلكم عن اتفاقنا..

– لقد تضمن الاتفاق عرض روايتي عليه، أتذكرين؟ وهو ما لم يتم حتى الآن!

صمتت لوهلة وقد فاجأها ردي.. بدا واضحاً أنها نسيت تماماً روايتي ووعدها وكأنني لم استحق يوماً ذرةً من اهتمامها بأنانية الممثلات.. أجابت في تردد:

– من قال إنني لم أنفذ الاتفاق؟ مخطوطك الآن في حوزته وأنا بانتظار الرد.

أكاد أقسم أنها تكذب.. النظرات الجانبية.. والفخفخة وفترات الصمت.. هذه المرأة تكذب بالسهولة والتلقائية ذاتها التي تتقمص فيها دوراً جديداً، وهي تبرع في ارتجال الانفعالات اللحظية وتعابير الوجه.

– علي أن أزوره إذاً كي أتأكد..

– أنت لا تصدقني! ذلك واضح.. إذاً فلنقابله في دار النشر وحدك.. وماذا عن الرواية؟..

– لقد كتبتُ صفحتين الليلة الفائتة.. لذلك أتيت..

وهكذا ألفيتُ نفسي متورطاً في فعل الكذب الفاضح.. وبالأصح التأليف إذ اخترعت تفاصيل وزماناً لكذبتي، ككل المؤلفين ثم غرقتُ في التعرق والخجل

من نفسي.. ربما هي رغبتي في أن ارد لها الصاع صاعين، إذ أنها لا تصارحني بشيء وقد كذبت علي لتوها كما أنها لا تكن لي أي احترام.. أنا النكرة الذي يستحق الاستغلال ومص الدم، ككل الرجال في حياتها..

أجابت مبتسمةً وقد بدا الشك عليها:

– لذلك أتيت؟ لتخبرني عن الصفحتين؟.. أين همتا إذاً؟ فلتحضرهما..

في الواقع أنا لا أعلم لماذا جئت.. كنت كالمرحوم غارقاً في عزلتي بعد فسخ خطبتي..

– الأسبوع القادم.. حيث أنهي الفصل..

في النهاية خرجت من المنزل الغامض المرتفع كالنسر شاعراً بالغثيان.. ولكن على مضض إذ شدني إليه دوماً شيءٌ خفي.. بين هذه الجدران القديمة كُتبت عشرات المؤلفات التي شكلت ذاكرتي وغيرت مجرى حياتي.. ها هنا نبض قلب الكاتب الذي أسر خيالي أعواماً كاملة، حتى تقمصته وتوحدت معه.

بعد أسبوعٍ استجمعت الجرأة لزيارة دار النشر التي طالما رفضتني، وجلست قرابة الساعة في انتظار السيد مروان.

أخيراً استقبلني النذل باستياءٍ واضح إذ أتيت من غير موعد، وبدا أنه لا يذكرني بوضوح مع أنني قدمت له في الماضي عدة مشاريع راح يرميني بنظراتٍ نيرانية.

– تكلم.. الساعة تقارب التاسعة..

صدمتني عدوانية الرجل وعقدت لساني حتى أني فكرت في أن أنهض مولياً الأدبار..

– أخبرتني السيدة صباح بأنك تعيد قراءة (لون الفصول).

رفع الحاجبين الكثين باستغرابٍ واهتمامٍ مفاجئ:

– صباح؟ أنت الشاب الذي قابلته في منزلها!

راح يبتسم ابتسامةً عريضةً خبيثةً تمساحية وينظر إلي جانبياً.. لقد دغدغه اسمها وأسعده.. راح الرجل يفتل شاربه الكثيف منتقياً كلماته بعناية:

– عد لزيارتي الشهر القادم.. لا أذكر أنني قرأت كتابك.

ابتسمت شاعراً في سري بالاشمئزاز (ذلك لأن الكاذبة لم تطلب منك شيئاً)، ثم سألني:

– ولكن كيف تعرفتَ على الفنانة؟..

انقلبت النظرات الساخرة الضاحكة في العيني الداكنتين الشهوانيتين إلى نظرات شكٍ وخطورة.. سمعت نفسي أجيب بيأسٍ ودون اهتمام:

– الواقع أنني قابلت الفنانة وزوجها الراحل في هذه الدار بالذات.. أراك إذاً الشهر المقبل..

عدتُ أدق الشارع بخطى منهكة محبطة.. الأوغاد.. جميعهم يكذبون دون حياء ويتلاعبون بمشاعري وآمالي ليس كندٍ لهم ولكن كطفلٍ قاصرٍ لا يفهم..

وإذاً فالحيوان المشعر واقعٌ في غرام الأفعى الرقطاء.. سحقاً.. ليذهبا إلى الجحيم إذاً.. وأحدهما يستحق الآخر.. وهو عقوبة السماء العادلة لشريكه..

وأما السعدي فما زال غارقاً في بحر تعاسته يفيض عن الصفحات:

((وأخيراً دفعت إلى يدي بمخطوطٍ هائلٍ أنيق وجلست تبتسم باعتدادٍ وتحدي:

– أخيراً انتهيت.. لقد استَغْرَقَت كتابته دهراً.. فلتقرأ وتعطيني رأيك بصراحة..

– حبيبتي.. نحن لسنا في حالة تنافس.. ليس عليك مسابقة الزمن وتغيب النفس لتثبتي ذاتكِ.. الحياة ليست حرباً شعواء.. كانت روايتي الثانية آنذاك في طريقها إلى النشر.. أجابت وفي صوتها شعورٌ بالجرح والغضب:

– لست أفهم لم تتفوه بمثل هذه التفاهات؟ أخبرني أين قابلتني أول مرة؟ أجبني أرجوك..

– في الجمعية الأدبية..

– إذاً توقف عن مخاطبتي كأمية (راحت تصيح).. أنتَ خلافاً لأناك المتضخمة لا تلخص الأدب..

– ولكن نبرتك الجدية ونظراتكِ ومحاولاتكِ اليائسة..

– إما أن تقرأ المخطوط أو يتوجه مباشرة للنشر دون استشارتك..

– يتوجه للنشر؟! المسألة ليست بهذه السهولة.. لقد استغرقت عاماً كاملاً حتى..

– بل هي كذلك.. حتى لو دفعتُ آخر ليرةٍ أمتلك..

فالمسألة إذاً مسألة حياةٍ أو موت! كانت قد وضعت يدها الصغيرة على المخطوط بين يدي وراحت تسحبه محاولةً استعادته، لكن فضولي القاتل جعلني أهمس:

– بل سأقرأ.. امنحيني أسبوعاً أو اثنين..

كان الفضول يقتلني فعلاً، وأمرٌ آخر.. الخوف الشديد من المجهول.. الحذر والتوجس من الكلمات والعبارات الملتوية يلفقها ذهنٌ مريضٌ لا يعي تماماً ما حوله..

يضع صفحاتٍ كانت كافيةً لتأكيد مخاوفي.. كانت الرواية تتكلم عنّا بالذات، دون مواربةٍ ولا حياء.. الرواية تستعمل ضمير المتكلم وأما أنا فيشار إلي بضمير «هو» دون تحببٍ أو تقرب..

لقد تواجدتُ في محيطها بالصدفة البحتة كسحابة الصيف أو عربةٍ عابرةٍ مسرعة..

انعزلتُ في ظلام المخدع ورحت ألتهم الصفحات وقلبي يتآكل من الهلع.. لم أعلم سابقاً مبلغ حساسيتي المفرطة في إبراز حياتي الشخصية بتفاصيلها ودقائقها ومشاعرها ولحظاتها.. كانت حياتنا الشخصية تجرحني وتحرجني كما يجرح المرء فشلهُ.. إنها الفضيحة المسكوت عنها..

وتروي بإسهاب كيف طاردتها وحاصرتها كأنها تعتذر أو تشرح كيف (أرغمتها) على الزواج مني.. النظر إلى الأحداث من منظورٍ مختلف وبعينين أخريين هو تجربةٌ مؤلمة، كسماع نشرة أخبار العدو.. أين ينتهي التلفيق والأكاذيب والحرب النفسية والافتراءات، وأين تبدأ الحقائق (مرويةً بلسانٍ آخر) لا أحد يعلم..

كل التفاصيل المؤلمة.. رائحة أنفاسي وشخيري وتنفسي الثقيل في المخدع، وحتى لعق أصابعي بعد الطعام وذائقتي الريفية في الملبس.. كلها

تحددت هنالك على الصفحات بتثاقل، ومرت فوق روحي المتأوهة كحجر رحى ثقيل.

السؤال الذي يستحيل الإجابة عنه ما يفتأ يطرح نفسه دائماً.. كم تشبه الشخصية على الورق أو في الشاشة ملهمها أو أصلها؟.. أهي مقتبسةٌ بالكامل بحذافيرها أم أنها مستوحاةٌ فقط وبالكاد تشبه الأصل؟ هل تقرأ توثيقاً وتأريخاً للحدث أم نستلهم منه عملاً خيالياً بالكامل؟.. صاحت ثورتي:

– ذلك كله غير مهم، طالما أن البطل روائيً من الضواحي يشبهني وينطق بصوتي! كم تمنيتُ لو أن لمسةً عاطفيةً ظهرت أحياناً في صوتها أو أنها ألصقت بي –ولو كذباً– نفحةً هزلية أو موهبةً ما أو روحاً متفانيةً معطاء أو حتى هوساً بحبها.

ما أنا إلا ذلك الرجل الشرقي المقزز الأناني دائم الشكوى والتذمر والذي استمات لقتل موهبتها وتنفير أصدقائها..

تلك الليلة بللت دموعي الساخنة وسادتي.. كيف تفاجئني حكماتها بعد أن أخبرتني مراراً صراحةً عن رأيها بي؟ أنا الذي من فرط عاطفتي تألمت كلما ابتسمت لأنني لست موضوع تلك الابتسامة وكرهتُ أفكارها لأنني لست محورها، وكذلك الهواء الذي تنفَسَتْه لأنني لست في جزئياته..

حدقتُ طيلة في السقف ونصب عيني فكرةٌ واحدة:

– يحدث في هذه الحياة أحياناً أن لا يهم كم تعشق روحاً أو شخصاً وكم تتفانى وتضحي.. يحدث أن يكون ذلك الشخص عاجزاً تماماً عن مبادلتك ذات الشعور أو بعضه.. لا يهمُ الآخر كم من الدموع تذرف وكم من الهدايا تقدم ولا

كم ترغب وتتوق فأنت بالنسبة له غير مرئي.. خيالٌ أو شبحٌ أو ظل، لذلك لن تحصل على ذاك الحب المنشود.. أبداً.. أبداً!

رحت أقرأ يوماً بعد يوم، وقد تمالكتُ نفسي قليلاً.. وتملكني شهورٌ بالمرارة والعدوانية وربما تبلد المشاعر.. بات يجرحني الآن أنها طلبت مني بالذات تقييم الكتاب كناقد!! كأنني بلا مشاعر أو كيان.. ولا أمتلك البصيرة لفهم المدلولات..

وأما عن السلوب فحدث ولا حرج.. صبيانيٌ على أفضل تقدير.. بلا روح سردٌ عقيم وغير حيادي لوقائع متخيلة.. لولا أن الموضوع لامس حياتي شخصياً كما تمكنت من إتمام فصلٍ واحد.. نعم بلا روحٍ أو جوهر فكما أنها جسدٌ ووجهٌ جميلين مفرغين من الكيان كذلك أتت صفحاتها بنياناً ثقيلاً دون مشاعر أو انفعالات.. ولا حتى فكاهة أو ظرافة أو مفاجآت..

طيلة أيام قراءتي المضنية التعسة راحت تحوم حولي في حذر مسترقة النظرات القلقة وقد تجهم وجهها الجميل.. راحت تتساءل في سرها مذعورةً عن رأيي الحقيقي بغض النظر عن جراحاتي وكرامتي.

أنا اليوم أواجه مهمةً مستحيلةً وخياراً صعباً.. هل أخبرها برأيي الاحترافي الحقيقي؟ أو أرمي الأوراق في وجهها غاضباً؟ أم أنني سألعب دور الزوج المحب الداعم المتفاني مبدياً إعجابي بأصالتها وعبقريتها؟ ساعدني يا رب)).

* * *

- 13 -

من المؤلم كيف يسخر منا الحب فتنتهي إلى كره الأشياء ذاتها التي عشقناها يوماً في الحبيب.. ما الذي نغير؟.. عيوننا أم المعشوق أم مرور الزمن؟..

لقد أحب الرجل في أنثاه شجاعتها ولا مبالاتها.. صدقها واحترامها لنفسها وثقتها المطلقة بالذات.. لكنه تمنى بعد ذلك لو تتخلى عن جميع الأمور التي أثارت إعجابه بها.. لو أنها أقل جرأة وقسوةً ولو أنها تجامل وتداهي وتتظاهر بالحب وتسدل رموشها.. ليتها كانت ضعيفةً حائرةً كفراشةٍ هشة الأجنحة، وليتها تتوقف عن كتابة الكتب ومنافسة الرجال في مضمارهم..

والعكس صحيحٌ تماماً، فقد بغضت في خطيبتي يوماً كثيراً من التفاصيل.. لقد تحركت دوماً كروحٍ ضائقةٍ حائرة وبكت لأتفه الأسباب ونظرت بعينين زائغتين كبيرتين ولم تعبر عن رأيها.. اليوم ذلك ما أفتقد بالضبط، تلك الروح الضائعة تطاردني بلا هوادة كشبحٍ قتيلٍ يصيح.. كما مررت بنافذةٍ مضاءةٍ ليلاً خيل لي أنني ألمح عينيها الهائلتين الرائعتين تطلان في حزن عبر الزجاج على المطر والريح.. وأما صوتها الباكي فيهمس اليوم في رأسي كعويل غير مفهوم الكلمات..

ليس ثمة سو متجرٌ واحدٌ للآلات الموسيقية في حي الشعلان.. البقية أغلقت بفعل الأزمة وعوامل أخرى.

لم أتوقع أن أعثر عليه بهذه السهولة! في الحي الصغير التجاري أصحاب المتاجر الخاوية يحبون المساعدة مشيرين بأصابعهم وايديهم نحو ضالتي.. وأما هو فقد جلس هناك دون زبونٍ واحد يقرأ كتاباً وقد زاد وزنه بطريقةٍ مرضية.. يستحيل أن يخمن الناظر أن لهذا الرجل البدين الصلع ماضٍ في المنتدى الأدبي والجمعيات الفكرية والنخبة الثقافية!.

عزمت المرة على أن أكون صادقاً وقد تعبت من التظاهر والمسرحيات..

جئتك بخصوص الراحل العظيم السعدي.. لقد توفي مؤخراً كما علمت، وثمة أجزاءً في رواية له مجهولة التاريخ ظهرت.. ونحن نعيش في ماضيه كي نفهم تفاصيلها ونملأ الثغرات فيها تعليقاً ودراسةً..

تنحنح السيد ربيع لينقي صوته وابتسمت عيناه مستثاراً بعد أن بلغ منه الملل واليأس كل مبلغ..

نعم سمعت، وللأسف لم أتمكن من حضور الجنازة أو التأبين..

كيف ذلك؟ لقد جلستما في الحلقة الأدبية ذاتها أعواماً طويلة..

نعم لكنني كنت المستهلك وهو المنتج، وذلك ربما أعطاه شعوراً بالتفوق.. لقد تحول أصدقاؤه بعد نجاحه السريع إلى زمرة من المعجبين والعباد.. نحن لم نتخاطب منذ عشرين عاماً، اليوم لم تعد ثمة حلقاتٌ أدبية، بل جزرٌ منعزلةٌ من المثقفين..

كان صوته يشي بالمرارة وربما الغيرة.. الحنين إلى الشباب والماضي الزاهر تلطخه دوماً المشاعر السلبية.. ثم إنه سألني فجأة:

ولكن لمَ قصدتني بالذات؟ أنا اليوم نكرة..

العفو.. الحق أن روايته هي عن تلك الحقبة بالذات والتي التقيتما فيها كل مساء..

لقاءات عبثية انتهت إلى العدم وقتلت وقتنا وروحنا.. لقد بدأت مشاكله العائلية كطرفةٍ مسلية تناقلناها كأخبار المشاهير على صفحات المجلات ولكنها تواترت فيما بعد ذلك لدرجةٍ باتت تضغط على أعصاب الجميع.. كالحلقة المفرغة لا فكاك منها..

المشاكل العائلية؟

حديث ذلك العصر (يضحك).. هو بأناه المفرطة وطبيعته المتملكة، وهي بطباعها العنيدة صعبة المراس.. ثمة في كل منزل قبطانٌ واحدٌ للسفينة، وأما هنا فثمة قانبان، ومن عجيب أنه لم يخنقها بيديه يوماً أو أنها لم تدس له السم في القهوة.

لكنني لا أفهم سر الخلاف..

سر الخلاف هو كل ما يمكن أن يخطر على بالك.. كل شيء ولا شيء.. أصغر التفاهات.. النجاح المبكر يفسد كل شيء.. لقد أضحى (صديقي) بين ليلةٍ وضحاها قطباً من أقطاب الحقبة –يغير استحقاقٍ في رأيي الشخصي– فقد كان وسيماً غامضاً هوائياً واجتماعياً.. كان يجيد من الحديث والمقابلات وكذلك اختيار العناوين الجذابة لرواياته.. دمرتهما المقابلات التلفزيونية والصحفية وكتابة السيناريو والدعوات مدفوعة الأجر للندوات والمهرجانات.. لقد صدمتهما حياتهما الجديدة تحت الأضواء، فظهرت هي معه في كل مكانٍ بصورتها على صفحات المجلات.. سعيدةً ولكن مذهولةً في آنٍ معاً، وربما حاسدة..

كيف يكون النجاح هو المشكلة؟..

ذلك أنهما لم يسحقا ذلك النجاح.. هو بإدمانه على الشراب وعلاقاته، وهي بمرضها العقلي.. لقد راحا ينفقان المال كالمجانين كما لو في سباق، وحضرا الحفلات كل ليلة بسببٍ أو دون سبب.. لم تكن ثمة حياةٌ عائلية، لا أتربا، ولا أمضيا وقتاً في منزلهما ولا حتى فكرا في الإنجاب.. بل عاشا حياتين عبثيتين عديمتي القيمة وتشاجرا إذ لم يكن لديهما شيء آخر يشغلا به الوقت.. لا صداقة حقيقية بعد أن ضحيا بنا، ولا عاطفة ولا انتماء.. تلك هي القصة الأزلية للمال المفاجئ والشهرة والانحلال والعجرفة.

عجيبٌ كيف نحصد التعاسة حيث ينبغي لنا أن نحصد السعادة.. خلافاً للمتوقع والمخططات..

تماماً! لطالما تساءلت ماذا حل بهما؟ كيف انتهي مدمناً وانتهت هي في المصح العقلي مراتٍ عديدة؟ ربما كانت مثيرتهما الأساسية هي الأنانية المفرطة.. التضحية أو المساومة لم تخطر يوماً على بال أحدهما الأنانية مقتلة السعادة ومدمرة العلاقات.. وخطيئةٌ أن تقع في غرام نفسك..

بدا لي أن الرجل أمضى عقوداً يفكر في تلك العلاقة العاصفة، وفتش قبلي عن سر ما آلت إليه.. راح يتكلم بإسهاب وكأنه انتظر هذا اللقاء زمناً..

بعد أن نشر (صديقنا) روايته الرابعة توقف تماماً عن حضور الحلقة الأدبية ونادراً ما رأيناه.. بتنا له كأصدقاء الطفولة الذين لم يكملا تعليمهم وانتهت بيننا الأحاديث وصرنا مخجلين له، كبدايات المرء الوضيعة..

همستُ في خجلٍ لأنني حركت فيه تلك المشاعر الكئيبة:

– وكيف هي زوجتك؟..

– رحلت بسرطان الثدي.. اللعنة.. لهذا أثرثر اليوم بلا توقف إذ ليس ثمة من أخاطبه هذه الأيام (أخذ يقهقه وقد زالت عنه مرارته للحظة).

– المعذرة.. لم أقصد استعادة الذكريات الأليمة.. لكنني رأيت أنه من الغريب انقطاع العلاقات هكذا بسبب الصعوبات الزوجية.

– نحن لم نتشاجر ولا قاطع واحدنا الآخر.. كل ما في الأمر أن السنين مرت والحياة باعدتنا.. كان الرجل يدخل بالتدريج عالم الأضواء فقلت زياراته بينما دخل بقية أعضاء النادي غياهب الظلام حين تفكك النادي بالتدريج.. ثم حدث أنه أودع زوجته للمرة الأولى في المصح العقلي فانقطعت زياراته تماماً وإلى الأبد إذ بات محرجاً له تلقي أسئلتنا المستفسرة وإلحاحنا الدائم وقد شعر بأصابع الاتهام تلاحقه حيثما حل.. وها أنذا أتكلم عنهما اليوم كغريب بعد أن رحلا عن العالم.. لقد عاش الاثنان تحت الضواء الساطعة حياةً أسطورية أو كبطلين في مسرحية.. عاشا أيامهما بكثافةٍ وسرعةٍ وانحلال حتى نفدت حياتهما نفسها بسرعة كمن يشرب كأس العصير رشفةً واحدة بدل تجوعه.. ينبغي لنا أن نعيش الحياة ببطءٍ وحذر وأن نتذوق الأيام متمهلين كشرابٍ ساخن وإلا نفدت من أيدينا قبل فوات الأوان.

كل تلك الحوارات التي تناولت الماضي صَبغت روحي بالمرارة وبمسحةٍ من الحزن.. تأمل الحيوات المنتهية والعلاقات المنكرة وخيبات الأمل ومفاجآت القدر يبعث في النفس شعوراً بالإحباط إذ يستحيل تصحيح الأخطاء التي ارتكبت في الماضي، ولا تفيد محاولة تخيل ما أمكن أن تؤول إليه الأمور لو تم تلافي الصبيانية والعصبية والخيانات والإسراف.

انتهت الرحلة ودفع كلٌ ثمن أخطائه وها قد بلغ قطار الحياة محطته النهائية.

بذلك الشعور المرير ودعت مضيفي اللبق الحزين على أمل أن ألقاه ثانيةً يوماً ما.. لم يكن المصح العقلي قد ذكر أمامي سابقاً لذا كان علي أن أسرع إلى الصفحات عل ملهمي يشرح لي ما حدث:

((تحاشيت زوجتي زمناً.. سقيتها كأس الصمت المرير، بينما حامت حولي بفضولٍ قاتل وقد لاحظت أنني طرحتُ روايتها جانباً متجنباً الحديث عنها.. شعرتُ بلذةٍ في تعذيبها كما عذبتني هي زمناً.. لقد خَيَّبت أملي.. ثم إنها هاجمتني يوماً عند العصر:

– فيلٌ رديٌ في الغرفة..

– المعذرة؟..

– توقعتُ أن تسرع نحوي بالملاحظات والنقد، أو بالإطراء والمديح.. أي شيء إلا هذا الصمت، فما دهاك؟..

– ما دهاني أنا! (ابتسمت).. لستُ من كتب كتاباً عن أدق تفاصيل حياتنا.. لقد ضربتني الصاعقة من الفصل ألأول إذ أدركتُ ما يدور على الصفحات..

– ذلك هو السر إذاً.. أنت تشعر بالخجل والعار من أمرٍ ما.. لمَ انتظرتَ أن أكتب كتاباً حتى توضح شعورك؟..

– بل بالفشل الذريع.. لقد تبخرت أحلامي تماماً..

– يا للأنانية! زوجتك تسكب قلبها على الصفحات بين يديك وأما أنت فتعجز عن التفكير بأي شيءٍ إلا ذاتك.. ولكن لم لا تتخطى حدود ذاتك مرةً واحدة وتمنح زوجتك رأياً صريحاً أو نقداً بناءً..

– لماذا؟ لأن ليس ثمة شيءٌ يمكن نقده في المخطوط.. لقد أتممتُ الصفحات بالكاد وبألمٍ لا يطاق.. نعم الصفحات إذ لا يمكن تسميته هذا كتاباً.. بل محاولات.. مجرد محاولات محزنة..

هنا صمتت زوجتي وقد تجهم وجهها وأظلم.. ثم إنها سحبت بصعوبة من حلقها الجاف بضع كلمات:

– كلانا يعلم أنك تبالغ.. مهما يكن فالكتاب ليس بهذا السوء..

– بل هو أسو أنك من ذلك.. لم أرد إخبارك لكنكِ حاصرتني.. لا أسلوب ثابت ولا تشويق.. الشخصيات مائعةٌ متغيرة بلا صفات، تتكلم جميعاً بذات اللهجة، والحبكة شديدة الضعف، وليس ثمة بناء.. مكان هذا الكتاب بالتحديد سلة القمامة ولا شيء آخر..

هنا اتسعت عيناها وغفرت فاها في تعبيرٍ كريه.. لمحتُ فيهما للمرة الأولى أوار تلك النار التي ستشتعل ببطءٍ حتى تأتي على حياتها بالكامل:

– أنت تهذي.. مجرد حاسدٍ مريض، وتبذل جهدك لتدميري.. مكانك أنت في القمامة.. النجم الصاعد يخشى أن تطغى عليه موهبة زوجته..

هنا رحت أقهقه في استغراب، لكنها أكملت:

– شهرتك المفاجئة أنت على عقلك، فبتّ مستعداً للقتل دفاعاً عنها.. ولكن خسئت.. سأضع مخطوطي بين يدي من يستحق.. سأجد ناقداً حقيقياً صادقاً يصحح لي هفواتي الصغيرة دون أن يحاول هدمي بالمعاول..

قالت ذلك وحاولت سحب المخطوط من درج المكتب، لكنني اضطررت لإيقافها عنوةً.. أمسكتُ ذراعها في عنفٍ وأنا أصيح:

– ليس في هذه الصفحات ما يستحق المخاطرة أو النقد فتوقفي عن تدمير حياتنا بالفضائح..

راح كلانا يشد الصفحات، ثم إن قوتي وغضبي غلبتاها فسحبتُ منها الكتاب عنوةً حتى طارت صفحاته وتناثرت في الفضاء وعلى الأرض، ثم تطايرت بعض الوريقات مع الهواء عبر باب الحديقة المفتوح.. ثم إنها راحت تصيح وتزأر كالحيوان المفترس وتلطم وجهي وتصدر لعناتٍ مبتورة وكلماتٍ غير مفهومة..

وحتى نكف عن لطمي اضطررت لصفعها بقوة كي أوقف نوبتها الهستيرية، ثم إنها خرجت من الغرفة وصعدت إلى المخدع باكيةً زاعقةً زعيقاً غير مفهوم، كأن مساً من الجن قد تملك روحها.

كانت تلك لحظاتٍ مريعةً شعرت فيها أنني اصارع شيطاناً أو كائناً متوحشاً..

انتظرتُ طويلاً في غرفة المعيشة عودتها ململماً الصفحات المتبقية دون ترتيب، وقد أزعجني أنها أرغمتني على المنازلة فأخرجتني عن طوري.. لم يكن ذلك النزاع ضمن الخطة، وإنما شئتُ أن أنقل لها بهدوءٍ رأيي وحسب..

انتظرت طيلة الليل خروجها، ثم حل النهار بعد أن نمتُ على الأريكة.. كان نهاراً كئيباً رمادياً.. في حجرتها رأيتها بعد الظهر مازالت في الفراش وقد غطت رأسها بالأغطية..

حاولتُ نزع الأغطية عنها لكنها مانعت بعنادها المعهود.. غرزت أصابعها في الغطاء ودون كلمةٍ واحدة حتى بات من المستحيل تعريتها.. وهكذا

أمضيتُ ليلة أخرى وحدي.. بل مع الأوهام والندم والشكوك وذكرياتُ ما حدث ما تفتأ تزور بعنادٍ مخيلتي..

ما أسوأ تلك الأوقات! كيف يمكن إيقاف الأفكار السوداء والهواجس المرعبة عن تعذيبنا؟

عصر اليوم الثالث نزعتُ عنها عنوةً الغطاء فأيقنتً فجأةً وفي حالةٍ من اليقظة المفاجئة أو الاكتشاف المرعب أنني فقدت زوجتي ربما للأبد.

كانت مستلقيةً على ظهرها وعنقها مشدودٌ إلى الوراء وعيناها ناظرتان للسماء، وعلى فمها تكشيرة ألم غريبة.. امتد زراعاها المفرودان حتى لامسا فخديها، ولكن تقلصت اليدان متشنجتين كحيوانٍ بري غرس في ضحيته مخالبه..

لن أنسى ما حييت ذلك التعبير المرعب الأليم.. لم تكن المستلقية زوجتي، ولكن جسدها وحسب..

لم تنفع صيحاتي وصفعاتي في انتزاع نظرةٍ أو كلمةٍ واحدةٍ منها.. كنت في حالٍ يرثى لها من الحيرة والرعب محاولاً فهم ما حدث.. من هي هذه المستلقية المتشنجة المصعوقة في فراشي متخذةً وضعيةً تشبه صمت الموت؟

لا أذكر عدد المرات التي ناديت فيها اسمها، ولا عدد المرات التي طلبتُ منها أن تنظر إلي أو تغفر لي.. لقد تصلبت حبيبتي في وضعيةٍ واحدة فأضحت تمثالاً حجرياً..

أمضيتُ ليلةً مرعبةً جيئةً وذهاباً لم أعرف بها من أكلم، إذ عاش بضعةٌ من أبناء خالتها في الخليج.. في الصباح تذكرت أنها لم تشرب قطرةً من الماء ولا أكلت منذ أربعة ايام، وحتى سكبتُ الماء في حلقها كان يفضي بها إلى نوعٍ

من الحشرجة كسكرات الموت إذ توقفت تماماً عن البلع.. هنا اتخذتُ قراري المؤلم بزيارة المشفى رغماً وهكذا بدأت رحلة عذابي.

حين تحركت أمام عيني الحمالة الموضوعة عليها زوجتي رأيت كذلك الشريط القادم من الأيام بومضةٍ كالبرق.. لقد أدركتُ بشكلٍ غامض أنني افقد زوجتي إلى الأبد إذ شعرتُ أن نفسها قد انشقت عن جسدها الحي وانفصمت عنها إلى الأبد)).

* * *

- 14 -

أيقنتُ بعد هذا الفصل أن الكارثة في حياة ملهمي قد حلت أخيراً.. فهمتُ أخيراً لم يقص علينا الرجل هذه الدقائق والتفاصيل المرعبة ويمكن تخيل حجم المعاناة والذعر الذي عاشه في صراعه مع المخلوقة المتمردة المجنونة.. هو إذاً يشرح للتاريخ جانبه من الحكاية المؤلمة أو يبرر ما حدث ليزيل سوء الفهم في المستقبل.. أم أنه يعتذر؟ ولكن لمن إذ لم يبق أحد.. للزمن ربما أو لضميره المعذب..

لقد مر الرجل بأيامٍ سوداء أشد صعوبةً من أيامي الحالية.. أنا الغارق في الفشل والعجز والإحباط والحرمان من الحب..

تلقيت اليوم صباحاً في ظرفٍ مفتوح بطاقة دعوة أرسلها مجهول لحفل زفاف خطيبتي نهال!

بهذه السرعة؟!.. لم تمض شهور على انفصالنا العاصف.. فإذاً لا عودة للوراء بعد أن ضيعت كل فرصي في السعادة!

رحت أفكر في أسى بعيني نهال الحزينتين الواسعتين وشعورها المزمن بالحرمان والقلق، وأتساءل إن كانت تقدم على الخطوة كطفلٍ واعٍ أو على سبيل ردة الفعل والانتقام..

ترى من أرسل البطاقة ولماذا؟.. كانت الدعوة مجرد بطاقةٍ دون اسم المرسل وليس عليها اسمي بالذات.. هل ترى أرسلتها لي نهال لتتشفى أم أنها

صديقتها الخبيثة تنتقم للنساء جميعاً من الرجال؟ أم أنها مجرد إعلامٍ لي بنهاية القصة؟ الصفحة الأخيرة من رواية حبي الفاشلة؟..

تلك الليلة تناولت حبتي منوم كي أمضي ليلتي في سلام..

ولكن كيف ينبغي التصرف؟ هل أهمل الدعوة تماماً متظاهراً بأنها لم تصلني؟ أم أرفض بعنف؟ كان الفضول يقتلني لأراها مرةً أخيرة، وأرى حجم التنازل الذي أقدمت عليه في سبيل الزواج.. ينبغي أن تعلم أنني بخير..

تزورني تلك الأفكار الحائرة وتتوها نوبةٌ من البكاء الهستيري المرير..

ولتزداد مرارتي جلستُ ثانيةً أمام السيد مروان كالتلميذ الفاشل.. كم أمقت ذلك الرجل!

طلا وجهه ثانيةً بذلك القناع الكريه من الصرامة والجدية الذي يخرجه من حيث لا أدري، وراح يتكلم ملوناً صوته لسببٍ لا أدريه:

– لستُ أفهم طبيعة الصفقة التي عقدتها مع صباح أيها الشاب.. هي لسببٍ مجهول تدفعني لقبول روايتك، وأنا لم ارها في حياتي بهذا الحماس لروايةٍ لم تقرأها أصلاً.. أهو ابتزازٌ أم رشوة أم تبادلٌ للمنفعة؟.. ويف لاواقع فأنا أجهل تماماً من أنت بالنسبة لها..

– لنتحدث لو سمحت عن (لون الفصول)، أرجو أنك قرأتها وأنها أثارت إعجابك..

– الرواية مقبولة، ذلك كل ما في المر (ثم عاد إلى موضوع شكوكه).. إن تلقيت هاتفاً آخر من صباح بشأن الموضوع لتيقنت أن ثمة علاقة عاطفيةً بينكما (ثم ابتسم)، ثم أصغي لصوت العقل متذكراً أنها لن تعجب بشابٍ نحيلٍ

فقير على شاكلتك.. صباح عادةً تنجذب للرجال المتزوجين (قال الجملة الأخيرة وراح يقهقه بجلافةٍ ودون حياء).

رفعت الحاجبين مستاءً متسائلاً عن قصده (على شاكلتك).. من يا ترى يظن الكهل المشعر نفسه؟ تمكنت بالكاد من كبت عدوانيتي وكساني، وأجبت باقتضابٍ أخيراً:

– وروايتي؟

– ظننتُ أننا تفاهمنا.. أنا أعتذر لك ولها، فالرواية مقبولةٌ وحسب ودارنا لا تقبل إلا الأعمال المتميزة..

– تقصد أعمال المشاهير..

– ليس بالضرورة.. روايتك مغمسةٌ بالكآبة.. نبرة مراهقٍ محرومٍ جنسياً يتظاهر بالرومانسية.. يلزمك المزيد من الخبرات، وربما عقدٌ كاملٌ من التجارب الحياتية..

بلغ اشمئزازي من الرجل حداً جعلني أنتفض من مقعدي قائلاً:

– لا عليك.. أشكر وقتك..

أثناء مغادرتي سمعته ما يزال يردد معتذراً:

– البزنس هو البزنس.. ولا مجال فيه للمجاملة..

الوغد المنافق.. لكنك ستنشر في النهاية كلماتي ذاتها تحت اسم كاتب شهير.. وسيكون عليك أن تعتذر طويلاً للأفعى الرقطاء!!

وهكذا اتصلت بالسيدة صباح وأخبرتها باختصار بما دار بيننا.. كنتُ حاقداً ناقماً.. على الحياة وعليها وعلى نفسي..

ثم إن ردها فاجأني.. أتى صوتها هادئاً حذراً هبر الأثير:

– المعذرة.. لقد حاولتُ بأقصى جهدي.. مروان يغدو عنيداً كالبغل حين يشعر بمحاولات الضغط.. أو الغيرة!.. وإذاً فقد أخللتُ بجانبي من الاتفاق.. رغماً عني.. أرجو المعذرة لتضييع وقتك..

– ما معنى ذلك؟..

– المعنى واضح.. أنا لا أتوقع أن تفي بوعدك إذ أخلفتُ أنا وعدي.. الآن ماذا أنت فاعل؟..

داهمني سؤالها.. مع هذه المرأة القوية الخبيرة لا يمكن المراوغة.. مرت بيننا ثواني طويلة من الصمت ختمتها بأن قلت:

– لا أعلم حتى الساعة ما أنا فاعل.. حياتي كلها تنهار الآن أمام عيني.. ينبغي التفكير..

(كنتُ صادقاً، إذ لا حب ولا أصدقاء ولا نجاح مهني)

– حسناً، فكر بسرعة.. وإن أردت يمكن أن تعيد لي المخطوط على عجل، إذ لا أملك عن الأصل سوى نسخة رديئة، ولا أرى اليوم مبرراً لبقائه معك..

لقد عقدت صباح لساني.. كانت اليوم حادةً وصريحة.. فهي إذاً تنهي الاتفاق وتطالب بالمخطوط.. إلا إذا اعتذرت مبدياً الندم وأنهيت العمل عليه بأسرع ما يمكن!

((كانت حبتان أخريان من المنوم في انتظاري.. يومٌ آخر من الأيام التي رغب بشدةٍ في حذفها من حياتي.. وما أكثرها..

استقر الدكتور بدر خلف مكتبه أمامي، وراح يخربش على عجل على ملفٍ خاصٍ بالمريضة ما أمليه عليه..

حمل هذا الطبيب النفسي جميع الصفات التي تخيلتها وسمعتها طيلة حياتي عن كل نفساني، قرأت عنه أو شاهدته على الشاشات من غرابة الأطوار والشكل، فقد كان عريض الجبهة شبه اصلع بشاربٍ أحمرٍ كثيف.. وهو يوحي رغم ابتسامته الملصقة بدقةٍ على وجهه بشرود الذهن واللامبالاة المطلقة.

رحت أملي عليه تاريخ (المريضة) كمن يسجل عقد بيع أو شهادة زواجٍ في دائرةٍ حكومية.. أخذ يكتب دون أن ينظر في وجهي أو يعلق على أي من أقوالي، ثم يقاطعني بسؤالٍ آخر كلما حاولت أن أسترسل:

– هل تتناول زوجتك أي أدويةٍ نفسية؟..

– كلا، كما أخبرتك: هذه الحالة وليدة الساعة ولم يسبق لها أن..

– وهل ثمة إدمانٌ ما؟.. ولو كان على دواءٍ بعينه؟

– كلا طبعاً.. كل ما في الأمر أنا تشاجرنا بعنفٍ هذه المرة، وربما كنتُ جارحاً بعض الشيء..

– حل حاولت المدام الانتحار أو هددت به؟

– كلا بل العكس.. زوجتي في حالةٍ مستمرة من النشوة الدائمة والضحكات. العالية.. وأحياناً دون سبب واضح..

– إنه الهوس إذاً.. وهل ثمة في عائلتها تاريخٌ للمرض النفسي؟

لويتُ شفتي وأنا أقول محرجاً:

– لقد علمت من الصدقاء وليس منها.. أن أمها بالذات تناولت كميةً هائلةً من الحبوب المهدئة منهيةً حياتها بيديها.

– آها.. ذلك أمرٌ في غاية الأهمية (ثم أضاف في نزف مؤنباً) كيف لم تذكر قبلاً تلك المعلومة؟..

– لأن تلك الحادثة وقعت قبل زمنٍ طويلٍ جداً حتى أن زوجتي نشأت تقريباً في رعاية أبيها وحده وليس والدتها..

ابتسم وراح يردد ملوناً صوته:

– للمورثات يا عزيزي أهميةٌ عظمى تعادل أهمية التربية..

ثم عاد يشرح بصوته الموسيقي المتصنع المجامل كما يغني أغنيةً للأطفال فأشعرني بأنني المريض النفسي وليس هي..

– سيكون على زوجتك بعد أن تستقر طبياً وتغادر المشفى أن تقيم في مصحٍ نفسي للإقامة المديدة.. هي الآن مصابةٌ بالجمودية، وهي حالةٌ من الفصان التخشبي كرد فعلٍ على صدمةٍ معينةٍ، ولا نعلم متى تزول عنها.. هذا إن زالت..

كان لساني جافاً فبللت شفتي باللعاب وأنا أقول بصوتٍ خشن:

– لست أفهم حقيقة ما حدث.. كل ما في الأمر أننا تشاجرنا.. شجارٌ عادي كما في أي منزل..

– لكن المدام ذاتها يا عزيزي ليست عادية..

كان الآن ينظر في وجهي من تحت النظارة بقسوة ويبتسم ابتسامةً منتصرةً سادية أخافتني.. لقد ألقى الرجل اليوم القبض على حياتي.. لم أفهم

يومها أنني قد وقعت في شباكه على مدى أعوام، لكنني تخيلت لحظتها في غموض طبيعة حياتي القادمة من الآن فصاعداً..

بعد أسابيعٍ من الحقن العضلية والتغذية الوريدية (إذ رفضت زوجتي تناول الطعام أو الأدوية) أخذ تخشبها في التحسن تدريجياً إذ راحت للمرة الأولى تدير عينيها في المكان، وأرخت ذراعيها جانباً.. لكنها رفضت بعنادٍ الكلام.

في النهاية (تخرجت) إلى مصح التل للعلاج النفسي إذ لم تعد حياتها في خطر.. وما فتئتُ أتساءل كم ستطول إقامتها في ذلك المبنى الكئيب ذي الطباقين والنوافذ الخضراء المغلقة على الدوام.. لم أعلم يومها أنها ستقيم في ذلك المكان طيلة عامٍ ونيف!

كان لسان حال الجميع أينما حللت نظرات التأنيب أو الفضول (ماذا فعلت زوجتك أيها التعس؟)

وقد تابعتُ حياتي البائسة (في بيتها بالذات) إذ كان على الحياة أن تستمر، لكن الهواجس والكوابيس ما فتئت تطاردني..

وأما جارنا لمعي ابن السيد طاهر وهو شابٌ أصلع تخيل فقد انتهز فرصة غيابها وحمل زجاجة الويسكي كل ليلة ليكمل سهرته معي. وشاركته الشراب من فرط تعاستي ووحدتي.. كان استغراقي في الكتابة يجعلني أكثر وحدةً إذ أصحو فجأة من عالم الصفحات الصاخب لأجد نفسي غارقاً في الظلام والسكون محاطاً بالهواجس والأشباح.

ويبدأ لمعي في القهقهة كلما ثمل محمر الوجه قائلاً:

– وأين هي جارتنا بالضبط؟ أنا أشك في روايتك العجيبة إذ ربما قتلتها ودفنتها في حديقة منزلكم الكبيرة..

أو يقترح في خبث قائلاً:

– إن أردت دعوتُ إلى منزلك بعض الصديقات الوحيدات يشاركننا السهر.. عليك انتهاز فرصة حريتك الطارئة التي لا يمكن أن تدوم..

لا يمكن عادةً الرد علة تخشب المشاعر والتعليقات السمجة والأسئلة الصادمة إلا بتكشيرةٍ هي بين الضحك والعبوس..

وأنظر إلى الأفق في قلق محاولاً استقراء المستقبل وقد ايقنت أن حياتي كما عرفتها قد تغيرت إلى الأبد)).

* * *

- 15 -

للأسف لا يمكننا رؤية الحب أو لمسه.. حتى أنني أنكرت في الماضي وجوده كالملحد العنيد.. لا يخرج من أعماقنا هاتفٌ في اللحظة المناسبة صائحاً بنا (هوذا) ليدلنا عليه. ثم لا ندرك وجوده الكثيف وحقيقته إلا لحظة الفراق.. لحظة فقده النهائي.. نراه في ومضةٍ عابرة كشبحٍ يسبح بعيداً عنا.. يغمرنا لحظة فقده ذلك الشعور المفاجئ بالذعر المماثل للحظة وقوع خامٍ ثمينٍ منا في البحر إذ نقف على ظهر السفينة.

كذلك ضربني ذلك الشعور المرعب كصاعقة لحظة وقوفي المتخفي في حفل زفاف نهال الشعبي شبه المفتوح..

كان علي أن أتسلل لألقي على وجهها نظرةً أخيرةً قبل أن تختفي إلى الأبد من حياتي والحي.. كما نلقي على أجساد أحبابنا نظرة الوداع الكريهة ولكن الضرورية.

وقفتُ في الصفوف الخلفية (وتقريباً في الشارع) كأني جبانٍ متخاذل في ثيابٍ داكنة.. كان الشعور بالألم لا يطاق.. حتى تنفسي آنذاك يؤلم.. وجودي ذاته مؤلم.. وسيصبح هذا الألم مزمناً حتى يغدو جزءاً مني وكأسلوب حياة.

وقفت نهال ناظرةً إلى الأفق بعينها الهائلتين دون ابتسامةٍ واحدة كتمثالٍ فرعوني، وإلى جانبها شابٌ أسمرٌ نحيلٌ سوقي.. ستغدو حبيبتي ولا شك زوجةً تعيسة.. راحت تحدق في جحيمها المحترق والذي دفعتها إليه دفعاً.. كذلك لن اسمح لها اليوم برؤيتي، ولو أمكنني ارتداء قناعٍ ساعتها لفعلت..

ثم إن قبضة مفاجئةً هبطت على كتفي:

– لم أكن متأكداً من حضورك.. لقد فاجأتني استجابتك..

وقف توفيق إلى جانبي مبتسماً وقد زاد بصورةٍ مفاجئة..

– أنت الذي أرسل البطاقة إذاً! كيف لم أفكر فيك وقد عرفت ألاعيبك التي لا تنتهي..

– من حقك الحضور.. أنت فعلاً أولى مني بالبطاقة..

– كان علي أن آتي لأصدق أن كل شيءٍ انتهى بالفعل..

– وربما لترى ما الذي أردته بالضبط في الماضي ولمَ لم تحارب من أجله..

أجبتُ بنبرة تحدي:

– لستُ نادماً.. لم يتغير اليوم شيء.. أنا وهي ما زلنا كما نحن وكذلك الظروف، ولكن يبدو أأنا أدمنّا على الألم..

نظرت إلى صديقي السابق في حقد.. كرهته بشدة في تلك اللحظة لاستدراجي إلى هنا حتى شعرت أن بإمكاني لطمه لكنني كنت وقتها أضعف من ذلك وألمي يشل ذراعي ومشاعري..

وإذاً ينبغي الحركة والانشغال الدائم لعل هذا الألم المفاجئ الثقيل أن يتزحزح.. في المقهى ذاته وعلى ذات الكرسي جلس الناقد (الحسيني) زائغ البصر وقد كاد يتحول إلى تمثال..

قلت دون مقدمات:

– لو أعلم أني بالضبط أَوْدَعَها وكم من الزمن أمضت في المصح العقلي..

– بقية حياتها!! ثمة أمراضٌ لا تشفى قط.. لقد دخلت وخرجت منه وإليه عدداً لا يحصى من المرات، كذلك سمعنا.. ولكن ما أهمية هذه التساؤلات الآن؟..

– وأين يقع المصح؟..

– في مدينة التل! ليس ثمة كثيرٌ من المصحات العقلية الخاصة في بلدنا..

فوجئت بالإجابة، إذ ذكر الروائي اسم ومكان المصح بدقة ولكنني لم أنتبه (ربما لأن النسخة غير منقحة أو نهائية).. استطرد العجوز:

– لا تفكر بالذهاب هناك.. لقد أُغلق المشفى منذ أعوام بسبب الحرب.. ككل شيءٍ آخر في تلك المدينة..

– بل ينبغي أن أذهب.. يجب أن أرى المكان..

– أنت مهووسٌ حقاً! على أية حال هي ما عادت هناك ولا في أي مكانٍ آخر، فلترتاح إذاً نفسك.. لقد انتشرت وقتها أبناء ترمل الراحل العظيم بصوتٍ لا تترك مجالاً للشك..

توقفتُ عن الإجابة ورحت أتساءل فيما إذا كانت زيارة المكان اليوم ممكنة حقاً..

((في المصح الكئيب كانت الجدران الرمادية عاريةً تماماً وكذلك الحجرات الجرداء، ما خلا فراشٍ دون مفارش أو نوافذ مقفلة بلا ستائر.. إذ لا

يمكن ترك أي غرضٍ يمكن استخدامه في الانتحار بين أيدي النزلاء، والنتيجة مربعةٌ حقاً..

خواءٌ كامل وعواءٌ يعكسان –كمال لو بمرآة– خواء أعماق النزلاء.. لا يمكن رؤية شيءٍ البتة في المحيط سوى الجدران الكالحة وبحرٍ متلاطمٍ رمادي من البؤس والحرمان..

وسط تلك الصحراء جلست زوجتي محنية الظهر مثبتةً نظرتها على الأرض وقد فقدت ثلث وزنها.

ويضربني رعبٌ ساحقٌ مازال يتردد داخل أعماقي كموجات البحر المتلاحقة ترتطم بالصخور.. أهذا ما تبقى من حياتنا معاً؟ هذه الحجرات الحاوية والممرات المظلمة الفارغة؟

حتى التلفاز معلقٌ على الحائط بعيداً عن متناول الأيدي وبدون جهاز تحكم، وحوله جلست مجموعةٌ من الأجساد الفارغة من الروح، لم ينظر أحدها إلى الشاشة ولو للحظةٍ عابرة.

كيف استحالت حديقة حياتي المزهرة إلى هذه الصحراء القاحلة كما لو بلعنةٍ أو على إثر تعويذة؟

حين وقعت عيني على الدكتور بدر ذاته للمرة الأولى في المصح فوجئتُ بأنه يدير كذلك المكان.. حين رآني ابتسم ابتسامةً ساخرة كمن يحتفل باستدراجي إلى فخٍ نصبه بعناية.

وأجلس إلى جانب الشاردة الواجمة ساعات طويلة دون أن تدور بيننا كلمةٌ واحدة.. أنسى الكلام تماماً إذ يغدو صمتها معدياً كالمرض ينتقل إلي..

أتساءل إن كانت في شرودها قد لاحظت حتى وجودي.. وأسأل نفسي عن الموعد العزيز الذي ستوجه فيه إليّ كلمتها الأولى.. ولكنني حتى اللحظة لم أحظى منها حتى بنظرةٍ عابرة..

أجلس الآن إلى جانب جسد زوجتي الخاوي من الروح فكأنني في زيارةٍ للمقابر.. وهنا يتأجج هلعي.. من هي هذه الجالسة إلى جانبي؟ وهل ما يزال عندي حقاً زوجة؟..

في خضم تساؤلاتي ومخاوفي يغدو سهلاً فهم كيف يغدو المرء مدمناً على شيءٍ ما.. حتى يكون الواقع مخيفاً جداً لدرجةٍ ينبغي معها الهروب منه بأي ثمن..

لم تعد زيارات جارنا الآن ضرورةً كي أجد في الزجاجة سلواي الوحيدة.. ينبغي للمرء التسوية عن النفس بأي ثمن..

وفي خضم الآلام والجحيم لا تتسامح معنا الحياة، بل على العكس تزيد من ضراوة مطالبها.. لقد بات علي اليوم أكثر أي يومٍ آخر إنتاج كمٍ ثابت من القصص الرديئة والمقالات العقيمة لدعم المطالب المادية وكي استمر لكاتبٍ وإنسان..

– متى تعود زوجتي إلى المنزل؟.

السؤال الأبدي الملح ما أفتأ أوجهه للدكتور بدر والذي ظنّ علي بالوقت والإجابات.. ينبغي علي أن أستعيد حياتي بأي ثمن.. أفكر بإصرار..

لكنه يراوغ ويناور ويعاملني كالزبون المزعج إلى أن فهمت أن زوجتي ليست في فترة نقاهةٍ عابرة، وإنما هي تقيم اليوم بشكلٍ دائم في مدينةٍ أخرى ومنزلٍ آخر وأن هذا الوضع المؤلم هو ربما وضعنا النهائي..

وحين ألح بالسؤال يأتيني الجواب من الممرضة:

– لقد منع الدكتور ماجد اليوم الزيارات عن المريضة.. وذلك لمصلحتها طبعاً.. أرجو أن تتفهم الأمر..

أتساءل مقهوراً إن كانت دوافعه ماديةٌ حصراً، ثم أخشى أنه يبعدني أنا بالذات عنها كمن يتهمني بالإساءة لحالتها وتحسنها.. ربما رغماً عني..

بات هذا الرجل الفولاذي ذو القناع يتحكم بمفاصل حياتي، ويقصيني عن زوجتي أسابيع متى شاء!.. وحين يزيد مطالبه المادية أنكب على العمل مرغماً إلى أن ألبيها..

في نهاية ذلك الجحيم الذي استمر ثمانية عشر شهراً عادت زوجتي إلى البيت.. بجسدها فقط لأنني بالكاد تعرفتُ عليها.. كانت روحها ما تزال ترفرف في أرجاء المنزل الذي نشأت فيها، ولا يربطها اليوم بالماضي سوى صورها القديمة الجميلة والتي بعثت في نفسي رغبةً في البكاء..

خسرت زوجتي حتى الصفات الشكلية التي مزيتها سابقاً.. اختفت الوجنتان الممتلئتان الوضاءتان تماماً، وكذلك النظرة الواثقة الماكرة والبسمة الصبيانية العابثة، ونحل جسدها واخشوشن شعرها، وأما بشرتها فقد غدت بسبب لا أدريه داكنةٌ كامدة.. كانت الآن تتكلم نادراً.. عند الحاجة وفقط حين تُسأل.. تجلس في الزاوية طويلاً دون حركة ولا تنظر إليّ وقد كسا وجهها تعبيرٌ عابسٌ مهموم وانطبع صوتها الغريب الجديد بعدوانيةٍ مزاجية.

لقد اختفى من أعماقها جوهرها، وسُلبت بطريقةٍ وحشيةٍ من روحها.. تدهورت كل تفاصيل شخصيتها التي عرفت حتى كدت أرى في صدرها ثقباً أسود عملاقاً يسحبها عني.

ألاحظ ذلك كله وبالكاد أحبس دموعي والمرارة في حلقي، ثم أنفجر خلف الأبواب المغلقة بنشيجٍ مكتوم:

– من هذه المرأة يا إلهي؟ أرجوكم أعيدوا إلي رفيقة عمري)).

* * *

- 16 -

(الوقت هو الكفيل بشفاء جراح الحب..)

كذلك يطمئن الشعراء والكتاب كل عاشقٍ جريح، لكن أحداً لا يذكر بالتحديد كم هو الوقت الكافي للشفاء بالضبط.. ماذا لو كان الوقت المطلوب أطول من حياتنا ذاتها؟..

لقد سافرت نهال واختفت من حياتي إلى الأبد..

استيقظ كل صباح على جانب السرير لألاحظ للمرة المئة الحفرة الفارغة على الجانب الآخر من السرير ومن حياتي، والتي لن تملأها إلى الأبد حبيبتي بل سيبقى ذلك المكان خاوياً.. ثم اشعر كذلك بالحفرة العميقة المماثلة داخل صدري تتمدد لتلتهم بالتدريج حياتي وأعماقي وكياني..

ترى هل يملأ ذلك لفراغ يوماً شخصٌ آخر؟ كيف والبشر مختلفون دائماً؟..

(غداً تنسى وتمتلئ حياتك بفرحةٍ ثانية).

خرافةٌ أخرى! أدرك اليوم خطأ هذه العبارة الشائعة.. في أعماقي يقينٌ بأنني سأشعر بالسعادة ربما يوماً ما، وأما النسيان فمستحيل.. سأتحايل حتماً على ألم الفقد، تماماً كمن يؤلمه سنه فيستعمل الجانب الآخر من أسنانه للمضغ.. سيقبع دوماً ذلك الألم في مكانٍ خفي إذ يمكن الانشغال عنه أحياناً بمسكناتٍ متنوعة.

وأما حبيبتي الثانية البائسة والتي أمضت حياتها القصيرة في المصحات العقلية فينبغي الاقتراب منها وفهم مأساتها ما أمكن.

كنت قد أدركت استحالة الوصول إلى مشفى التل المغلق، فجميع الطرق إليه كانت موصدة.. وإذاً فقد أسقط في يدي..

حتى إنني لا أعرف اسم الطبيب الذي أشرف يوماً على علاجها، إذ لم تذكره الرواية إلا بالاسم الأول.. فهل وصلتُ إذاً إلى نهاية الطريق.. لاسيما أنني أشارف على الانتهاء من قراءة مخطوط السعدي الناقص؟..

حاولتُ عبثاً كتابة شيءٍ ما لإرضاء السيدة صباح وحتى لا تصادر مني المخطوط.. بضع صفحاتٍ هي حمل ما يلزم الآن..

لكن من المستحيل افتراض ما حدث وأنا أجهله تماماً، والفضول يقتلني لمعرفة نهاية القصة.. كيف أنهيها نهايةً سعيدةً وهي لم تنتهي كذلك؟.. هل أختمها إذاً بمأساة في حين أنني أجهل تفاصيل تلك المأساة؟.. أحياناً لا تنفع كل فناجين القهوة والسجائر ومقاهي الأدباء لملء صفحةٍ واحدة..

يرتد ذهني آلياً إلى اسم الدكتور بدر الدين والذي قد يكون اسماً وهمياً، ولكن حيث أن النسخة غير منقحة أو نهائية فمن المحتمل أن يكون واقعياً.

ماذا لو بحثت في قوائم وزارة الصحة عن طبيب نفسي اسمه الأول بدر.. انتبه لسخافة الفكرة وصعوبتها وأذكر أن الراوي ذكر اسماً لطبيب آخر يدعى ماجد قد يكون المساعد، أو أنه أخطأ في اسم الطبيب بالمسودة وغيّره دون أن ينتبه..

ثم تجول عيني واصابعي فوق قائمة دليل الأطباء شاعراً باليأس العميق والهزيمة تجتاحني..

ثم وفي ومضةٍ تنفتح عيني عن آخرهما:

– هوذا.. نعم.. ذلك هو الاسم..

راحت إصبعي تشير إلى الطبيب (ماجد بدر الدين).

في الوقاع كان الروائي يناوب ذكر الاسم الأول مع الكنية دون أن ينتبه أو يوضح..

انتفضت وأنا أضحك وسط دهشة زوار المقهى.. إن يحلّ زيارة هذا الرجل الذي ولا شك يعرف الكثير عن الراحلة البائسة.. غداً أفعل إذ تأخر الوقت الآن.. أن الساعة كالغريق تعثر يده وسط الماء بخشبة أرسلت من حيث لا يدري..

في البيت تناولت المخطوط بحنان.. لم يكن قد تبقى منه سوى فصلان طويلان وبعدهما ألقي نفسي غارقاً في ظلام دامس.. عشرون صفحةً سأقرأها ببطءٍ وتلذذ حتى لا تنتهي تلك اللحظات.. سأتمنى في حل كلمة علي أعثر على رسائل من العالم الآخر..

((هل تعرفون وجه اليأس؟ إن كان للبؤس صورةً يتبدى بها لكانت الصورة وجه زوجتي..

النظرة المطرقة إلى زاوية الحجرة ودائماً بعيداً عني.. العينان المحمرتان كأنما بكتا دهراً.. والحزن العميق الأسطوري غير المفهوم.

اليوم وقد عادت زوجتي وبات لي عائلة وما عاد شبح ذلك الطبيب المهرج يظلل عالمي غدا منطقياً أن أستعيد حياتي.. ولكن الواقع كان شيئاً مختلفاً تماماً..

لقد جافت منزلنا الحياةُ الزوجية إذ خلا تماماً من الكلام والمحادثات البشرية، إلا من بضع عباراتٍ خاطفة ليس فيها ود.. تنظر أحياناً ناحيتي فجأةً وتقول بصوتٍ مرير:

– أنا ما زلت أعمل على تنقيح مخطوطي.. لا تعتقد أنك انتهيت مني بتلك البساطة.. كل شيءٍ مازال هنا (مشيرةً إلى صدغها).. ينبغي الآن إضافة فصولٍ أخرى تصف ما حدث لي مؤخراً..

– ذلك المخطوط اللعين الذي أودى بكِ إلى المصح..

– بل تلك الصفحات هي حياتي.. وحتى لو عدت ثانيةً إلى (ذلك المكان) أخذتها معي لاستكمالها هناك..

كانت الآن تدعو المصح العقلي (ذلك المكان)، وتنكب على الكتابة بمثابرة نملة، مخفيةً المخطوط عني بحرص.. وحتى إذ تغفو تعانق الصفحات أو تدسها تحت وسادتها..

لا أفهم سبب هذا الهوس الجديد بتدوين الوقائع والأحداث، وكذلك الهوس الآخر بمعاداتي! لا أعلم متى غدوت لها العدو الأكبر.. الآن حياتنا قد فرغت تماماً من الأصدقاء واللقاءات ولم يعد ثمة سواي؟ كانت تلك العدونية المبطنة والمرارة الحاقدة تضغط على أعصابي بشكلٍ متواصل، بل وحتى يخيفني..

أفهم فجأةً لمَ لم تحبني زوجتي مرةً ولو لوهلة.. ولا حتى في أحلامها أو خيالاتها.. هاجس الشك المخيف في رأسها يسكنها لكنني لم أبصره سابقاً.. الحب وخلافاً للمتعارف عليه مفهومٌ ينبغي تعلمه، وزوجتي لم تأخذ يوماً دروساً في الحب..

في هذا المنزل المخيف الفارغ نشأت مع والدها البارد المتعجرف وأمها في حجرةٍ منعزلة تتناول المهدئات وتخطط للانتحار.. وهكذا لم تتعلم حبيبتي الحب من أحد.. حتى أن المشاعر والعواطف الموجهة لها كانت تضايقها وتحرجها.. الآن أفهم.. الآن فقط!..

كيف يمكن أن تقع في غرام شخصٍ لا يفهم الحب أو يعرفه؟ كيف يمكن أن أستعيد الساعة كل الليالي اليت سهرتها شوقاً إليها؟ كيف يمكن أن أمحو من ذاكرتي مشاعري الجارفة التي صبت يوماً في المكان الخاطئ؟ هل يمكن تعويض الأعوام الضائعة؟.. من يعيد إلى حيتي؟ ومن يصحح فيها ذلك الخطأ الكارثي ويمسح أفكاري الضالة وزفراتي التائهة؟..

كانت زوجتي الآن تتجنبني كوحش وكأنني المسؤول عما حدث لها، وبالمقابل تجنبت بدوري ذلك العذاب هارباً منه إلى الزجاجة..

باتت الخمرة اليوم سلواي الوحيدة، أهرب من خلالها من الشعور المؤلم بالوحدة والخوف من المجهول..

عامين أو ثلاثة من البؤس المتواصل جعلتني مدمناً.. وبين الكأس والكأس أتابع كتاباتي وإنجاز كتبي الرديئة التي لقيت بمعجزةٍ من القدر رواجاً.. الشيطان الذي تعلم الكذب والتحايل والفتق من الواقع طائراً بأجنحة الخيال..

ولكن تملكني ذلك الشعور العميق بازدراء نفسي، والخجل من رداءة وضعي أدبي وإدماني.. ذلك الشعور الذي تسلل إلي ربما من نظرة الناس وكلامهم وضحكاتهم في عالمنا الخاوي من الأسرار.

راح البعض يتهامسون خلفي أو يضحكون في وجهي بخبث لأن البشر كعادتهم عديمو الرحمة.. وأكثرهم دقيقو الملامح رقيقو البشرة والأيدي بقلوبٍ غليظةٍ كثيفة وعقولٍ شيطانيةٍ مشوهة.

ثم تستوقفني بعض الفتيات لالتقاط الصور لكن إحداهما تهز يدها أمام أنفها مستنكرةً الرائحة الكريهة.. واشعر بالحنق عليها لأنها من استوقفتني وليس العكس..

المرة الأولى التي غمرني بها الخجل الشديد حين جلست مع وكيلة إحدى دور النشر.. امرأةٌ قوية الشخصية متوسطة العمر بشعرٍ متموج جميل وصوتٍ أجش ربما من التدخين وعلى الوجه بقايا جمالٍ غابر..

كنا نتباحث بصعوبة في شروط العقد الجديد لروايتي القادمة وقد لاحظت شفتيها المزموتين بسرية والحاجبين المقطبين في انزعاج.. ثم ودون مقدماتٍ أو إنذار تنهض فجأةً من مقعدها وتصرخ بصوتها العميق الذكوري.

– المعذرة يا سيدي، ولكنك ثملٌ وأحمر الوجه.. فلنؤجل لقاءنا إذاً إلى يومٍ آخر.. كي تكون قادراً على تذكر حوارنا..

ثمة للإدمان على أي شيء –الحبوب أو الشراب أو المخدرات– مفعولٌ عجيبٌ على الأعماق.. مفعول إزالة الوهم والغشاوة.. تكتشف فجأةً بأنك لست قوياً كما اعتقدت يوماً أو كما ينبغي، وأنك لست منيعاً ضد الاستسلام المخزي ولا حصيناً ضد عاديات الأيام.

الإدمان لطخةٌ على وجه الإله الكامن داخلنا.. هذا الإله المتفوق يضطر فجأة للانسحاب عن عرشه مهزوماً إلى الشقوف وإخفاء الوجه.. ذلك الوهم الأزلي المريح بأنني صالحٌ ومتفوقٌ وخيّر يتبدد كغيمة صيف.. ما أنا اليوم إلا

حشرة! ومصيري الذي استحق الانسحاق المفاجئ على حائط ما أو تحت حذاء..

بعد تلك المواقف الفظيعة وشعوري بالخجل العميق أنظر بحقدٍ إلى المرأة التي جعلتني مدمناً.. تلك المرأة التي اشركها المنزل والتي دفعتني دفعاً إلى اليأس والنهاية لا تشعر بي وإنما تواصل إيذائي دون توقف وبسلاسةٍ غريبة.. أنا اليوم أكره تلك المرأة التي أحببت.. نعم أكرهها)).

* * *

- 17 -

- كما توقعنا.. لقد سافر الدكتور بدر الدين منذ عقدٍ من الزمن إلى مكانٍ ما، وانقطعت أخباره..

هكذا أتاني صوت توفيق عبر الهاتف غامضاً مقتضباً كصوت القدر:

- كذلك أخبرني معارفي في مدينة التل..

- ولكن لا يمكن أن يختفي طبيبٌ مخضرمٌ هكذا.. شخصٌ تولى علاج آلاف المرضى دون رقمٍ أو عنوان..

- غداً أرسل معارفي إلى باب المصح المغلق، ربما عثروا هناك على لصاقةٍ أو إعلان..

خيبة أملٍ أخرى لا تؤخر أو تقدم لكنها تأتي في وقتٍ أغدو فيه مذعوراً من أمرين: نهاية المخطوط، ونهاية الاتفاق الوشيكة بيني وبين السيدة الغامضة..

المرة فتحت لي صباح الباب بذاتها.. كان صباحها وزعيقها الثاقب المسموع وراء الباب المغلق قد انقطع فجأةً حين دوى صوت الجرس..

لم يكن ثمة أحد! لكن وجود تلك المرأة الغامضة داكنة الملابس كان محسوساً حولنا.. كنا نسمع صوت خطواتها، وحتى أنفاسها من مكانٍ ما، ثم حفيف مشيتها فوق رؤوسنا في الدور العلوي..

جلستُ أمام الشقراء الأنانية وقد غطاني عرقٌ بارد خوفاً مما يمكن أن تقول وهي في مزاجها المعكر.. راحت تتصفح على عجل الصفحات القليلة التي زودتها بها.. أقلقني أنها كانت تهز رأسها في قلة صبر:

– هل كتبتَ هذه الوريقات ليلة البارحة؟..

لم أجب واكتفيتُ برفع الحاجبين لسماعها:

– لقد كتبت هذا الفصل على عجلٍ ودون مبالاة، ولكن ما علينا.. لقد سبق وأن أخبرتك أنك في حلٍ من اتفاقنا السري..

– لستُ أفهم السبب.. لقد استغرقتني قراءة المخطوط زمناً طويلاً، وأنا الآن عاكفٌ على إتمامه بطريقة أو بأخرى، وإن كان متأخراً.. أشكر صبركِ..

– كيف أعبر لك؟ لقد اكتشفتُ منذ زمن أنني ارتكبتُ خطأً جسيماً بمحاولة إتمام النص الناقص.. الفكرة الآن تبدو لي زائغةً وغريبة.. وربما كان خطأً آخر أنني اخترتكَ أنتَ بالذات، فأنت تبدو كئيباً مهووساً بالتفاصيل وبالحقيقة الحرفية بحذافيرها، ورغم موهبتك البادية فأنت تفتقر إذاً إلى الحرفية المطلوبة لإنجاز عمل كهذا..

– إذاً فأنتِ تعتزين مني تسليم النص لكاتبٍ آخر؟!

هنا ابتسمت بمكر وقد زالت عنها غمامة الذنب العابرة..

– مطلقاً.. لقد تصادف أن السيد مروان سألني إن كان ثمة (بقايا) من آثار زوجي أو أية نصوص ناقصة! لابد أنه بخبرته الطويلة يفهم طبيعة العمل الأدبي، وكيف تتطور عند الأدباء بضعة نصوصٍ في آن واحد، وكيف يغطي بعضها مراراً حبيس الأدراج وإلى البد.

– وهل أخبرته إذاً بموضوع الرواية الناقصة؟..

– طبعاً.. كانت تلك فرصتي المواتية وقد انتهزتها.. لا تعلم كم فرح بالنبأ.. قال بالحرف الواحد أن ظهور روايةٍ ناقصة للعظيم الراحل سيسيل لعاب النقاد والقراء ويحدث ضجةً في الأوساط الأدبية.. يكمن كثيرٌ من الغموض والترقب والتوقعات في وريقاتٍ قديمة لأديبٍ ميت.. لاسيما رجلٌ عرفت عنه كثرة المفاجآت والماضي الغامض وتعدد الصوات الروائية..

– لقد ارتكبتِ للتو خطيئة حياتك!

لكنها لم تسمعني، بل أتمت حديثها وقد سال لعابها وهي تفكر بالمال القادم والمزيد من الأضواء والضجة الصحفية:

– ما أشد حماقتي!.. أنا التي جاهتُ لأخفي الأمر برمته عنه.. اتضح أنني كنت ألحق الضرر بذاتي..

ثم إنها غيرت لهجتها الحالمة، ونظرت مباشرةً في وجهي وقالت بصرامة:

– وإذاً عليك إعادة المخطوط الأصلي إلى هنا بأسرع وقت.. الناشر ينتظر بفارغ الصبر قراءة المخطوط، وربما طبعه طبعةً أولية للمستشارين، ولا يمكنني أن أعطيه نسختي الرديئة.. ثم إن الحاجة لبقاء الرواية في حوزتك قد انتقت تماماً..

هنا انتفضت غاضباً وقلت:

– من قال إنني أقبل بإضاعة وقتي بهذا الشكل؟ لقد استعملتني ثم ببساطةٍ متناهية أبطلتِ الاتفاق حين انتفت الحاجة إلي!

– أنتَ الذي أخللت ببنود الاتفاق.. لقد منحتك الوقت الكافي..

كنتُ أهم بالمغادرة غير أن صوتها الحاد الثاقب ما فتئ يتناهى إلى مسامعي:

– وإذاً أعد المخطوط لي بأسرع وقت، وقد أعذر من أنذر!

رحت أذرع الشوارع الهادئة المظلمة المشجرة وأنا انتفض من الغضب، وقد استمرت هذه الحال الغريبة من الهياج والكبرياء المطعونة داخل رأسي وصدري عدة أيام.

في الواقع لم أفهم أبداً سبب ذلك الذعر الرهيب من انتهاء الاتفاق والحاجة لإعادة المخطوط.. كانت كرامتي المجروحة في حالٍ يرثى لها إذ استغلتني تلك اللبوة أبشع استغلال، ولكن ثمة على ما يبدو وأسبابٌ أخرى كثيرة في أعماقي..

كنتُ قد تعلقت بصورةٍ مرضية بالرواية الناقصة ورددت إكمالها بصورةٍ دقيقةٍ وواقعته لم تعد الآن ممكنة.. ثم على الأرجح أن المرأة تخفي عني أسراراً كعلمها تفاصيل مخجلة لا يعرفها غيرها، وهي تكتمها اليوم للأبد بسحبها الرواية.. وأخيراً عذبني ذلك النداء الغامض من المرأة المجنونة الميتة التي ظُلمت وانتهت نهايةً بشعة، والتي أوقعتني رغم غرابة أطوارها في غرامها.. أنا الذي لم أتركها سوى صورتين وقرأت عنها بكثافةٍ حتى غدوت مهووساً بها..

في شقتي الباردة الحقيرة عدت لاحتضان المخطوط والتحديق به ثانيةً كانت هذه روايةً أصغر من متوسط حجم روايات السعدي، ربما لأنها لم تكتمل قط.. ومن الناحية الفنية بها ثغراتٌ عديدة وحتماً ليست أفضل أعماله.. إذ

حوت عدداً قليلاً جداً من الشخصيات والأحداث فباتت فقيرةً دراماياً.. وهي أحادية الخط والبناء دون خطوطٍ جانبية أو أصواتٍ متعددة..

لكنها رغم كل ما تَقَدم شديدة الواقعية والصدق لدرجة مرعبةٍ باعثةٍ على التعلق والإدمان.. كانت ببساطةٍ مذكرات شباب أديب ميت دون أدنى تنميقٍ أو تعديل، ربما لأنها مجرد مسودة.. حتى أنها خرجت من نطاق الرواية الأدبية إلى حيز السيرة الذاتية أو الاعترافات السرية والوثائق القانونية.. إنها شهادةٌ في محاكمة أو اعتذار علني على صفحات جريدة، وربما جرحٌ ينز ودموع مكتوبة على هيئة كلمات!

كنتُ قد عقدت العزم وانتهى الأمر..

تلك اللبوة لن ترى المخطوط الأصلي ثانيةً! إن علي أن أكتشف الآن بنفسي ما حدث في نهاية المطاف رغم كل محاولاتها المستميتة المريضة الميتة تناديني من مكانٍ ما راجيةً انصافها.. أنا اسمع دموعها وهمساتها داخل رأسي وفي أحلامي..

آهٍ.. لقد جننت!

((أنا في الظلام وحدي.. أجلس في المكتب ذي السقف المرتفع دون ومضةٍ من ضياء وقد غددتُ كائناً ليلياً أخرس.. أواظب على الشراب ولعق جراحي طريقةً وحيدةً للهرب من حياتي المؤلمة.. للانعتاق من واقعي المرعب.. إن في الكأس حريةً..

ومع شعوري بمرارة الإدمان أتساءل الآن مذهولاً: كيف لم أشرب قبل الآن؟ وكيف احتملتُ سابقاً حياتي؟.. حتى العمل تحت تأثير الكحول يغدو أكثر سهولةً وسلاسة.. أنا لا أعبأ كثيراً اليوم بالنتائج، وقلقي يتلاشى تقريباً..

الصفحات الفارغة تغدو صديقي وملاذي.. بيتي الآخر الذي ألجأ إليه من حياتي البائسة.

اليوم كدت أتصل بالإسعاف إذ لم يستيقظ زوجتي حتى المساء..

لقد أخذت مؤخراً تنام أكثر وأطول ودون حركةٍ أو صوت حتى اعتقدت مراراً إنها ماتت في نومها، وبين ذراعها مخطوطها السخيف المهترئ..

لكنها استيقظت أخيراً وراحت تذرع الردهة جيئةً وذهاباً، تحدث نفسها بلهجةٍ حاقدة.. المرأة التي لم توجه لي عبارةً واحدة من أسبوعين تعانق روايتها وتجوس الردهة وهي تنثر عبارات حقدٍ وكراهيةٍ موجهةً ضدي.. لقد غدوتُ عدوها الأول والوحيد.. أنا الحياة الآن بمرها وغدرها!

تساءلت ليلتها بذهنٍ غائم وأفكارٍ زائغة إن كانت زوجتي تفرط باستعمال المهدئات الموصوفة فقط للهياج والأرق الشديد.. إن علي مراقبة الحبوب الموضوعة بجانب السرير والبدء من الآن فصاعداً بعدّها..

راحت الحياة تمضي بتثاقل وأنا ذاهلٌ عن الوقت والأحداث.. عن نجاحاتي والحياة الأدبية وعن الحب الذي تضاءل حتى اختفى وقلبي الذي أنشرح شرحاً عميقاً..

أين هو الفخر المنتظر بإنجازاتي والفرح بالنجاح؟ أنا لا أشعر اليوم بشيءٍ البتة إذ أن تعاستي التي لا تُحتمل لا تقبل شعوراً آخر.. أن تشفق لهذه الدرجة على امرأةٍ وتكرهها في آنٍ واحد لأمرٌ عجيب.. أنا أخشى اليوم منها وعليها..

كنتُ قد أصبحت في وقتٍ قصير الأديب الشهير غذير الإنتاج والذي يثير مع ذلك الشفقة لحياته الشخصية البائسة والازدراء لرائحة الكحول المنبثة من فمه وملابسه.. العائد يومياً لحجمه المنزلي..

تتمدد زوجتي التي لم تستحم منذ أسابيع على الأريكة تحت تأثير الأدوية المهدئة شبه فاقدةٍ للوعي، وتقريباً لا تتنفس من عمق نومها.. ثم ينبث الزبد من شفتيها وأسمعها تغمغم:

– أمي.. أبي..

هنا يداهمني رعبٌ مفاجئ خوفاً عليها.. أتكون نهايتها يا ترى شبيهةً بنهاية أمها؟ هل تنهي حياتها بيديها وتحت أنفي؟.. لابد أن أمها تناديها الآن من مكانٍ ما.. روحها في المنزل الذي به ماتت تحوم في الزوابا، وتعيش داخل رأس ابنتها كابوساً أو شيطاناً ينادي)).

* * *

- 18 -

حين أعطاني صديقي رقم الهاتف المسجل على باب المصح المهجور لم أملك سبباً للتفاؤل.. في هذا الوطن المدمر ثمة ملايين الأرقام التي تعطلت أو مات اصحابها أو هاجروا..

غير أن ظلام تشاءمي انجلى حين سمعت صوتاً حيوياً لامرأةٍ استجابت حالاً على الطرف الآخر من الخط.. صوتٌ طيبٌ به حماس.. لكن المرأة قالت بلا تردد:

– آه! ألا يزال رقمي هناك على اللافتة؟ لقد طلبتُ إزالته أكثر من مرةٍ دون جدوى..

– أرجو المعذرة..

– لا عليك.. ليس في مقدوري على الأغلب مساعدتك، من أنا إلا رئيسة الممرضات السابقة.. رقم مساعد المدير قد أزيل منذ عامين لأنه مات غرقاً في المتوسط، وهو المعني بأمور السجلات القديمة وليس أنا، ثم إن أغلب السجلات الطبية للمرضى هي في منزل الطبيب المغلق منذ دهور، والبعض الآخر حمله بصحبته..

كان من السهل الإحساس بالضيق المتصاعد من النبرة النزقة للصوت الطيب النشيط.. ولابد أن المرأة قد شعرت كذلك بزفرات إحباطي عبر الأثير فقالت متعاطفةً:

– وما قرابتك للمريض؟..

– المريضة الزمنة خالتي وأنا لم أرها منذ طفولتي إذ لم نكن على صلةٍ وثيقةٍ بها..

– للأسف، لم تمكنني مساعدتك..

– وماذا عن الدكتور بدر الدين؟ ألديكِ رقمه؟ أود لو حدثته عنها.. سيعني ذلك لي الكثير..

– أنت تمزح.. بعد تلك الأعوام تعتقد أن مالك المصح سيعطي رقمه لرئيسة ممرضاته؟ أو يعلمها بتنقلاته بعد ستة أعوام من آخر مكالمة؟.. أنا غير واثقةٍ أنه على قيد الحياة إذ لا تربطنا الآن أي رابطة..

– لسوء الحظ كان تفاؤلي في غير محله.. على رقمكِ أن يُمحى فعلاً عن تلك اللافتة اللعينة!

– وذلك رجائي أيضاً.. لا تظن أنني أتكاسل أو لا أكترث بالمرضى.. من الممكن أن أقابلك لو شئت ولكن ما الفائدة؟ المزيد من تضييع الوقت والآمال الكاذبة.. ما اسم خالتك؟..

حين ذكرت الاسم تنهدت..

– المسكينة! نعم أذكرها.. بعض المرضى لا يُنسون مهما طال الزمن، لاسيما أنها زوجة أديبٍ شهير.. كانت محط رعايةٍ خاصة..

– إذاً يمكن أن تحدثيني عنها.. يا لفرحتي.. أقابلكِ في أي وقتٍ لو شئتِ، لاسيما أنني عاطلٌ عن العمل هذه اليام..

كانت المرأة تعيش على بعد دقائق بالسيارة.. رحت أفكر بلقاء الغد في حالة هياجٍ غريبة.. لابد أن المرأة بعمر والدتي، فرئيسة الممرضات لا يمكن أن تكون شابةً والذكريات تعود لعقدٍ من الزمن، غير أن صوتها احتفظ بيفاعة الشباب وحماسة الطفولة.. ولكن أي فائدةٍ ترجى؟ لمَ أسعى بكل قوتي لامتلاك معارف مشتركين مع تلك المرأة؟ الناقد أولاً ثم صديق الأسرة؟ ربما لاكتشاف الجانب الآخر من الحقيقة، ولأقترب أكثر من الماضي الهارب غائم الملامح..

ثم انصرفتُ لقراءة الوريقات الأخيرة المتبقية من الرواية الناقصة والتي ستنقطع ولاشك قريباً:

((من المستحيل عدم الشجار أو التنفيس حين يعيش المرء تحت وطأة ضغطٍ عصبيٍ لا يطاق!

أنا اليوم أشبه بسجنٍ في منزلي الفسيح المظلم الرطب، لا أكاد أجرؤ على الخروج إذ أخشى أن ترتكب زوجتي حماقةً ما.. وكيف أخرج تاركاً إياها لمصير والدتها المؤلم؟.. لكن البقاء هنا يوماً بعد يوم بات يشبه الكابوس الأبدي..

ثم هدتني أفكاري اليائسة لسرقة أغلبية الحبوب من العلب المجاورة لسريرها، وهكذا أضيف حبةً كل يوم دون أن يمكنها غيداء نفسها بالقليل الذي تبقى..

ولا شك أنها لاحظت بعد زمن لعبتي لكنها لم تمنحني إلا مزيداً من نظرات الاحتقار والعدوانية.. الشفتان المقلوبتان دوماً وكذلك الحاجب بتعبيرٍ عنوانه المرارة والاشمئزاز، والمخطوط مضمومٌ إلى الصدر كمن يخشى ضياع كنزٍ ثمين وكأن حياتها على تلك الصفحات.

كنتُ في تلك الشهرة عالماً ومدركاً لشهرتي التي تزايدت بشكلٍ سريعٍ ومستمر، ولكنني لم أشعر بحقيقة الشهرة ولا فرحت بها كأنها تخص شخصاً سواي أو كأنني أعيش بدوري روايةً لا حقيقة.. ثم إن هذه الشهرة أتت على حساب خصوصيتي التي افتقدتها بشدةٍ في تلك المرحلة.. راح المعجبون يتهامسون عن زوجتي _المجنونة) ثم يستنتجون من ذلك أنني ولابد أخونها وأنتقل من زهرةٍ إلى زهرة كجميع المشاهير.. لم افهم أبداً سر ذلك الارتباط.. ربما لأن السكر ورائحة الكحول ترتبط في أذهان البشر بالانحلال وفقدان القيم..

ثم إن الطبيب حرضني عبر الهاتف على تشجيع زوجتي على الخروج من المنزل وممارسة الرياضة أو السفر وصرفها عن موضوع هوسها (الرواية والأدب)، وما كنت لأجرؤ على ذكر المخطوط بالاسم إذ كان ذلك موضوعاً حساساً جداً بالنسبة لها..

وقوبلت كل محاولاتي بالازدراء وبهزةٍ عنيفةٍ من الراس..

ثم إنني صحتُ مرةً فاقداً السيطرة على أعصابي:

– دعي عنكِ ذلك المخطوط اللعين لحظةً واحدة.. فهو لن يخيفني وسيبقى حيث تركتيه..

– أأنت واثق؟ (ابتسمت بسخريةٍ واشمئزاز).

استغرقتني الإجابة يوماً كاملاً:

– طبعاً واثق.. لو أنني شئت سرقة المخطوط لفعلت منذ زمن، أو لأخذته منكِ عنوةً..

ثم أنها راحت تذرع المكان جيئةً وذهاباً دقائق بتحفز غير حبيسٍ وغضبه.. ثم التمعت عيناها وتفجرتا كالبركان:

– أنت تكذب.. لا ثقة لي بك أبداً.. روايتي ليست الشيء الوحيد الذي تود سرقته..

– أنا لا أفهم.. توقفي عن ذلك الجنون..

– لقد سرقت أغلب أدويتي خلسةً واعتقدتَ أنني لن ألاحظ كعمياءٍ أو معتوهة.. تريدني أن أخرج عن أطواري وأفقد عقلي تماماً، ثم لتودعني في ذلك المكان الفظيع..

– أنت مريضةً حقاً ومجنونة.. كان من الخطأ فعلاً أن تتركي المصح.. لولا إصراري وحماقتي..

عضضت شفتي ندماً لنعتها بالمجنونة، ثم كان علي أن استمع طيلة الليل لنحيبها الفظيع كالحيوان الذبيح عبر الباب المغلق..

عذبتني غصة الشعور بالذنب.. ربما لأن الشجار يدفعني دوماً للتفوه بأشياءٍ لا ينبغي قولها، أو لأنني فكرت أفكاراً شريرةً.. كرهت نفسي لأنني تمنيت سراً لو أنها في المصح فعلاً كي أتحرر من هذا الكابوس..

كيف ولماذا نعذب –دون قصدٍ– أحبابنا أو من كانوا أحبابنا؟ من جراء شجارنا المستمر أصابت زوجتي نوبة الاكتئاب الأولى.. راحت تنتحب طيلة الليل وترفض أن تأكل أياماً طويلة.. تحدق في الأرض طيلة ساعات، لكنها تنظر ناحيتي في خوف.. كانت تخشى أن أودعها المصح.. ثم تعود إلى نوبات النحيب الفظيعة.

لا فائدة.. أكاد اسمه صوت أمها يناديها من مكانٍ ما.. إنها تسير بثباتٍ نحو الهاوية، وقد غدوتُ من الرعب حبيس المنزل تماماً.. راحت تنحرف بقوةٍ نحو ذات المصير كورقة الشجر اليابسة يجرفها مجرى الماء الهادر دون مقاومة نحو نقطةٍ وقدرٍ معلوم.

ثم وقع ما خشيته وتنبأت به منذ زمن.. غدت عليها صباحاً على الأرض فاقدةً للوعي، وعلى شفتيها وفي يديها عشرات الحبوب والقيء يغطي وجهها..

لم أفهم من أين حصلت على كل تلك الأدوية.. أدركتُ فيما بعد أنها كانت تدخر بصبرٍ حبة يومياً.. لقد خططت منذ زمنٍ لفعلتها وخدعتني!

بعد عدة ايامٍ في المشفى رأيت وجهه الكريه اللامبالي يطل ثانيةً.. بابتسامةٍ شاقةٍ واثقة قال:

– المرة ستطول زيارة المريضة للمصح.. لقد أخطأنا المرة الماضية بتخريجها مبكراً..

لم أفهم كيف اعتبر إقامتها عاماً ونصف زيارةً قصيرة، لكنني لم أقوى على الرد واكتفيت برفع الراية البيضاء.. استسلمت له مسلماً سلاحي كجنديٍ منهكٍ مهزوم هزيمةً منكرة.. لقد صادر هذا المنتصر ذو المعطف الأبيض مصيري وحبي، وهكذا سلمت له حياتي البائسة ودخلت قفصه الضيق..

عدتُ عازباً مرةً أخرى ممارساً الانتحار اليومي بالشراب ومقتدياً بحبيبتي.. هذا الأم العاصر حولي كالأفعى العملاقة لا يطاق.. الألم كالماء تماماً، يتسرب ببطاءٍ من الشقوق إلى الأعماق ولا سبيل لوقفه أو مقاومته.. وهكذا ترعد سمائي المزمجرة لتغسل غبار الألم المترسب في أعمق أعماقي.. ترى كيف تكون نهاية كل هذا؟.. آهٍ لو أنني أدري)).

بهذا السؤال المؤرق ينتهي المخطوط الناقص والحياةُ الأدبية لعملاقٍ راحل.. وهو السؤال ذاته يعذبني ويطاردني زمناً.. ترى كيف تكون النهاية؟..

* * *

- 19 -

أنظر كل صباح إلى (لون الفصول) فتضربني كآبةٌ عارمةٌ عاصرة.. روايتي التي كتبتها بدموعي وهمساتي وأنفاسي، والتي باتت تذكرني بـ (ذلك الشيء المدعو حباً)، إذ لاقت الاثنتان القدر ذاته، وتشاركتا حتى المنضدة ذاتها استقلت عليها.

ثمة حزنٌ ما وحسرةٌ خاصة حين لا يرى مخطوطٌ ما النور.. حين تُدفن الكلمات وتختنق البعرات والآهات يسود شعورٌ بالإحباط إذ تدرك أن العالم لا يود سماع صوتك ويتجاهل آلامك.

بتلك الحسرة شعر (السعدي) حين نظر يوماً بأسى إلى روايته الناقصة والتي تردد كثيراً في نشرها، وعجز عن العثور على نهايةٍ مناسبةٍ لها.

كانت رئيسة الممرضات المقيمة على بعد عشرة دقائق مشياً قد وافقت على لقائي رأفةً بي، وحين علمت شخصية المريضة كأنها أرادت أن تتحدث عنها ماضغةً ذكرياتها.

راح صوتها الصبياني الرنان يتردد داخل رأسي طيلة الطريق، وحين رأيتها واقفةً مع زوجها على الباب وجدت صعوبةً في المطابقة بين الصوت والصورة.

ابتسمت المرأة الكهلة لي مجاملة ومدت يدها السمينة لمصافحتي بينما حالت عيني فوق جسدها المكور القصير وقدميها الصغيرتين ووجهها الرقيق الأنثوي.. تأكدتُ من شخصيتها حين قالت بالصوت الصغير ذاته:

– أنتَ تشبهها بغموض.. العنق الطويل النحيل والشموخ ذاته.. أرجو أن لا تكون مكالمتنا قد زادت مشاعر الإحباط.

– في الواقع لقد..

– وما هي منتهك؟

– أنا أعمل في وزارة الاقتصاد صباحاً، وفي الليل أؤلف الروايات.

هنا ندت عنها تنهيدةٌ أو شهقة وهي تدعوني للجلوس في الصالة المظلمة:

– كخالتك تماماً.. الموهبة تسري في العائلة كما أرى.. لقد حملت خالتك روايتها بين ذراعيها وحمتها طفل، ونظرت إلينا جميعاً بشكٍ وخوف من أن نسرقها.. لقد خاطبتني مرةً وبلهجةٍ واثقة (أعلم أنك جميعاً خلف روايتي، ولكن هيهات).. لقد اعتقدت بثقةٍ أن زوجها دفع مالاً حتى نخطف وليدها العزيز.

ثم ضحكت وتابعت ثرثرتها المستمرة النوتة كهديل حمامةٍ لا ينقطع:

– وفي الواقع فإن زوجها الشهير قد طلب منا مراراً تسليمه المخطوط (كما دعاه).. ولكن لم يصل به الأمر لأن يرشونا! كان قد استنتج بذكائه أن تعلقها الشديد وهوسها بالكتابة وربما غيرتها منه يدفعانها إلى الجنون..

هنا أوقفتها بحركةٍ من ذراعي:

– هوسها يدفعها إلى الجنون! ولكن ألم يخشى أن يجن جنونها حين تصحو ذات صباح ولا تعثر على كتابها؟ ماذا يحدث حين تفقد الأم رضيعها؟.

– زوجها لا يعمل في مجال الطب النفسي، لذا هو لا يقدر العواقب.. ولذات السبب لم يجرؤ أحدنا على اختلاس الكتاب رغم محاولاته المستمرة وشكواه للطبيب.. لقد عرفناها أعواماً، وقَدّرنا بسهولة ما هو مهمٌ بالنسبة إليها وما هو هامش..

– وكم أقامت لديكم؟.

– على الأقل عشرة أعوامٍ مدة منصبي كرئيسة.. لقد دَخَلت شابةً وراقبناها تستحيل بسرعةٍ عجيبةٍ كهلةً شديدة النحول منخورة الأسنان، وقد قطعت مدة الإقامة فترتان قصيرتان في المشفى، وربما أسبوعاً في المنزل عادت على إثره أسوأ وأشد هياجاً وهنياناً.. لم تستطع بعد ذلك السبوع أن تسمع اسم زوجها أو ترى وجهه دون أن تنعته بأسوأ الألفاظ (كالزاني والسارق والخائن).. في النهاية توقف عن زيارتها تماماً منعاً للإحراج.

– لا زيارات؟..

– بقت دون زياراتٍ مدة أعوام! وذلك أشد ما آلمنا جميعاً.

– وهل صدقتموها؟.. هل اساء إليها زوجها حقاً؟..

– أنت تسألني أنا عن زوج خالتك؟ من يعلم أين تكمن الحقيقة؟ لكن وللأمانة لم تعطنا رائحة الكحول المنبعثة من فمه وثيابه انطباعاً حسناً! لذلك قابلناه بجمود وجفاء إذ تبغا جميعاً إلى جانبها من الصراع.. ذلك يحدث حين ترى يومياً ولمدة أعوام مريضاً فيغدو فرداً من عائلتك وحياتك..

صمتت وهلةً ناظرة إلى الأفق لتستعيد الماضي:

– كانت ابتسامته الخبيثة ونظرته الزائفة ولحيته الخفيفة ورائحة فمه مستفزةً لنا جميعاً، وقد غضبنا منه حين أهمل زيارة زوجته أعواماً طويلة ولا يأتي إلا مرغماً..

– كيف ماتت؟..

– ما أدراني أنا؟.. لست طبيبة..

– لقد توفي بدوره مؤخراً..

– سمعتُ بذلك.. أنا اليوم عجوزٌ فارغةٌ مصابةٌ بالملل تقرأ الجرائد بنهم وتتبادل الإشاعات.. يؤسفني أنك فقدت مصدرك الوحيد والأخير للمعلومات..

– كلا.. ما كنت لأسأله عنها..

هنا دخل علينا زوجها الطيب الملتحف براءٍ صوفي ووشاح بفناجين القهوة.

– ما أعذب ابتسامتها وأشد صفاء بشرتها وهاتيك العينين الرائقتين.. كانت طفلةً وكهلةً في الآن ذاته.. لا يسعك ألا تتوقع شفاءها التام المفاجئ يوماً ما حين تنظر إلى براءة وجهها ونقاء سريرتها وحديثها المتوازن، ولا يسعك إلا أن تتساءل لم اختار المرض العقلي والقدر الأحمق مخلوقاً بهذا الجمال وفراشةً ملونة الأجنحة ليصيب عليها لعنته..

رحت أفكر فيها بحزب وكأنني أراها ماثلةً أمامي:

– كانت تقبض على ذراعي برقةٍ وتقول: (عليكِ ألا تستسلمي.. عديني.. كامرأة وكأني مخلوقٍ ضعيفٍ آخر ينبغي أن تعثري على ذاتك.. استخرجيها من الأعماق كلؤلؤةٍ من البحر، مهما عارضوا وهددوا وزمجروا).. ولم نفهم من

عنيت بالواو.. الرجال؟ أعداءها المتخيلون؟.. لقد كانت مصابةٍ بجنون الاضطهاد كما علمت لذا زعقت أحياناً مذعورة حين دخلنا حجرتها دون استئذان، ثم تعود بسرعة إلى سكينتها وتبرر (المعذرة.. اعتقدتُ أنكِ منهم.. أنتِ تنسلين إلى الحجرة خافيةً كتابي كلما أراد مداهمتي.. كم كرهتُ وجه السحلية والنظارة الدقيقة الشفافة، لكنهم جميعاً كذلك.. لا فرق بين واحدٍ وآخر).

ثم إنها تابعت ثرثرتها نصف ساعةٍ أخرى دون توقف، ثم انتفضت فجأةً كمن تذكر شيئاً مهماً:

– ثمة في المصح حجرةٌ بها خزائن تحوي متعلقات المرضى المزمنين.. لا أعلم إن أعيدت متعلقاتها لزوجها أم لا.. يمكنني أن أطلب من شخصٍ أعرفه أن يبث في المصح المغلق، وقد لاحظت مدى تعلقك بها.. حتى لو عثرنا على صورةٍ قديمة أو صحنها المكسور..

– ولكن أليست الإجراءات المتبعة أن تسلم متعلقات المريض المتوفى لأفراد عائلته؟.

– أنا لم أقل أنها توفت هناك، وفي الواقع فقد كانت خالتك حيةً ترزق حين تركتُ العمل في المصح.. أنتَ الذي افترض أنها توفت في المصح، وعلى الأغلب فقد فعلت ولكن بعد رحيلي ربما.. أنا لستُ واثقة!

– من يعيش في المصح يموت في المصح..

– لا تكن واثقاً من ذلك.. لقد أغلق المصح بعد رحيلي بسنة ولو أنها توفيت هناك لأبلغتني الممرضات بذلك إذ بقيتُ على صلةٍ طيبةٍ بهن.. إلا في الأشهر الأخيرة حين تردت الأوضاع في المدينة وانقطعت صلتنا وترددت الشائعات باستمرار حول قرب إغلاق المشفى..

لم أعرف بما أقول.. رحت أحاول هضم تلك المعلومات الغزيرة المحيرة التي زودتني بها.. ولاسيما أنها فتحت أمامي نهاية الرواية على مصراعيها.. ثم إنني وجدتُ نفسي أتمتم:

– نعم أرجوكِ.. امنحيني أي شيءٍ تبقى من أثرها.. رسائل مهترئة أو ثوبٌ ممزق أو صورةٌ قديمة.. أي شيءٍ حقير هو بالنسبة إلي كنزٌ ثمين..

– إلا إن تخلص أحدهم من تلك التوافه التي لم يطالب بها أحد..

حين خرجت من بيت الرئيسة غطتني غمامةٌ من الأسى والذكريات المريرة.. كأنني أنا من عشت تلك الحياة الفارغة المضيعة بين أروقة المشافي والمصحات وجدرانها العارية، وليس تلك المرأة المسحوقة الحساسة والتي حطمت عن غير قصد حياة زوجها وقلبه.

ثم إن مطاردات صباح لي أخذت تتسارع وتتواتر.. بدايةً اتصلت بي عدة مرات، وبدا لها جلياً أنني أتجنب لقاءها أو محادثتها.. فتشتُ في أعماقي عن السبب الكامن ولم أجد..

لم أفهم نية الخبيثة تماماً.. هل ستعطي المخطوط لآخر ليشوه الرواية ويهدر جهد المؤلف؟ أم أنها قد تختمها بنفسها على هواها؟ ما كنت لأقبل بتشويه التاريخ والحقائق.. يخرج الكتاب إلى النور ستدخل وقائعه إلى الأبد ذاكرة القراء والتاريخ وتغدو أمراً واقعاً لا يمكن دحضه.. حتى وإن كان مجموعة من الأكاذيب والتلفيق والتحامل.. لقد شعرت بالأسى العميق للراحلة وجانبها الآخر من الحقيقة.. ذلك الجانب الخفي الذي لم ولن يسمعه مخلوق..

ثم إنني رأيت ذات يوم صباح عبر زجاج نافذتي.. ميزتها رغم النظارات السوداء تسير في الحارة الطويلة القديمة بسرعة وغضب.. رفعتْ رأسها باحثةً

عن الشقة الحقيرة، ولا أعلم إن رأتني عبر الزجاج الداكن كما ميزتها أنا بوضوح..

ثم سمعت دقاتها على الباب.. رتيبةً عنيدةً لا تكل.. تهدأ هنيهةً لتعاود النقر على أعصابي وكياني.. كنتُ قد تجمدتُ في مكاني وتوقفت حتى عن التنفس خشية أن تسمعني..

لقد باغتتني قدومها المفاجئ وأحرجني.. علاقتنا الآن تسير حتماً نحو النقطة الحرجة.. نقطة اللاعودة.. أنا أرفض قطعياً إعادة المخطوط النفيس – لسببٍ أو لآخر– وهي الآن تدرك ذلك بصورةٍ لا لبس فيها..

راحت تهدر بغضبً كآلةٍ أو مرجل حين مشت في الحارة مبتعدةً عني، وشفتاها تتحركان بوضوحٍ في هياج.. لقد أدركت أنه لن يكون بمقدورها تشويه الرواية ونشرها رغم النسخة التي احتفظت بها إن كان المخطوط الأصلي في حوزة شخصٍ آخر دليلاً أبدياً على الأصل الناقص.

ثم إن صوت رئيسة الممرضات أتاني عبر الهاتف معتذراً:

– أرجو أن لا يخيب أملك.. ثمة فقط بعض الأوراق الممزقة القديمة..

حين وقعت عيني على الأوراق الممزقة اتسعت في ذهول.. إذ كُتب عليها بخط يد الراحلة عملٌ أدبيٌ ما.. هذه ربما بقايا مخطوطها الممزق الذي احتضنته أعواماً، ولا أعلم من مزقه هكذا.. في ثورة غضبٍ ونقمةٍ ربما.. أو على عجل.

أتتني الأوراق الصفراء المغبرة في كيسٍ قديمٍ مطوي.. بقايا مخطوطٍ قديم مُزقت صفحاته المرقمة وسطها عرضانياً وألقيت أغلب الأنصاف المختفية في القمامة ربما وهذا هو ما تبقى..

حدقتُ في الأوراق بانفعالٍ عنيف أكاد اسمع ضربات قلبي.. لمستُها بحذرٍ ورهبة كمن يعالج مخطوطاً أثرياً أو نسخةً مدفونةً مكتشفة من الكتاب المقدس.

ما أراه أمامي ناقصٌ وبشدة إذ تم التخلص من أغلب الأوراق الأصلية وأُهمل إلقاء الباقي لسببٍ أو لآخر.. العجلة أو لسرية الموضوع ربما؟.. لكن ما أراه لا يرقى –لنقصه– إلى روايةٍ كاملة، بل هو –ويا للأسف– روايةٌ ناقصةٌ أخرى!

ضربني رعبٌ ماحق.. لقد عذبتني وأرقتني بلا هوادة روايةٌ ناقصةٌ واحدة، والآن أصبح لدي روايتان ناقصتان فما العمل؟..

* * *

- 20 -

تمددت الأوراق القديمة الممزقة على مكتبي أياماً طويلة كجثة هامدة، وفوقها هالةً من قداسة الموت ورمزيته.. هذه إذاً بقايا الصفحات التي احتضنتها الراحلة في الردهات المظلمة أعواماً طويلة إلى جانب قلبها، وحملتها بحنان أمٍ كرضيعٍ أو حنين.

هي ذات الصفحات المشؤومة التي استلقت مغبرةً مصفرة في دُرجٍ مقفل أعواماً طويلة عابرةٌ السنين وغموض الأسئلة لترعى على مكتبي أنا.. دون الناس جميعهم لسببٍ غامض.. وفيها رسالةٌ إلى من زمنٍ ولّى أو من عالم الآخر.

حدقتُ منها محبطاً خائب الأمل.. من أين عساي أبدأ وليس ثمة فصلٌ واحدٌ مكتمل؟ ثمة فقط أنصاف صفحاتٍ متفرقة عليها أحياناً أرقام.. مزقتها يدٌ ظالمةٌ مجهولة..

أتاني صوت رئيسة الممرضات غامضاً عبر الأثير:

- ما أدراني أنا من مزق الصفحات؟.. أنا لم أكن هناك حين جُمعت متعلقات الراحلة، ولكن يحدث أن نعيد المتعلقات لأسرة المريض ونهمل بعض التوافه، رسالةٌ مجهرية أو بطاقة معايدةٍ قديمة.. ما أهمية ذلك كله على أية حال لشخصٍ ميتٍ أو مريض عقلياً؟ أرجو أن تعذر لي ثرثرتي وقلة حيلتي..

– لقد مثل أحدهم بجثة الرواية! بالنظر إلى الطريقة التي تمت بها العملية عرضانياً وقطرياً وبعنف.. ثمة غضبٌ واضح ونقمةٌ عارمة..

أتتني ضحكتها الصبيانية عبر الهاتف وقحةً غير ملائمة:

– أأنت محقق أو طبيب شرعي؟ هذه ليست جريمة قتل.. ولكن إن شئتَ أن أخمن لقلت إن زوجها من فعل ذلك.. لقد أراد تدمير المخطوط أعواماً طويلة، وحمّله مراراً مسؤولية تدهور صحة زوجته..

أجبتُ بجفاء:

– فهي إذاً جريمة قتلٍ معنوية.. حين نفقد عزيزاً تصبح توافه مقدسةً فما بالك بكتابٍ حمّلته صاحبته كل تلك الأهمية؟ لو أنني (السعدي) لنشرت هذه المقتطفات حتى أخلد ذكر حبيبتي عوضاً عن إعدامها ورميها في القمامة!!

– ثمة ولابد كثيرٌ من الأسرار التي لن نعرفها ابداً.. يستحيل الدخول في عقل شخصٍ آخر من زمنٍ مختلف وإدراك مشاعره في لحظةٍ معينة!

كان خط ليلى كبيراً صبيانياً غير منتظم.. تتقارب كلماته أحياناً وتتباعد أحياناً أخربكالتأتأة أو الإسهال العقلي.. أشبه شيءٍ بخط يافعٍ من ذوي الحاجات الخاصة يتمرن على الكتابة، كُتبت في إحدى الصفحات:

{{يحدث أحياناً أن نستسلم لحبٍ انتهازيٍ وسيم، ومع علمك الكامل بحقيقته تضع قدمك طواعيةً في فخ الثعالب المنصوب أمامك على الأرض.. ذلك الانجذاب الغريزي للصياد الذي يرانا بعينٍ مختلفة، وكلما تتسع حدقته باهتمامٍ واضح مكشراً عن أنيابه، إنه يشعرنا بأهميتنا وتميزنا كما نشعر الفقمة مباشرةً قبل طعنها..

الأسوأ من ذلك أن أولئك الانتهازيين ملحون ولا يعرفون الشعور بالخجل.. يقبعون في محيطنا عمداً طيلة الوقت، نراهم جانبياً من زاوية العين فيثيرون من أعماقنا شعوراً مقيتاً بالانجذاب المرضي مصحوباً بالرفض والثورة المؤلمة، كلما راينا الضحكة الوسيمة والفك العريض الأشبه بزاحفٍ مفترس.

هذا الشاب يطاردني منذ أعوام بلا هوادة، ويعرف تماماً رأيي به ومع ذلك لا يفقد أبداً الأمل، والحقيقة أن مصدر ذلك الأمل هو للأسف أنا!! كلما أفلح في انتزاع ضحكةٍ حقيقيةٍ مني، وكلما أشرقت عيني وجبيني لرؤيته صدفةً يتجدد في صورة الأمل المتفائل وتشتد جذوته كالنار المقدسة التي لا تخمد أبداً..

– متسلقٌ وانتهازي..

كذلك صَرّح والدي ذي الآراء الجارحة لا تعرف المواربة بصوتٍ عميقٍ واضح.. وفي الواقع فقد ترددت كلماته أمامي كصدى لكلماتٍ مماثلةٍ في أعماقي..

– لو أنكِ لا تسكنين منزلاً من اثنتي عشرة غرفة لرأيتِ ذلك المعدم يحو حول أنثى أخرى.. لا شك عندي في ذلك..

– لكنه لم يرَ منزلنا قبل أنه يزورنا البارحة! (هتفت شاعرةً بالظلم إذ أهان أبي أنوثتي قبل أن يهينه).. لو تعلم بماذا يصفني.. الفراشة ملونة الأجنحة.. الزهرة البرية الزرقاء ذات العطر الخافت الغامض، الطائر كسير الأجنحة!!

دون أن تحدث كلماتي الأثر المرجو وضع والدي راحته على جبينه وتمتم:

– رباه.. الوغد معسول الكلام طلي اللسان أيضاً! إذاً فقد أحكم شباكه! حسناً، اطلبي منه مهراً كبيراً، أو على ألقل أن يؤمن عملاً بأجرٍ مجزي.. في اللحظة التي يدرك بها أن عليه أن يعطي كما يأخذ سيتحرر الهرب..

– لكنه يحاول فعلاً الحصول على تلك الوظيفة دون أن أطلب.. ثم إنك تتقي من ابنتك أي صفاتٍ جاذبة!

– أنا لا أنفي الهالة فوق رأسك يراها الكثيرون.. إن للمركز الاجتماعي والثروة هالةً جاذبة..

– ليس فقط ما ذكرت.. ثم لمَ تطلب من ابنتك نزع تلك الهالة؟.. من متى كانت المزايا خطيئةً كبرى؟..

كانت تلك النزاعات مرهفةً ومخيفةً لي لسببٍ واحد.. أنني حصلت منذ طفولتي على كل ما أريد والنقاش الذي ينتهي دوماً إلى نتيجةٍ معلومة ليس نقاشاً، وذلك ما أفزعني.. هل كنتُ أدافع عن خاطبي أم عن أناي المتضخمة؟ لست أدري.. هل أحبه أم أحب حبه لي؟ وهل هذا سببٌ للزواج؟ لا أعلم، ولكنني أيقنت في أعماقي من نهاية هذه المرحلة المضطربة، لابد أنني كالعادة سأحصل على كل ما أريد}}.

إذ انتهت من قراءة ذلك المقتطف شعرت بالصدمة!

هل تتحدث الكاتبة عن زوجها بالتحديد وعن رأيها فيه أو أنها تبني على شخصيته شخصيةً أخرى موازية؟ أهي تقص علينا قصة حياتها أم إنها تستلهم من حياتها المضطربة حكايةً أخرى أكثر إثارةً؟ من الصعب تخيل معبودي شاباً انتهازياً.. أرفض بشدة أن أصدق هذا الوصف المختصر الظالم.. الرجل الحساس الشاعري الذي ذاب غراماً في الكاتبة لا يمكن أبداً وصفه بالانتهازي..

ولكن في الحكاية الجديدة كثيراً من التفاصيل الحقيقية ذكرها (السعدي) ذاته.. ذات الأوصاف لمحبوبته، وكلمة (انتهازي) وردت في روايته لوصفه هو بالذات! ومطاردته لها أعواماً صحيحة، وكذلك سمعة العائلة التي شوهها انتحار الأم وغرابة أطوار الأب كذلك لم تتغير..

يحدث أحياناً أن ينظر شخصان للشيء ذاته وتحت النور نفسه ويراه كلٌ منهما بصورةٍ مختلفةٍ تماماً.. نحن نعيش الخداع البصري كل يوم.. ما يسميه أحدهم عشقاً وتعلقاً يسميه آخر تسلقاً!

{{كان على روحي البريئة أن تتقدم شيئاً فشيئاً في قراءة النفس البشرية وفهم طباع الناس.. من كل خطأ أتعلم، ومن كل همسةٍ أو كلمةٍ اسمعها ينفتح لي بابٌ جديد لدرسٍ آخر..

فهمت مثلاً كيف يسيء الانتهازيون فهمنا حين نطلب منهم أن يعملوا ويقدموا شيئاً.. الأشخاص الموهوبون وسيمو المحيا غير قادرين على التفكير إلا في ذواتهم وموهبتهم المقدسة، وهم يظنون مراراً أننا نطلب منهم، في حين أننا في واقع الأمر نطلب لهم لأننا نتوقع لهم ومنهم الأفضل.

كيف يعتقد أميري أنني أطمع في أجره وجهده مع علمه التام بثروتي؟.. لماذا أخيب أمله كلما سألته عن أشياء واقعيةٍ مادية كمصدر دخله؟.. هل خاب أمله في سذاجتي المفترضة؟ أم أن واقعيتي ردته من أحلامه إلى واقعٍ يكره؟..

يباغتني يوماً بعينين محمرتين متخذاً وقفةً شاعريةً جريحة كأنه فرغ لتوه من قراءة روايةٍ عاطفية من زمن الفرسان:

– أتساءل أحياناً إن كنتِ تفهمين معنى للحب.. إنك تزدرين العواطف الجارفة، وما أنتِ إلا نسخةٌ أنثويةٌ عن أبيك!.. نعم أبرد من الجليد ذاته،

تتحاشين بإصرار النظر إلى وجهي وتنسين أي شيء أقوله، وحتى اسمي ذاته تجدين صعوبةً في تذكره..

– ذلك ليس صحيحاً..

– تلك اللامبالاة وعدم الاكتراث والابتسامات الغامضة والردود الحائرة تثير جنوني..

– أنا شاردة البال وحسب.. والحقيقة أنني أحب أن أحيا سعيدةً هانئة البال دون مشاكل.. أنهل من الحب فرحته ونشوته وأترك مخاوفه وآلامه، فهل تلومني؟..

ما أغباه! أفكر..

المخلوق الذي يخاله بارداً أنانياً هو في الواقع حيوانٌ صغيرٌ مذعورٌ يرتجف.. أنا في الواقع خائفةً منه قلقةً من صدق مشاعره ومن مصيري معه.. حين يهاجمنا وحشٌ أو كلب يتعين علينا التظاهر بالبرود والقوة والثبات.. أنا إذاً أغلف مخاوفي وشكوكي بقشرةٍ من اللامبالاة والبرود وأطلي وجهي الحائر بقناع من الهدوء والشرود..

إن على قدميّ أن تبقيا راسختين على الأرض والواقع حيث الشقة والمرتب بدل أن يقذف بي هذا الحالم الأناني لرحمة العواصف، وفي الواقع فحتى الأميرات والملكات يرفضن الزواج من شخصٍ عاطلٍ عن العمل}}.

* * *

- 21 -

حين قرأتُ الفصل الأخير المكتوب من وجهة نظر الأنثى ضربني رعبٌ ما حقٌ وشعورٌ بالمرارة.. إذ تذكرت نهال.. حبيبتي.

كذلك إذاً تفكر الأنثى! المسألة لها مناورةٌ لتحقيق مكاسب وتنازلات.. لعبة عض الأصابع لا أكثر..

إنها باستمرار تريد أشياء، وحين لا تحصل عليها تكبت مشاعرها عمداً وتتحول إلى تمثالٍ من الثلج.. وفي النهاية تكسر دمية الحب وتصف الحبيب بالانتهازية أو الأنانية..

هكذا إذاً خسرت حبيبتي للأبد!.. لقد توقعت مني ببساطة أشياء بعينها لم يكن مقدوري تلبيتها.. من الأحمق الذي اعتبر النساء عاطفيات خياليات؟.. إنما نحن الرجال الجنس الأضعف الغارق في الأحلام والمثاليات.. متى كانت آخر مرة رأينا فيها أنثى تدافع عن بلدها في المعركة أو حتى تتحول إلى إرهابية تموت في سبيل فكرةٍ ما؟ لم ولن يحدث.. إن في رأس هاتيك المخلوقات (الضعيفة) آلةٌ حاسبةٌ مبرمجةً لتحقيق الأهداف..

وهكذا خرجتُ راكضاً من شقتي كي أروح عن نفسي وأنفض عنها ذلك الضيق والكآبة..

ثم إن يداً كبيرةً قويةً على ناصية الحارة قبضت على معصمي من حيث لا أدري وجذبتني إلى الزاوية..

رأيت الوجه الكبير الدائري للناشر –الأستاذ مروان– يبتسم ابتسامته الغامضة الكريهة التي تحمل معنى الإنذار والتهديد، والتي تحبها لسببٍ ما النسوة..

– أخيراً تم العثور عليك.. بعد انتظار ساعاتٍ وبحث أسابيع..

– ماذا تريد؟

– أنت تهرب منا وتتحاشانا يا هذا..

– منا؟.. ومن أنتم؟..

– صباح وأنا! لا تكن تافهاً فأنت تدرك علاقتنا، وقد كلفتني باصطيادك إذ أن العيون تتحلق حولها كلما دخلت هذه الحارة (بلغتني نبرة الاشمئزاز حين لفظ كلمة الحارة وأدار عينه الصغيرة حوله بنظرةٍ خاطفة).. لنصعد إذاً إلى شقتك ونتكلم..

– كلا.. ليس في شقتي.. نجلس هناك في المقهى إن أحببت..

ارتسمت ابتسامةٌ على محياه وهو يقول:

– فالمخطوط إذاً في الشقة..

– أنا ببساطة لا أثق بك (قلت ممتعضاً وأنا أجلس).

– نعم فأنا أفوقك قوةً (رشف القهوة فابتل شارباه).. والآن صارحني عم تبتغيه من هذه اللعبة المنهكة..

– لا أبتغي منك شيئاً ولا أود محادثتك! ومع أنك مبعوثها الرسمي.. لكنك لست صاحب العلاقة..

– ما زلتَ ممتعضاً إذاً لرفضي نشر كتابك!

– أنتَ تهذي.. لقد علمتُ أنك تفضل تشويه كتاب رجلٍ ميت على المخاطرة بكاتبٍ جديد...

– أنتَ تكره إضاعة الوقت، فليتصارح إذاً.. لقد أخبرتني صباح بالاتفاق العجيب الذي عقدتماه، وهي جد آسفةٍ على فكرتها المجنونة وعلى إضاعة وقتك الثمين (ابتسم)، والآن فلتعد لها كتابها لو سمحت..

– إنما هي تأسف على ثقتها بي إذ فاجأها هوس بالراحل وبالدقة العلمية والتاريخية، وهي تنوي الآن عرض الرواية الناقصة على كاتبٍ مغمورٍ آخر..

– كان ذلك صحيحاً في الماضي، إلا أنني أقنعتها بنشر الكتاب كما هو.. للروايات الناقصة سحرٌ خاص..

– تفضل ولتنشر الكتاب كما هو إذاً.. لماذا تلح على استعادة المخطوط إن كانت النسخة المصورة لديك؟..

– يا لك من خبيث! إما أنك سارقٌ يحاول الابتزاز أو مهووس حقيقي.. أخبرني كم من المال تريد لإعادة المخطوط؟..

– تلك إهانةٌ لا أقبلها (هنا تضاعفت كراهيتي لهذا الرجل اللزج المراوغ مدعي الأدب).. إنما أنت تحاول عبثاً كسب ود الممثلة الشهيرة باستعادة غنيمتها المسلوبة.. اطمئن فهي تهواك.. وقد رأيتُ ذلك في عينيها.. وإنما كلاكما يليق بالآخر..

– قطعاً نليق وذلك فخر! أتخيل تماماً كيف يفكر الأديب المعدم الفاشل والعازب بشخصين ناجحين جميلين شهيرين.. الحسد القاتل ممزوجٌ بالرفض والإدانة، مع قليلٍ من الشهوانية المكبوتة ما يدور خلف الأبواب المغلقة..

– توقف عن الهراء..

– لكن الحقيقة أبسط من ذلك بكثير، وهي تختلف عن خيالاتك المريضة.. في الواقع فقد انجذب أحدنا للآخر منذ أعوام من ساعة تلاقت عيوننا.. صباح رغم شعرها الشقر ومساحيق التجميل والضحكة الرنانة طفلةٌ خائفة في أعماقها، وبحاجةٍ لمن يساندها، وقد تخطت في حياتها الصعبة عقباتٍ مستحيلة إذ رباها عمها الفقير بعد وفاة أبويها في سنٍ مبكرة إلى أن ملكت بموهبتها وشخصيتها خشية المسرح.. فهي إذاً عصاميةٌ تماماً، وبخلاف ما نتوقع فأنا أكن لها حباً صافياً حقيقياً..

– نعم.. ليس حباً عذرياً ولا يهدف للزواج، وهو يدور فقد أعوامٍ طويلةٍ كما أرى.. حتى قبل أن يفجعها الترمل..

– اسمع أيها المنحط.. لا تحاول محاكمتنا على أشياءٍ تجهلها.. ما عليك إلا إعادة الرواية إن أردت ألا أحطم أنفك..

هنا نهضتُ غاضباً وأنا أقول:

– ثمة فكرةٌ أفضل.. لمَ لا تتصل بالشرطة؟.. إن كنتَ على حق القانون يعيد لك ما فقدت.. أعلم أنك لن تجرؤ حتى لا اضطر لفضح محاولاتكما على صفحات الجرائد الأربعة.. والآن وداعاً.

(سمعته يصيح خلفي)..

– أيها اللص الوقح.. حذاري إذاً..

لقد بلغنا إذاً نقطة اللاعودة إذ رمى الجميع بأوراقهم كلها على المنضدة.. الحرب الآن باتت مفتوحةً على جميع الجبهات.. أنا أنتصر اليوم للموتى في معركتهم مع الأحياء.. أساند المهزومين وجثث القتلى ضد من ساندتهم يد القدر..

وهكذا تابعت قراءتي للصفحات الجريحة الغريبة:

{{اليوم راقبته يقرأ إحدى قصصي للمرة الأولى منذ زواجنا.. طاردته مراراً حتى قبل أن يضع عينه المترددة على أحد أعمالي.. المرة الأولى يقرأ لي فيها شيئاً كانت في النادي الأدبي منذ أعوام خلت حين كانت هالتي مازالت تعميه..

اليوم راقبته يعبر سطور القصة بسرعة.. غرق في صمتٍ طويل ثم ألقى عليّ نظرةً جانبية وقد كور شفتيه ومطهما للأمام في تعبيرٍ أعرفه جيداً.. إنه الحسد..

لا يمكن أن أخطئ الهالة الخضراء المريرة ارتمت فوق وجهه وانبعثت من نظراته وذهوله ونبراته.. الغيرة.. الوحش المرير المتألم.. لكنها كانت غيرةً من نوعٍ خاص.. تلك التي لم نتوقعها أبداً وصدمتنا بعنفها وحقدها.. حين تغار الأم من ابنتها، والزوج من زوجته والجد من الحفيد! يا لهول الصدمة..

– لا بأس (قال أخيراً).. ما سيكون اسم القصة؟

عبارةٌ واحدة استخرجها رغماً عنه وهو يتحاشى النظر مباشرةً إلى وجهي وقد التوت شفتاه بالامتعاض.. لا أعلم إن سمع جوابي لكنني وجدت نفسي أنسحب بعدها مباشرةً إلى غرفة المكتبة أتضرع لضربات قلبي كي تهدأ ولأعصابي المتوترة أن ترتاح ولأعماقي المحترقة أن تبرد..

ما أصعب أن تكتشف الأنثى بالتدريج أن شريك حياتها لا يتمنى لها الخير ولا يكن لها الود، بل ربما يخشاها ويحذرها.. كأنما وقعت لتوها على حربٍ مستعرةٍ كامنةٍ تحت التيار لم تلاحظها سابقاً.. هي تعلم بغريزتها أن عليها من الان فصاعداً أن تحذر من هذا الرجل وأن تنظر مراراً خلف كتفها في بيتها.

وهكذا باتت المكتبة المظلمة داكنة الألوان تريحني.. أغرق في الكرسي الضخم القديم الوثير معزولةً عن البيت والحياة ألتمس الحياة بين الرفوف العملاقة وخلف الأبواب المغلقة..

ثم أذكر كيف اعتزلت أمي الحياة لكنها يوماً فوق هذا الكرسي بالذات.. كانت تخشى أبي وتتحاشاه وبقسوته وبروده وعينيه الزرقاوين الفولاذيتين..

تقرأ باستمرار كتباً بعينها، وهي تحدث نفسها بصوتٍ هامس وإصبعها ترتجف فوق بعض الصور وفوق شفتيها تحوم ابتسامة زائغة تائهة..

أتساءل بذعر: هل سأعتزل يا ترى مثلها الحب والحياة وانتحر على صفحات كتاب؟}}.

ينتهي هنا الفصل فجأة إذ نصل إلى مكان التمزيق.. وألاحظ باستغراب أنني أرتجف من البرد أو من التأثر والخوف..

لقد كنتُ حائراً بشدة ومنفعلاً دون أن أفهم معنى لما أقرأ.. هل كانت المؤلفة ضحيةً حقاً أم الجانية؟ ما أدراني؟.. إنما أنا أقرأ المشاعر النازفة لامرأةٍ بالغة الحساسية.. تلك المشاعر العنيفة الأليمة التي لم تصارح بها أحداً لأن أحداً حولها لم يكن جديراً بالثقة..

* * *

– 22 –

اليوم زارني صديقي توفيق.

لمحتُ فوراً على شفتيه الدقيقتين الخبيثتين كلاماً وأخباراً لا تطيق الانتظار.. كانت رأسه الكبيرة قد ازدادت بعد الزواج ضخامةً.. وإن لم أفهم العلاقة بين الزواج وحجم الرأس.. تماماً كما تضخمت كرشه المكورة!

– سمعتُ أن نهال قد عادت إلى الحارة، وأن ألأمور ليست على ما يرام بين الزوجين..

– سبق وأن أخبرتك أننا لم نعد صديقين بعد خياناتك المتكررة، ومع ذلك ما تفتأ تحمل لي مزيداً من الأخبار المزعجة عديمة الفائدة وكأنني أحتاج اليوم مزيداً من الاضطراب.

– خبرٌ مزعج؟! لقد اعتقدُ أنك ستقفز من الفرح وتصفق بيديك.. إنما هذه فرصتك..

– لمَ أفرح لفشل المخلوقة التي أحببت؟ الإنسانة التي أحمّل نفسي وزر تعاستها باتت اليوم أتعس!

– لكن سعادتها في يدك أنت، كيف لا تفهم؟ فلتزرها وتعيد الأمور إلى نصابها..

– بهذه البساطة؟ كيف ولماذا إصلاح الأمور مع امرأةٍ متزوجة؟ لقد عجزتُ في الماضي على إرضائها والتفوه بشيءٍ مفيد، وأما اليوم فما زلتُ حائراً

أجهل ما أريد منها فلم أزيد تعاستها؟ السطحيون فاقدوا الحساسية مثلك سعداءٌ حقاً في حياتهم البسيطة!

أجاب وقد آلمته كرامته:

– في الواقع يمكن ترديد العبارة ذاتها عنك معكوسةً.. البشر المرضى بالحساسية تعساء بائسون لأنهم بالغوا التعقيد، وهم أذكياء بشكلٍ فائضٍ زائدٍ عن الحاجة ومكبل.. الزواج لم يمنع يوماً مشاعر الحب عند المتزوجين، لاسيما حين يكون الزوج قميئاً سوقياً كزوجها.. لماذا تصر دوماً على تعقيد الأمور؟

– لو أننا تزوجنا لوصفني أحدهم كذلك بالسوقي.. لهذا أعقد الأمور.. الزواج لم يكن يوماً بهذه البساطة التي تتوهم، والرواية التي بين يدي خير دليلٍ على ذلك.. تتوفر جميع عناصر النجاح أحياناً ومع ذلك ينتصر الفشل!

– ما أنت فاعلٌ إذاً لو علمت أن نهال حاملٌ في الأشهر الأخيرة.. لقد رأى أحدهم في الحارة بطنها الهائلة..

هنا نهضت جاذباً زائري من ياقته، ثم طردته شر طردة.. ما كان لي أن اسمع أنباءه المزعجة.. بعد أن أغلقت الباب خلفه أجهشتُ في بكاءٍ مريرٍ حيواني..

{{الرجل الشرقي لا يطيق المناقشة، ويخشى بجنونٍ الهزيمة، ولا يقبل في بيته بما هو اقل من الانتصار المطلق.. وزوجته في الواقع هي خصمٌ –مجرد خصم– لا حبيبته وصديقة..

كم يستغرقني بلوغ ذلك الاكتشاف المؤلم إلا بضعة أشهر من الزواج.. والرجل الشرقي مصطلحٌ ينسحب على الرجال من جميع المشارب الاجتماعية والطبقات والمستوى التعليمي..

كلما اشتريتُ مستلزماتي بنفسي سبب ذلك له ضيقاً وربما غيظاً.. لِمَ يضايق استقلالي المادي ذلك الشرقي؟ هل يخشى الثورات ككل طاغية؟ كلما التقيت بالأصدقاء القدامى يشعر بالخوف والتهديد وتظلم عيناه.. الطاغية الذي وقع في غرام العصفورة السعيدة الحرة يمقت رؤيتها خارج القفص لحظات..

لماذا تؤذيه هواياتي بهذا الشكل؟ ولم تخيفه آرائي؟..

أهو شرخٌ في الثقة، أم أن رواسب الصراع الطبقي تجولها منفذاً من عينيه وهمساته؟.. مخلفات أجيالٍ وقرون أكبر حقاً من أن يردمها الحب..

ولكن ما هو الحب؟ قبض الريح! أشد الكلمات هشاشةً وتقلباً، وهي تعني آلاف الأشياء المختلفة بين الناس، بل وتختلف عند الدر معناها وشدتها وطعمها كل صباحٍ وعلى مدى الفصول والأزمة.

لذلك كله راح زوجي يثير حنقي بحبه للسيطرة ويدفعني دفعاً لإعلان التمرد، وحتى النأي بنفسي ومشاعري بعيداً عنه.. بتُ أخشاه وأضيق به واضطر باستمرارٍ لمراعاة حساسيته وللشفقة عليه.. أهكذا يا ترى تكون الحياة؟ حرباً مستمرةً دون هوادة؟.. أهذا هو الزواج؟ شدٌ وجذب؟ كرٌ وفرٌ وإلى الأبد؟..

اليوم اجتمعت زمرة الأصدقاء بعد النادي الأدبي نناقش الرواية اليت تُقرأ يومياً مسلسلة.. مسح ربيع براحته على غرته الملساء الصقيلة السوداء وقال بضيق:

– لا أفهم لم تم اختيار (شرق الجنة) بالذات! الرواية شديدة الطول والتعقيد.. أخشى أن تتحول جلسات النادي إلى مسابقاتٍ للتثاؤب والمجاملات..

لكن زوجي أجاب بلهجةٍ حادة:

– (شرق الجنة) هي ملحمة جون شتانييك الكبرى ورائعته الأخيرة.. لقد قرأتها عدة مراتٍ في الماضي ولكنها تكتسب كل مرة معاني جديدة.. إنهاالحياة بحلوها ومرها.. أتعلم أن الكاتب استوحى العمل من فصول العهد القديم وقصة هابيل وقابيل، التي ما تفتأ تتكرر إلى الأبد؟

– فلنقرأ إذاً الكتاب المقدس ذاته، إذ ربما استطاع جذب الأسماع أكثر.

غطت رباب فمها براحتها لتخمي ابتسامةً وأيدت زوجها قائلة:

– الآن فقط نكتشف هوية المهدوس الذي اختار العمل للقراءة.. فلنبدأ إذاً بتوجيه رسائل عتاب أو إنذار بالفصل للأعضاء الذين باتوا يتحججون بأعذارٍ واهية عند عدم الحضور..

هنا قهقه زوجي محرجاً وقال:

– كل ما أطلبه أن نمنح العمل فرصةً ثانية فهو رمز بصورةٍ غامضة للخطيئة الأصلية والشعور بالذنب والتكفير عن الخطايا.. وأما بخصوص رسائل الإنذار للأعضاء لنكلف ليلى فهي بارعةٌ في أساليب الترغيب والترهيب..

نظر الجميع ناحيتي مغتاظين فأجبت:

– ينبغي لمن يوجه الرسائل أن يقرأ العمل أولاً، وأما أنا فلم أستطع إتمام ثلاثة فصول من الكتاب الممل..

هنا علت قهقهات الحضور الحادة، لكنني لمحتُ في عيني زوجي نظرة التأنيب.. الثاقبة لي مع شعورٍ عميقٍ بالإحباط والصدمة.. فهو إذاً يتوقع مني التأييد الكامل والاصطفاف بجانبه دون أي اعتبارٍ لرأيي الشخصي..

كان الموقف محرجاً لي إذ تحاشى زوجي محادثتي وحتى النظر باتجاهي طيلة الجلسة وما بعدها شاعراً بالخيانة وعمق الطعنة!

من الملفت حقاً اكتشاف مفهوم الولاء والحب عند زوجي.. إنه الموافقة التامة وإلغاء الشخصية تماماً.. الناس إما حلفاء أو أعداء.. والحياة بالنسبة له حربٌ كبرى، ومسألة حياةٍ أو موت.}}.

ذكرتني الرواية الناقصة (الثانية) بأصدقاء الماضي.. وهكذا قررت أن أزور ثانيةً السيد ربيع.. الوحيد الذي تبقى من ذلك الزمن بعد رحيل زوجته..

مازال يجلس وحيداً في محل الأدوات الموسيقية الفارغ الذي بدا وكأن ثلاثين عاماً لم تمر عليه ابداً، بل عبر المكان إلينا سليماً من أعماق الماضي، بهدوئه الحزين وطلائه الأصفر وأصواته الخافتة..

ابتسم لي الرجل مرحباً كأنني المنقذ له من غياهب الوحدة والصمت:

– هل أنهيت البحث الذي تكتب؟..

– بل هو كتاب.. إنما ما زلت أرجو فهماً أعمق لتلك العلاقة الغريبة بين الزوجين.. العاشقين والعدوين اللدودين في الآن ذاته..

راح يتحفز للإجابة بينما حدقت أنا مذهولاً في السمنة التي أصابته كمرض وفي رأسه الصلعاء تماماً محاولاً تخيل غرته الملساء الداكنة.. لا شك في أن الرجل قد تغير عبر العقود إلى درجةٍ يستحيل فيها التعرف إليه، راح

يعتصر ذاكرته دون جدوى.. ليس الشكل وحده الذي تغير.. تلك المرحلة له باتت تاريخاً لشخصٍ آخر لا يعنيه..

– أذكر قولاً لنيتشه معناه أن ما يفشل الزواج في الواقع ليس فقدان الحب وإنما فقدان الصداقة، وليس ثمة عبارةٌ أخرى أصدق تعبيراً عن تلك العلاقة الغريبة.. لقد كان التعسان عاشقين من اللحظة الأولى لكنهما لم يكونا مرةً صديقين رغم الانجذاب القاتل.. لا قواسم مشتركة ولا أحاديث متبادلة ولا شعور بوحدة المصير أو متعة الصحبة أو التواطؤ السري.. على العكس كان ثمة نوعٌ من التنافس والغيرة المرضية لا يمكن كبتها، التحدي المستمر والتباين الصارخ في كل شيء.

– ولكن أجبني أرجوك.. من كان الجاني ومن الضحية؟ كيف تحطمت آمالهما بهذا الشكل وكيف مُنيا بهذه التعاسة طلها؟

– لقد لعب كلٌ منهما دور الجاني والضحية في أوقاتٍ مختلفة.. يستحيل إذاً توجيه أصابع الاتهام لواحدٍ دون الآخر.. ما إن أدمن على الشراب حتى شعرنا بالخنق عليها لتدميره، لكننا كرهناه واتهمناه حين باتت شعبيته ساحقةً لاسيما عند الجنس الطيف.. لقد احتَقرت فقره واشمأزت منه ولكنه بدوره منعها من الكتابة، وحتى أنه لم يقم لها جنازة..

– وما أدراك؟ ظننت العلاقة انقطعت..

– تلك حقيقةٌ ساطعة.. لم تكن ثمة جنازة لأننا لم نقرأ عن واحدة.. لقد كانت أخباره آنذاك في الجرائد كل يوم، ولو أن مجلس عزاءٍ أقيم لها لعرفنا دون أدنى شك.. وفي لاواقع فقد علمنا بوفاتها منه وحده إذ بدأ يتحدث عن لوعة الترمل في المقابلات ويشكو الوحدة على صفحات الجرائد.. كعادته دوماً يندب

قدره ويرثي لنفسه وحدها.. ما زلت أذكر صدمة رباب وتعليقها إذ قالت: (وما أدرانا أنه لم يخنق التعسة بيديه ويخفي جثتها؟ المسكينة بلا عائلة).

أصابتني الرعدة من سماع تلك التفاصيل الكريهة والتي ضمن بها الرجل في زيارتي السابقة.. أنا أسمع بالتدريج صوتاً مغايراً لصوت معبودي الذي لم يكن على ما يبدو ملاكاً..

* * *

- 23 -

كانت بضعة أسابيعٍ قد انقضت على لقائي الأخير العاصف مع الناشر، وقد توقعت خلالها مزيداً من التهديدات والقرع على بابي، وحتى رجال الشرطة في المنزل لكن ذلك كله لم يحدث!

وقد عشت حالةً من الترقب والتحفز الدائمة كحال المجرم يشعر في كل ثانية بقرب لحظة اعتقاله.. المرة الوحيدة التي تمت بها مضايقتي كانت بعد عدة أيامٍ على ذلك اللقاء وحين استوقفني عامل المقهى النحيل ذات صباح وقال دون مقدمات:

- اتصلت البارحة سيدةٌ تسأل إن كنت تعيش في الحارة، وحين أجبتها بالإيجاب قالت إنها لا ترغب في الحديث إليك وكلفتني بإرسال رسالةٍ قصيرةٍ محرجةٍ إليك..

- وما هي؟..

خرجت الكلمات ببطءٍ من فم الشاب الفقير المذهول:

- قالت إنك سارقٌ ولص، وإنها نادمةٌ على التعرف عليك..

- ما هذه التفاهة؟..

- ثم إنها سلمت السماعة لرجل غليظ الصوت قائلاً: للأسف سننشر الكتاب كما هو..

– لا تحمل إلي مزيداً من هذه الرسائل.. أولئك البشر ليسوا مرغوباً بهم..

ثم إنني فضيت سابحاً في عرقي البارد.. هكذا إذاً! بهذه البساطة سلموا واستسلموا.. ابتسمت بارتياح إذ توقعت لوهلة أن يستعمل الاثنان العنف أو الجريمة ضدي!

ثم غابت عني أخبارهم وأصواتهم أسابيع عديدةً ثقيلة حتى بدأت أتساءل، إلى أن قرأت نبأ خطبة الممثلة الرسمية على ناشر أعمال زوجها الراحل! وإذاً فقد عرف السبب.. الاثنان غارقان في الحب وفي التفاصيل الدقيقة الرائعة لخطط المستقبل القريب، وحين يسود الحب والوفاق يختفي الخلاف والمشاعر السلبية.. لا بأس، فلتنشر الرواية ناقصة وحتى يحين ذلك الوقت لن أعيد المخطوط.. ثم إنني رأيت نهال.. أخيراً لمحتها!

عَبَرت بهدوءٍ وتثاقل الحارة من ناصيتها دون أن تراني.. ضرب قلبي بعنفٍ مدة دقائق حتى سمعت صوت ضرباته دون مبالغة.. ورغم اضطرابي ما كنت قادراً على إزاحة عيني عنها في الثواني القصيرة التي استغرقها عبورها..

كانت معقدة الشعر تمشي باسترخاءٍ وببطء كامرأةٍ حامل دون أن تظهر على عينيها أي آثارٍ للقلق أو لكآبتها المعتادة ولا حمل وجهها تأثير الخلاف العاصف، بل غمرها رضى الحوامل العميق الجارف إذ حملت في أحشائها الحقيقة الوحيدة في حياتها.

وضعت راحةً على ظهرها في عدم ارتياح، وبدت شديدة الجمال والبساطة إذ سيطرت هرمونات الحمل على وجهها الرائق فازداد سمنةً وشحوباً وصفاء..

لقد هزتني تلك الثواني الخاطفة من الأعماق، ولم أدرك آنئذٍ أنها ستغير حياتي إلى ألأبد.. حين عدتُ إلى المنزل كنتُ مهتاجاً عاجزاً عن الجلوس أو التفكير بهدوء، وهكذا لجأت ثانيةً إلى السطور القديمة الحائرة الممزقة:

{{اليوم داهمني على حين غرة وجلس أمامي راسماً على وجهه الشمعي الوسيم تعبيراً جدياً متصفاً الهدوء ولكنه كان يغلي من الداخل:

– بات لزاماً علينا أن نتحدث.. صارحيني لم تودين حقاً الكتابة؟ وهل ستكون هذه مهنتك؟ (ابتسم بتكلف).

– لقد كتبتُ القصص القصيرة أعواماً طويلة قبل أن اقابلك! وقد التقينا أول مرة في النادي الأدبي، لذا يفاجئني سؤالك!

– لكننا ما عدنا في الماضي.. هل يلزم فعلاً أن يكون في منزلنا روائيان؟ ولماذا؟

– وإذاً فلتعتزل العمل الأدبي.. ليس لسؤالك جوابٌ مقنع.

– من السهل عليكِ أنتِ التخلي عن هوايةٍ عابرة، وأنا أنا فهذه حرفتي ومصدر رزقي..

– هواية! أنت تصر على التقليل من شأني ورغباتي..

– اكتبي كما تشائين إذاً، وللقراء الحكم بيننا.. على فرض أنكِ ستُقرئين..

– كف عن استفزازي دون طائل..

– ولكن لنتباحث في التفاصيل.. ثمة دقائق كثيرة في حياتنا وقصتنا الغريبة أود استعمالها في كتبي بل وقد فعلت.. هذه التفاصيل ملكي وحدي، ولا أود قراءتها مكررةً في كتاباتك.. حتى وإن بقيت حبيسة الأدراج..

– لاحظتُ ذلك بالفعلّ أنت لا تكتفي باستعمال قصة حياتنا المشتركة دون إذني في عديدٍ من قصصك، بل وتحرّم علي فعل الشيء ذاته.. ولست أفهم كيف تحرمني من استعمال عصارة خبراتي وتجاربي في كتبي، ولم تكون قصتنا المشتركة حقاً لك وحدك..

– ثمة عديدٌ من العبارات قيلت، وكثيرٌ من الطرائف والأحداث وقعت وقد استعملتها قبلكِ.. هذا كل ما في الأمر..

– نعم.. لقد بدأت صورة تلك الجميلة الأنانية المستهترة تظهر مراراً في أعمالك.. المرأة السطحية التي تعشق الضواء والظهور والملابس الثمينة وإنفاق ثروة ابيها! أنا لست حمقاء كما تعتقد، ولكن صورتي ليست حقاً تحتكره وحدك.. إن على الناس أن تسمع كذلك صوتي..

هنا ضرب المنضدة غاضباً ونهض.. أزاح الكرسي بقدمه وصاح بعصبية:

– عليكِ اللعنة.. لقد تزوجتُ امرأةٌ عنيدةٌ أنانيةً لا تفكر إلا في ذاتها المتضخمة!

فاجأتني ثورته غير المتوقعة وشعرتُ من جرائها بالظلم الشديد.. كالعادة يساء فهمي دون أن أكون قادرةً على الدفاع عن نفسي.. وقد تكرر هذا الظلم في حياتي مراتٍ عديدة وكأن حياتي ما تفتأ تتكرر دائرةً في دوائر لا نهائية.. ولكنني مع ذلك لا أعتزم التسليم بالأمر الواقع والاستسلام..

من الآن فصاعداً سننافس على النوادر التي تقع لنا وعلى تفاصيل رحلاتنا وسهراتنا ومعارفنا.. قد يظهر ذلك كله مكرراً في كتبنا بطرقٍ متباينة، وسيحجب واحدنا عن الآخر أفكاره وتأملاته خشية أن تُسرق!.. يا لها من حياةٍ عجيبةٍ لم نسعَ إليها!

وهكذا تحولت بالتدريج حياتنا اللاهية المليئة بالحفلات والأسفار والشهرة إلى حياةٍ يملؤها القلق ويسودها التوتر.. هو ذا يجوس حولي متحفزاً عصبياً كلما انهمكتُ في الكتابة، ويخيل لي أنه يختلس النظر للصفحات، ومع ذلك يأبى قراءة قصصي حين أطلب رأيه إذ يرفض الاعتراف علناً بموهبتي..

ثم إنني لمحته في الظلام بعد منتصف الليل في غرفة المكتبة منحنياً محدودباً على المكتب يقلب صفحات مخطوط روايتي الأولى..

لا أنسى في حياتي ذلك التعبير الأثيم المهتاج! كان يقلب الصفحات قلقاً على عجلٍ بعصبيته، وعلى وجهه مزيجٌ من الغضب والخوف والذهول.. راح يقرأ وشفتاه ترتجفان ويده الجائفة الممسكة بالمخطوط ترتعد.. كنت قد افتقدته ليلاً في المخدع فهبطتُ بحثاً عنه..

هنا أنرت المكتبة قائلةً:

– لكنك رفضت بإصرار قراءة قصصي..

هنا انتفض من قوة المفاجأة وشحب وجهه حتى اخلته موشكاً على الغياب عن الوعي.. تلعثم لحظاتٍ ممتقع الوجه، ثم نطق بلهجةٍ غير مقنعة:

– ينبغي التأكد من أن تفاصيل حياتنا الخاصة لا تظهر للعلن على هذه الصفحات.

– حتى أنت غير مؤمن بهذه الحجة الغريبة! أنتَ من نشر فعلاً أدق التفاصيل! حتى أنني اقرأ في بعض كتبك أفكاراً وتأملاتٍ مسبق أن رددتها عليك تحت ضوء القمر.. تلك الهمسات التي تبادلها قلبا حبيبين في الظلام! قرأتها على أوراقك فكيف تجرؤ على اتهامي؟

– إن ذلك هراء.. ينبغي التأكد وذلك كل ما في الأمر..

قال هذا ومضى بسرعة بينما فغرتُ فاي ذهولاً، وانعقد حاجباي في دهشةٍ أخرستني..

أمام ذلك الموقف العجيب وجدتُ ذاتي مرغمةً على مراجعة جميع الاحتمالات.. هل يحاول زوجي ببساطة سرقة بعض أفكاري؟.. أم أن الحسد والغيرة يدفعانه لاستراقة النظر إلى سطوري؟ أم أنه فعلاً لا يثق بي؟..

فلتعصفي أيتها الرياح المجنونة بهدوء بيتنا الكذاب.. ولترقصي أيتها الشياطين الملعونة عن زوايا مخدعنا المظلم.. لقد دقت ساعة الحقيقة وسطعت شمسٌ محرقة على جليد أكاذيب الوفاق وأوهام الحب التي تنفسناها}}.

حين وضعتُ الوريقات الصفراء الممزقة كنت أرتعد إذ صدمتني واقعية الصفحات وسردها الحَرْفي المفاجئ لتفاصيل التنافس الخفي والحرب الأدبية بين شخصين من أشد البشر حساسيةً وقلقاً..

لكنني شعرتُ كذلك بِخَدَرٍ كالفالج عند قراءة المقطع الأخير ولاسيما السطور الأربعة النهائية إذ توهمتُ للحظة أنني قرأتها في مكانٍ ما وبالحرف الواحد.. ذلك الشعور المرعب يجتاحنا حين نشعر بتكرار لحظةٍ ما أو موقفٍ حدث لنا في الماضي..

بعد أن عصرتُ ذاكرتي خلصتُ إلى أن هذه السطور الأربعة عن سقوط الأقنعة وكشف حقيقة المشاعر منسوخةٌ بالحرف الواحد في إحدى روايات السعدي المتأخرة..

إذاً فربما استعار مَثَلي الأعلى بعض المقاطع –وبالأحرى نسخ– من زوجته التي طالما أنكر موهبتها.. ثم تذكرتُ مفعماً بالفم والأسى مقابلتي الأولى مع صباح والتي ادعت فيها أن السعدي استعان مراراً بكتابٍ شباب لإنجاز بعض من رواياته.. فالتعديل المزمع إذاً على المخطوط الناقص هو ليس الأول أو الأخير!.. اللعنة!.. الشخص الذي عبدتُه دهراً يذوب رويداً رويداً كتمثال الثلج!

* * *

- 24 -

ثم إنني عكفت على قراءةٍ سريعة لروايات الأديب الراحل والتي اعتقدت أنني حفظتها عن ظهر قلب، ولكنها لكثرتها عصية على الذاكرة.. لم أشأ مصارحة روحي بالسبب الحقيقي، ولكنني أردت في الواقع استجلاء (اقتباسات) معينة.

لم يحالفني الحظ تماماً حيث أن معظم تراث الروائية المغمورة قد تم تدميره عمداً.. إلى أن اهتديت إلى قصةٍ مبكرة كنت قد نسيتها من إحدى مجموعاته القصصية الأولى عن علاقة ابنةٍ بأبيها.

كانت الابنة جميلة العينين قمرية الوجه دائمة الضحك والهزر، ولكنها فارغةٌ تماماً من الداخل كقشرة صدفة.. لا مشاعر إنسانية البتة.. لا حب أو تعاطف ولا حتى كراهية.. حقلٌ أجرد من اللامبالاة بالعالم والآخرين وحتى بالنفس.. تماماً كما تنشغل القطة المدللة بلحس فرائها فتضيق عينيها إلى درجة الإغلاق..

ثم تتذكر الابنة والدها الثري ذي العينين الزرقاوين الفولاذيتين قصيرتي النظر وجلده اشلاحب البارد ذي الأوردة الزرقاء والذي عجز عن إظهار الحب تجاه ابنته وأهملها تماماً.. لا عناق ولا مناقشات ولا حتى خلافات.. كانت غير مرئية.. جلست الابنة الباكية بجانب النافذة تتذكر وتحاول عبثاً تفسير سبب فشل علاقاتها واحدةً تلو الأخرى وتعزو ذلك إلى نشأتها..

لقد اعتمد صاحب الرواية الناقصة إذاً على تجارب زوجته وحياتها في أدبه.. هنا رأيت نفسي أسرع باتجاه المقهى ذاته والمنضدة ذاتها لأعثر على الناقد (الحسيني) والذي بدا كأن الزمن نسيه هناك. وقد ذكرتني نظرته بنظرة السيد ربيع.. نظرة من كان ينتظرني ويتوقعني منذ دهر.. نظرة الفهم والتعاطف الأزلي المقرونة بابتسامةٍ ساخرة.. لقد أصابتنا جميعاً لعنة الراحل:

– يبدو أن بحثك قد ارتطم ثانيةً بذلك الحائط ذاته.. وما بال الشعر المشعث وإطلاق اللحية؟..

ثم إنه انطلق رداً على سؤالي:

– بالطبع استفاد الروائي بغزارة من حياته الزوجية.. في الواقع فقد حكت رواياته الأولى بشكلٍ أو بآخر عن علاقتهما الشهيرة المضطربة.. كيف طاردها أعواماً ثم كيف خاب أمله بشدة.. لقد كتب عن حياة المشاهير ومحدثي النعمة والحفلات والأضواء وأسفارها الشهيرة وخلافاتها العاصفة.

لقد كانا أشهر زوجين في الوسط عقداً كاملاً.. الزوجان الوسيمان الذكيان الموهوبان صاحبا المقالب والثراء المفاجئ حتى أصبحت أخبارهما على لسان من يهتم.. لقد جسدا تحقق حلم كل ناشئ إذ أثمرت الموهبة في حالتهما مالاً وشهرة..

– إذاً فقد ظل السعدي تحت الأضواء خمسة عشر عاماً كاملة بفضل تلك الزيجة الشهيرة!

– وحتى دخلت زوجته المصح وبات هو مدمناً لم تفارقه الأضواء، وغفر له القراء كل زلاته.. وحتى حين ترمل بات أشهر أرملٍ في الأوساط الأدبية. وما زلت أذكر كل المقابلات التي أولى بها عن حزنه وفقده حتى إنه غال على

ما أعتقد في إطالة الذقن وإظهار الكآبة.. لقد نشر خبر ترمله في كل محطة وعلى صفحات كل مجلة حتى تأكدت من أنه كان يستمتع بالأضواء ويعتصر الدموع وكل قطرةٍ من الشهرة إلى الرمق الأخير.

انغمستُ عمداً في تلك الأيام في أخبار الماضي وقراءة الكتب كي أتجنب تحديات الحاضر التي باتت تسبب لي حالاً من الهياج والاضطراب.. كانت حبيبتي تقطن الآن عن بعد بضعة مباني مني وفي أحشائها طفل رجلٍ آخر.. كانت حبلى بفشلي وعجزي.

ثم أخبرني توفيق –رغم تحذيري له– بخبر طلبها للطلاق إذ لم تعتزم العودة إلى زوجها في الخليج..

كنت قد ايقنت حين رأيتها ثوانٍ معدواتٍ في الحارة أنني ضيعت فرحتي الوحيدة في السعادة.. أدركت إذ رأيت جسدها الحامل المكور والذي ازداد غرابةً عما مضى أنني لطخت حياتي وشوهتها.

رحت افكر جدياً في لقائها رغم فظاعة فكرة التودد لامرأةٍ متزوجة وأتخيل نفسي راكعاً عند قدميها باكياً ومعتذراً..

ثم أنهي نفسي بحزمٍ وأعتزم القبول بتعاستي الأبدية.. ذلك هو الثمن الباهظ الذي ينبغي أن أدفعه لقاء جبني وترددي وضعفي.. أنا الطريد والملعون إلى الأبد..

{{اليوم اقتربتُ منه غاضبةً وبيدي إحدى مجموعاته القصصية، وبالكاد أمسكت نفسي عن الانفجار، وأخذت أقرأ عليه بصوتٍ مكبوت: (كانت تغير أحذيتها ومزاجها طيلة اليوم على وقع حركة الغيوم وتبدل الطقس وهبوب الريح.. تضحك ضحكتها الهستيرية الفاقعة ملقيةً براسها إلى الوراء فاغرةً فاها

لتبدو كإحدى عابدات باخوس المهووسات أثناء الطقس الدموي.. كذلك تبدل أوشحتها الملونة وقبعاتها ومظلاتها ونظاراتها الشمسية –حتى ليلاً– بتواترٍ سريع يبعث على الدوار والصداع.

ثم إنها توصلت بعلاقاتها إلى حجز معرضٍ لعرض لوحاتها الطفولية الفاشلة ارتمت على جدرانه لوحاتها العملاقة وعلى فراغاتها تناثرت مجموعةٌ من المربعات والدوائر الملونة والخطوط المائلة والتي وقف أمامها النظارة حائرين عاجزين عن التعليق.. حدحتهم بنظرات تهديدٍ كالصقر حتى يبدوا إعجابهم، وأما من يمتعض أو يبدي حيرة وذهولاً ترميه بنظرة احتقار وتقذف به أتون لعنتها الأزلية وتنبذه تجاهلٍ منحط أو حاسدٍ لئيم..

ويحيرني البحث عن السبب الذي من أجله تجاهد بعض النسوة عديمات الموهبة ضامرات الدماغ للظهور بظهر العارف الفيلسوف العالم الموهوب.. أي نفعٍ يجنينه من لعب هذا الدور؟ أهي ريشة طاووسٍ أخرى ملونة يعلقنها فوق الرأس الجميلة؟ أو طلاءٌ كثيفٌ لا للوجه وإنما للروح المهزوزة الضحلة تئن تحت وطأة الشعور بالنقص؟)

– لا أفهم جدوى قراءة صفحاتٍ كاملة من قصتي على أسماع كاتبها بالذات؟..

– بل تفهم تماماً.. لقد بلغ الزبن.. لقد بذلت أقصى جهدك للتعريض بي والسخرية مني.. كيف توهمت أنني لا أتعرف على دأي في أنثاك الضحكة الفاقعة المزينة بالرئيس والتي لا تفتأ تظهر في كتبك.. إن كان هذا رأيك بي فلم لا تحتفظ به لنفسك أولاً ولن تزوجتني ثانياً؟.. ولماذا تجد لذةً ونشوةً في إذلالي أمام الناس وإبلاغهم رأيك في أولاً بأول؟..

كنت أصيح وأملأ الدنيا غضباً وبصاقاً.. وقد استغرق ذوانٍ تمالك فيها نفسها ثم أجابني ببرودٍ وجفاء:

– وما المانع في أن أستلهم فيكِ عدة شخوص لرواياتي بتلوناتك وتقلبات مزاجك؟..

– ولكنك لا تستلهم؟ أنت تزيف وتطغي وتكذب وتسخر.. أنت من أحط الناس الذين عرفتهم في حياتي.. لماذا يقلقك ويتعسك أنك تزوجت امرأةً أذكى وأجمل واثرى منك بمراحل؟ امرأةً يفزعك خيالها وعقلها ونظراتها من تفتأ تطعن بروحها الهائمة ويطاردك خيالها كالظل الطويل أو الشبح؟..

نظر ناحيتي قلقاً وقد طغت كرامته.. ثم إنه أجابني بتحفظٍ وقد ضيق عينيه:

– ليس استلهاماً.. أنا أنقل الواقع بكل حذافيره.. أنتِ تلك المرأة تماماً وفي الواقع أنتِ مزيجٌ من عشرة أشخاصٍ في جسد إنسان.. أنا لم أتزوج امرأةً بل قبيلةً كاملة.. وأما عن موهبتك وعقلكٍ فلا تعليق.. تعلقي بهذه الأوهام ما شئتِ إن كانت تدعك..

كنتُ في تلك اللحظة قادرةً على إيذائه فعلاً، ولكن ما نفع أن أرميه بتمثال أو أجري وراءه بسكين؟ مضيت قائلةً:

– سترى ما ستفعل التافهة الضحكة، ولتترك الناس يحكمون.. ثم نسينا تلك المحادثة النيرانية وغابت تحت جبلٍ من المشاكل الأخرى ومشاغل الحياة وحتى ذكرته بها يوماً..

مشيت نحوه بالطريقة ذاتها.. بالحماس والخطوات الواسعة المتسارعة حاملةً المرة مجلة (عالم الأدب):

– لقد نشرت المجلة إحدى قصصي.. أخيراً تعرفوا على موهبتي خلف القناع والمساحيق..

لم ينظر إلى وجهي بالمرة.. قلب شفتيه ونظر جافياً وهو يمسك بالمجلة كأنها قاذورة:

– أعرف هذه القصة.. غريب حقاً أنهم قبلوها!

– غريبٌ أنك لم تتعرف على موهبتي؟.. ربما امتلكوا ذائقةً أدبيةً حقيقية لم تمتلكها أو أنك ضيعتها في غمرة نسخك لحياتي وسرقتك لكل ما أقول وما أقصه عليك..

تصنع ضحكةً مريرةً:

– لا أعلم ما فعلتِ حتى اقنعتهم بنشر هذه الخطيئة!! ولكن أياً كان ما عملته فهو ليس موهبةً أو أدباً ولا أعرف ما أسميه.. علاقاتٌ عامة؟ رشوةً مادية أو توصيةٌ من مسؤول؟ أو حتى استعمال الوجه الجميل والضحكة الجذابة..

ابتسمتُ في هدوء المنتصر وثقته:

– لن يكون في مقدورك بعد اليوم أن تهز ثقتي بنفسي.. هذه القصة المطبوعة إعلانٌ لموهبتي وتمثالٌ لثقتي بنفسي وكبريائي كل ما سيمكنك فعله هو التسلل ليلاً حين تعضك الغيرة وبيدك معول لا تعلم كيف ستستعمله لتسترق النظر إلى كتاباتي.. في الصورة القادمة لنا ستضع يدك على كتفي بدل أن أضع يدي على كتفك.. سأكون في مركز الصورة، وستسطع فيها ضحكة وأسناني البيضاء كالشمس الصغيرة..

حدق بوجهي طويلاً وهو يبتسم ساخراً ثم ردد بحقد:

– الكبرياء هي بداية السقوط، تذكري ذلك جيداً.. في غروركِ البائس هذا بداية نهايتك.. اعذاركِ المجلجل كحصوةٍ صغيرة نحو الهاوية تملأ الدنيا ضجيجاً..

أذكر تماماً كيف ارتعدت من لهجته الحاقدة وحروفه الواثقة كمن يقرأ المستقبل.. وأذكر كيف بعثت كلماته في جسدي ارتداداتٍ دائرية على سطح الل..

لقد عشتُ تحت سقفٍ واحد مع رجلٍ ذي رسالةٍ وحيدة في الحياة.. تدميري!}}.

* * *

- 25 -

من أصدق يا إلهي! روايته الناقصة أم روايتها الناقصة؟ إحدى الروايتين كاذبةٌ ولا شك!

هذه سطور امرأةٍ تنزف على الورق كلماتٍ مكتوبةً دماً ومعاناة.. على كل وريقة ممزقة ألمح خيال أنثى مصلوبةً عنوةً، منحورةً من الوريد إلى الوريد ولا يمكن إلا أن تحركني..

لكنني أذكر في الآن ذاته مخطوطه الناقصة الأثير إلى قلبي، به يصف كيف تحولت قصة الحب العظيم إلى مأساة، وكيف تحول الشاب العاشق النهم إلى الحياة الموهوب موهبةً نادرة إلى مدمنٍ محطم القلب مهزومٍ داخلياً فاشلٍ في الحياة والزواج. كنتُ قد رفضت بإصرار تصديق أي انتقادٍ لمعبودي، الذي غيرت كتاباته حياتي وتغذيت عليها منذ الطفولة، لكن اتصالاً مفاجئاً أكد أسوأ مخاوفي..

كانت رئيسة الممرضات.. عرفتُها من الصوت الطفولي الصبياني بعبراته المتكلفة المفرطة في اللباقة والهوائي أحياناً.. اليوم بدا الصوت متلهفاً لاهثاً على غير العادة:

- المعذرة! لقد أضعتُ رقمك لفترة.. لقد اتصل بي الدكتور بدر الدين بعد لقائنا الأخير بأيامٍ معدودات ليطلب من دفع بعض فواتير المصح المتأخرة، وهو على فكرة لا يتصل إلا لقضاء مصالحه وينسى حتى أن يقول شكراً.

وقد انتهزتُ الفرصة لسؤاله عن خالتك إذ كانت محادثتنا غصة في ذهني، وتذكرها بالطبع دون عناء لشهرتها..

كعادتها لا تصمت إلا حين تقاطع.. سألتها متلهفاً:

– وماذا أخبركِ عن السعدي؟..

– لقد دعاه بالوغد –أرجو المعذرة– الدكتور لا يحب أبداً زوج خالتك، الذي لطالما حقد لسببٍ مجهول على زوجته.. وقد وصف لي لقاءهما الأخير المريب.. لقد جلس الأديب منفرداً ساعاتٍ طويلة بأوراق خالتك المحفوظة في الأرشيف.. راح يقرأ بنهمٍ وعلى وجهه معالم الخطورة مسجلاً الملاحظات في تأني وفي النهاية رآه الطبيب يمزق الأوراق شر تمزيق.. بعنفٍ وحقدٍ ملحوظين دون أي تبجيل مع أنه لم يكن مضطراً لذلك إذ أمكنه أخذها والتصرف بها لاحقاً.. لقد خشي على ما يبدو من أمر ما.. أعتذر من ثرثرتي.. أنت ما زلت على الخط أليس كذلك؟..

لكنها سمعت صوت تنهدي العميق ثم أجبتُ أخيراً:

– نعم أنا هنا.. أنا غارقاً في تفكيرٍ عميق، ولا أعرف بم أجيب.. هل كانت قد ماتت أم ليس بعد؟..

– كلا.. ولهذا بغضه الطبيب بالذات.. لقد حُفظت أوراقها في الأرشيف بعد فترة تدهورٍ طويلة، وا أن شارفت على التحسن قليلاً بفضل الإبر العضلية حتى ظهر زوج خالتك مطالب بتخريجها فورياً.. وقد رفض بعنادٍ رجاء الأطباء ومحاولاتهم، ولم يعد بها ثانيةً ابداً.. لم يفهم الطاقم الطبي ما حدث، كأن أمراً جللاً وقع في حياته لم يشأ أن يصارحنا بها.. وقد توقع الأطباء أنه موشكٌ على هجرةٍ مفاجئة ولكنهم علموا لاحقاً أنه لم يسافر البتة..

– وإذاً ماذا حل بها؟ وهل ماتت في منزلها أم في مصحٍ آخر؟..

– الغريب أنك تسألني أنا عن أخبار خالتك بالذات، ما أدراني أنا؟..

– إنه هو مزق المخطوطات كيف إذاً حصلتم على هذه الأوراق التي بين يدي؟..

– لقد اتضح أن مجموع ما مزقه يزيد عن الألف صفحة! أكثر من عشرة كتب، ولكثرته عجز عن تدمير كل شيء أو أنه لم يرمي جميع المزق في القمامة لامتلاء السلة.. ولكن هل والدتك أختها على قيد الحياة؟ إن بإمكانها قانوناً البحث عن بعض التفاصيل إذ ليس ثمة في الموت أية أسرار..

بدا لي من ثرثرتها أنها قد غدت فضوليةً أكثر من اللازم بشأن موضوع الراحلة، وكذلك بشأن علاقتي أنا بها إذ لفحتني نغمة الشك من أسئلتها.. كنتُ في ذلك الوقت قد فقدت اهتمامي بحديثها بعد أن نزلت أنباؤها الأولى على رأسي كالصاعقة.. جلستُ صامتاً دون أن أجيبها زمناً، ثم تمتمت في كسل منهياً المكالمة:

– كلا.. والدتي ليست على قيد الحياة..

جلستُ بلا حراك ساعةً كاملة وقد فقدتُ إيماني في كل شيء.. صدمتُ طويلاً بمجموعة كتبه الكبيرة على الأرفف وقد انقشه الوهم أخيراً واتضحت لي الصورة.. أنا أجهل فعلاً في كتب من أتأمل.. مجموعةٌ كبيرةٌ من الكتاب ربما تعاونوا على إخراجها للعالم أم مزيجٌ من أدب الزوجين اللدودين؟..

ثم عدت في حينه لقراءة السطور النازفة:

{{قيل أن السر وراء الزواج الناجح هو الوقوع المتكرر في غرام الشريك ذاته إذ تتكرر شهور العسل واكتشاف الخصال الحميدة والمزايا الشخصية بشكلٍ

يومي وهكذا تمتد الحياة الزوجية.. علينا إذاً تعلم حب الشريك مراتٍ متعددة، وقد حاولتُ مراراً وبشكلٍ واعي تطبيق هذا الدرس لكنني اصطدمتُ بجدرانٍ عالية يستحيل النفاذ عبرها وفشلت محاولاتي فشلاً ذريعاً.. وهكذا اضحت قصة غرامنا ومضةً من عمر الزمن.. حدثت مرةً واحدها ثم نسيناها لفرط سرعتها وعبورها الخاطف..

كنت أصطدم يوماً بالرجل الوسيم الطموح القوي خارجياً ولكن المهزوز عديم الثقة بالنفس من الداخل دائم المناورة والمراوغة والذي تستحيل قراءة أفكاره وفي آنٍ معاً شديد الغيرة عاشق السيطرة.. لقد عجزتُ عن الإعجاب بهذه الخصال رغم محاولاتي.. اليوم فقط اكتشفت أن زوجي قد اتصل بالمجلة الأدبية التي نشرت قصتي وسألهم إن كانوا عازمين على شنر المزيد من قصصي!!

كنتُ قد لاحظت أنه قد نشر قصةً فيها بعدي مباشرةً وهذه سابقة.. وحين زرتهم لأعمل على النشر عندهم فهمت أنه قد أعطاهم خمس قصصٍ لنشرها مجاناً وتباعاً!.. وهناك شكروني من قلبهم إذ اعتقدوا أنه لي يداً من كرمه المفاجئ.. كان واضحاً أنه يغمرهم بفائضٍ من أعماله ليغضوا النظر عنيّ ومن يعلم ما دار هناك خلف الكواليس؟..

لقد أفزعتني تلك الأساليب الملتوية المستبطنة وثبت في صدري الخوف إذ شعرتُ فجأةً أن العالم بأسره يتآمر علي..

تلك المحاولات المستميتة من قبل زوجي والناشرين لدفعي إلى الظل لم تكن مفهومةً لدي، بل خلقت عندي هياجاً والتباساً إذ لم أعرف كيف أشعر ولا متى أغضب.. شعورٌ واحد طاردني مراراً.. إحساس المرء حين يشعر بأنه

يُطمس رويداً رويداً.. أكوام التراب يلقيها الجميع فوق رأس وأنا أعجز بالتدريج عن التنفس وأرغب دوماً في الزعيق والزئير..

رغبته المستمرة في التنافس لا تكل، حتى بحضور الأصدقاء.. التنافس على الخطوة والبروز الاجتماعي، أو حتى إلقاء النكات وتصدر الحديث..

أنا أشعر فجأةً بأن روايته الرسمية تغدو بالتدريج أكثر تصديقاً، وأن الناس باتوا يأخذون جانبه ويؤمنون بكلامه عني ويعاملونني كطفلةٍ أو حتى كمهزوزة.. لقد ألغيتُ نفسي مدفوعةً دفعاً إلى الإمساك بالقلم وتسطير عددٍ هائلٍ من الصفحات هستيرياً للدفاع عن النفس.. غدا قلمي سيفاً والسطور مرافعة دفاع.. إن عليّ أن أقص على الناس جانبي من الحقائق وأخلد نسختي من التاريخ إذ علمت أن المنتصر يكتب عادةً التاريخ..

سألتني رباب ببراءةٍ دون تفكير:

– هل ستنشر (عالم الأدب) لكِ مزيداً من القصص إذاً طالما أن زوجك يتصدر أعدادهم كل شهر؟ هذه فرصةٌ عليكِ اغتنامها..

نظرت إليها في هلعٍ وقد أفزعتني طريقة تفكيرها، ثم حاولتُ أن أجيب بهدوءٍ رغم اضطرابي الداخلي.

– في الواقع لقد نشرت لي (عالم الأدب) قبل أن تنشر لزوجي حرفاً واحداً..

لا أعتقد أنها صدقتني.. نظرت عيناها السوداوان تحت الغرة الكثيفة باتجاهي في حيرة وابتسمت لي في مزيجٍ من الرثاء والازدراء.. وربما تساءلت في سرها عن سبب (غيرتي العمياء) من نجاحات زوجي! وددت أن أصرخ

وأهزها قائلة: (العكس هو الصحيح.. العكس تماماً.. أرجوكِ أن لا تكوني ساذجة كالآخرين).

ثم إن الأمور قد تطورت إلى نقطة اللا عودة إثر حادثةٍ بغيضةٍ وقعت لي.. كنت قد عزمتُ على كتابة روايةٍ عن حياتي الزوجية، وانغمستُ فيها كوسيلةٍ للدفاع عن النفس.. لكنها للأسف اختفت!.. هكذا وبكل بساطة اختفت دون أثر، ومن منتصفها إذ لم تسنح لي فرصة بلوغ ذروتها..

بحثت كالمجنونة عن المخطوط في كل مكان وحتى في الحديقة، واتصلت بجميع الصدقاء علهم رأوها مع علمي بأنها لم تغادر المنزل، ولم أتلقى منهم سوى عبارات الرثاء والتعاطف الأجوف..

رحت أدور في المنزل وحدي هائجةً كاللبوة الجريحة تدافع عن أشبالها.. أمشي بخطا واسعةٍ مترنحة من جدارٍ إلى الآخر وأنا أتكلم بصوتٍ عالٍ:

– لقد أخذوها مني.. سرقوها.. الكل مشتركون في المؤامرة.. إنهم يتخذون جانبه.. جانبه وحده..

حين أطل وجهه الشمعي المقيت حاملاً معالم الذنب انقضضت عليه دون تفكير وأنشبتُ أظافري في وجهه..

لا أذكر كثيراً مما دار في تلك الواقعة.. لقد فقدتُ بعدها تذكري لأغلب ما دار شهوراً طويلة بسبب الأدوية لكنني أذكر بوضوحٍ صوتي الجريح المبحوح وأنا أصيح (كلكم مشتركون.. الناس يطاردونني ويسرقون حاجياتي لدفعي إلى الجنون.. أيها النذل المتآمر}}.

* * *

- 26 -

كيف يمكن دفع امرئٍ دفعاً إلى هاوية الجنون؟.. لم أتخيل ذلك ممكناً إلا بعد أن قرأت الوريقات الممزقة.. ولِمَ يكلم إنسانٌ نفسه؟.. ربما لأنه لَمْ يقبل سوى أجوبة ذاته ولأن العالم حوله قد خذله وأغرقه في صمتٍ عميق.. كذلك يتوهم المرء أنه مطاردٌ ومراقب.. لأن الكل خانوه وطعنوه!.

ألهذا يخشى المرء أحياناً من خياله ومن صدى همساته؟ ولكن في الجنون وحده يعثر المرء على الهدوء الداخلي وتتفجر طاقاته دون عوائق.. لذلك ربما كتبت الراحلة أحلى سطورها في المصح.. لقد تحررت أخيراً في سجنها..

كنتُ غارقاً في الكآبة المفرطة وأنا أقرأ الكلمات المكتوبة بخط يد امرأةٍ مجنونةٍ ميتة ورائحتها وصوتها وهمسها ما زالت تنبعث من بقايا الصفحات.. لكن كان علي أن استقبل مستأجراً محتملاً للغرفة الإضافية في شقتي إذ ما عدت قادراً على دفع الأجرة بنفسي.. وهكذا انتزعت نفسي من أوهامي وأحزاني وفتحت الباب لأرى المستأجر الذي أرسله توفيق..

على الباب وقعت الصدمة التي شلت لساني.. هناك رأيتها.. نهال ببطنها المتورمة توشك على الوضع وقد اصفر وجهها بشكلٍ ملفت.. حين رأتني اتسعت عيناها أكثر لتبدو كمخلوقٍ خرافي، وفتحت فمها دون أن تكون قادرةً على التنفس.. وضعت يداً على بطنها بينما أسرعت اليد الأخرى لا شعورياً لتنسق شعرها الأشعث المربوط.. هَمَست:

– لا أفهم.. ماذا تفعل هنا؟..

غدوت آنذاك أشد شحوباً منها وقد كاد قلبي يتوقف ولكن كان علي أن أتمالك نفسي إذ أخذت نهاك تتململ موشكة على الرحيل وقد غمرها الانزعاج والصدمة والشعور بالخيانة.. وردت يدي وجذبتها للداخل قائلاً:

– أنا لا أفهم أيضاً، ولكن أرجوكِ ارتاحي من عناء الصعود فأنتِ على ما يبدو حاملٌ في الأشهر الأخيرة..

عانَدَت قليلاً ثم قالت وهي تدخل:

– ثمة لعبةٌ ما.. مقلبٌ سخيف أو ربما صدفةٌ عجيبة.. لم أعرف أنك غيرت الشقة..

اختفت الكلمات في حلقي وأنا أراقبها تجلس بصعوبة ثم همست مرغماً:

– لقد فعلها توفيق ثانيةً إذ أغفل عمداً هوية المستأجر..

ثم إنني انفجرت من حيث لا أدري في بكاءٍ مرير حين جلستُ إلى جانبها.. وقتٌ طويل أبكي دون أن أعرف راحةً أو عزاءً.. أتوقف ثم أعود للنحيب حتى فاجأت نفسي وفاجاتها.. لم أكن قادراً على الكلام وقد اختلطت داخلي مشاعر الصدمة والحب مع الفقد المرير والشعور بالذنب.. راحت تنظر لي مذهولةً وقد بدت أجمل مما رأيتها في حياتي.. جلدها شديد النعومة وساقاها غضتان سمينتان ووجهها القمري مربوط الشعر يبدو بيضاوياً بشكل كامل.. تماماً كسمكةٍ ملساء بعينين رائعتين.. أخيراً قالت وهي تمسك بذراعي:

– كان على توفيق تحذيري.. أنا لم أصفف شعري للقائك وحتى لم أجد وقتاً لغسل وجهي.. اللعين.. فلتتوقف يا عزيزي.. أنا لم أرك هكذا في حياتي.. ماذا دهاك؟.. أنا من يجب أن تبكي..

– لا أعرف ما أقول.. ما أسعدني إذ أجلس بجوارك وقد اشتقت لكِ كثيراً.. كان علي أن أرى حنينكِ من رجلٍ غيري حتى أدرك ما ضاع مني..

– ... وكيف حالك؟..

– ما زلتُ فاشلاً كما عهتيني دائماً.. لم ولن أنشر شيئاً رغم محاولاتي المستميتة.. العالم لا يريد أن يسمعني..

– نعم.. لا يمكن تغيير مسار القدر بسهولة.. الفشل الذريع كذلك يصيبني.. أو يصيبنا..

(قالت ذلك وربتت على بطنها متحسرة)

– مع ذلك أرى الرضا يشع من عينيكِ، ووجهكِ أجمل وأنقى من ذي قبل..

– قطعاً.. إذ سأغدو أماً!

سكتُ وعضضت شفتي السفلى ثم أطلقتُ صوتاً كالفحيح:

– حين ينتهي كل شيءً وتتمردين.. يمكن أن نتزوج.. لقد ارتكبتُ خطيئةً عظمى..

ابتسمت بمرارةٍ قائلةً:

– ولكن ماذا تغير يا عزيزي؟ أنا بمشاكلي وأعبائي وقد ازدادت واحداً، وأنت كما أرى دون دخلٍ ثابت واشد ضياعاً روحياً.. لستُ واثقةً من نجاتي من الولادة إذ تعترض حملي بعض المصاعب.. والآن علي أن أنهض لأرى الشقة التالية (الحقيقية) إذ ينبغي أن أعثر على مكانٍ ما قبل بداية الشهر..

قالت ذلك وجاهدت للنهوض.. كانت فيما أرى قد أصبحت عمليةً جداً وأقل سوداويةً رغم متاعبها.. حين مضت بعيداً فكرت في كلماتها.. لقد رفضتني ببساطةٍ ودون أدنى صعوبة كما نهز يدنا بعفوية لإبعاد بائعٍ متجول.. حين اتصلت بتوفيق أخيراً قلن بغضب:

– اليوم أوشك قلبي على التوقف بسببك.. هل يسرك ذلك الاعتراف؟ أسأل سؤالاً يحيرني.. لم لا تنشغل بشؤونك الخاصة؟..

{{لا أعلم كم مضى من الوقت هنا.. لقد مضيتُ وقتاً طويلاً جداً نائمةً أو تحت تأثير المخدرات والأدوية المختلفة.. الوقت في المصح رماديٌ غائم الملامح ثقيل يجثم على الصدر كجروحي غير مرئي.. كم مضى وكم تبقى؟.. السؤال العنيد ذاته ما يفتأ يعيد نفسه كالصدى.. أخيراً أتخذ جلستي المفضلة على الكرسي الكبير بجانب نافذة الردهة العلوية.. كانت تأثيرات الأدوية قد تراجعت قليلاً فاستطعت الانتصاب بجذعي بعد أن عجزت لشعور عن رفع رأسي فوق الوسادة.. ورغم قوتي المفاجئة مازلت أعاني من صداعٍ وثقلٍ كبير داخل رأسي..

ما أقبح هذا المكان!! ما كل هذه النوافذ المغلقة سميكة الزجاج بلا ستائر تطل على العالم الخارجي البعيد دون إمكانيةٍ للمس أو شمه أو لإحساس يلفح هوائه حتى بدا لي ذلك العالم وهماً أو سراباً..

الردهات الطويل الصامتة تتمادى رماديةً سابحةً في نور النهار الفضي، لا يقطعها أحياناً إلا المرور السريع لممرضة أو المتثاقل لمريضةٍ بخفين ولباس النوم..

لا أفتأ أتساءل عن مغزى وجودي هنا دون العثور على أجوبةٍ شافية، ولكن في أوقاتٍ أخرى أخشى ذلك العالم الخارجي الطافح بالمتآمرين والعيون المختبئة خلف الجدران والألسنة الخبيثة لا تتوقف عن الطعن لحظة واحدة.

ثم أسأل الممرضة عما جرى لي في الخارج فتجيبني بعباراتٍ غامضة لا تمت لسؤالي بصلة دون النظر في وجهي مباشرةً، كمن يتحاشى أسئلة الأطفال المحرجة.. إنها لا تخبرني حتى عن نوع الحبوب الكثيرة التي أتناولها طيلة الصباح والمساء، فإما أنها جاهلة أو غير مخولةٍ بالإجابة.. وأما الطبيب فيحدثني في أوقاتٍ متباعدة بالصوت ذاته الذي نكلم به الأطفال، ويبتسم دون سبب واضح..

– أما زلتِ تشعرين بعيون الناس تراقبك؟ أو تأخذ صورك؟ هل تخشين الملاحقة؟ (يسأل)

كم أتمنى صفعه! عادةً لا أجيب، وأحياناً أقول:

– العيون لا تراقبني، فأنا لست مجنونة! ولكن أتنكر أن المؤامرات ضد الإنسان لا تتوقف؟ هذا العالم شريرٌ بطريقةٍ لا توصف.. إنه أشبه بالغابة، والناس فيه أعداءٌ طبيعيون كوحوش.

لكنه لا يتوقف عن الابتسام، ويسأل دون أن يبدو عليه أنه سمع كلمةً مما قلت:

– وماذا تكتبين اليوم؟..

– تلك مهنتي! أخبرتك مراراً أنني أديبة.. لقد بدأت روايةً جديدة بدل المسروقة..

البارحة زارني زوجي.. جلس على الكرسي المقابل مطأطئاً رأسه وراح يثرثر بصوتٍ منخفض:

– أشد ما يحزنني أنني بتُّ مضطراً لكتابة سيناريو لفيلم عوضاً عن الأدب، ولإنجاز عددٍ من المشاهد يومياً.. كالآلة تماماً وإلا!..

إنه يشتكي! ولمن؟! لي أنا.. من الوحدة يشتكي! كاذباً طبعاً.. ومن ضغط العمل.. لكنني أعلق فجأةً شاردة البال:

– رائحتك فظيعة! فلتأخذ حماماً.. السجائر والبيرة وماذا أيضاً من يعلم؟..

لم أشأ أن أخبره بما رأيت من مقعدي السري بجانب نافذة الردهة العلوية.. لقد لمحتها لأول مرة.. السيدة الشقراء المصبوغة كدمية تجلس بجانبه في المقعد الأمامي وتتصرف على راحتها تماماً.. لابد أنها تدخن الآن في مللٍ وشرود وهي تنتظر أن يقوم زوجي بقضاء الواجب الثقيل.. رحت أفكر في لا جدوى المواجهة، ثم قلتً وأنا أمسح رأسي بيدٍ مرتجفة:

– الصداع يعاودني.. ينبغي أن أعود إلى سرير..

ألمح معالم الارتياح على وجهي.. ترى أين اختفى فجأةً ذلك الحب! وماذا بعد؟.. هل سيخطط لقتلي حين أعود إلى المنزل؟

لا عجب إذاً أنني اخترت عرشي على ذلك المقعد الأثير أراقب مرور العالم البطيء وزحف الوقت الثقيل وحركة الشمس، وفي آنٍ معاً تحميني النافذة الكبرى من الأذى والشرور.. هذا العالم المليء بالأوغاد مكانٌ خطيرٌ جداً لكنه يبدو وراء الزجاج وهمياً وبعيداً.. أنا هنا في أمانٍ مطلق رغم عدم ثقتي بالممرضات أو الطبيب.

ثم إن الدمية مصبوغة الوجه باتت أشد استرخاءً وأكثر تطلباً.. في المرة التالية جلس الاثنان في المقعد الأمامي للسيارة زمناً طويلاً يتجادلان خارج المصح.. حين أوشك على الهبوط هَمَسَتْ في أذنه بشيءً واضعةً يدها على كتفه البعيدة.. هل رأيتُ قبلة؟.. كانت الحركة الخاطفة أسرع من عيني!

أنا الآن أشعر بالكراهية للعالم والاشمئزاز الشديد من كل شيء.. إن هي إلا دقائق ويدخل علي بوجهه الشمعي الكريه كالقناع.. يجلس أمامي مطأطئ الرأس ثانيةً ليتحدث عن الوحدة!

أدق الأرض بقدمي في غضب.. ويجتاحني شعورٌ بالكبرياء الجريحة، وأسمع ثانيةً في داخلي زئير تلك اللبوة.. رفضتُ الرد على تحيته والتزمت الصمت زمناً ثم قلت أخيراً:

– الآن أميز تلك الرائحة الثالثة إلى جانب البيرة والسجائر.. إنه عطر امرأة..

يتجمد وجهه في تعبيرٍ غريب لوهلة يتوقف خلالها عن التنفس..

ثم إنني أسكب على وجهه كأس الماء صائحةً في هياج:

– أخرج من هنا أيها الوغد الخائن.. كم مرة أمرتك أن لا تعود إلى هنا؟ أيها الدودة..

رأيته يخرج وقد ابتلت ملابسه تماماً وممرضان قادمتان نحوي بإبرةٍ في اليد.. لقد آن الأوان لانتكاسةٍ جديدة}}.

* * *

- 27 -

اليوم تلقيتُ اتصالين هاتفيين مفاجئين هزاني من الأعماق.. في اللحظة التي اعتقدتُ فيها أن الحكاية بلغت ذروتها وأن الرواية الناقصة ستبقى إلى ألبد ناقصة، وأن لا شيء البتة سيقع من الآن فصاعداً..

كان الاتصال الأول من رئيسة الممرضات.. عاجلتُها بالسؤال:

- هل ثمة أنباءٌ جديدة؟ هل عثرتم على أوراق أخرى؟

بلغني صمتها الثقيل وصوت تنفسها على الخط، ثم إنها أجابت:

- الأنباء ستكون منك وعنك..

- لا أفهم..

- لقد اتصلتُ بإحدى الممرضات المتقاعدات، وقد أخبرتني أن المرحومة كانت وحيدةً تماماً في العالم، وكان ذلك سر تعاطف الأغلبية معها ضد الزوج الشهير والقوي..

- نعم..

- وإذا لم تكن لها شقيقة، وأنت لست ابن تلك الشقيقة المزعومة..

لم اقوى على الجواب سوى السعال والتمتمة عبر الهاتف..

- لقد دخلت إلى منزلي تحت حججٍ واهية وأكاذيب بلا سند! وذلك يثير بداخلي الاشمئزاز والرعب.. من أنت يا هذا ماذا تريد؟

بعد تفكير أجبتُ بحذر:

– الراحلة لم تكن خالتي وإنما صديقةٌ لوالدتي، أي بمثابة الخالة..

– أنت تواصل الكذب! أكاد أشم رائحة الخداع عبر الأسلاك..

– تلك كانت إجابتي، ولكِ مطلق الحرية في تصديقي أو تكذيبي..

– بل أنت مهووسٌ من نوعٍ غريب.. تكذب دون توقفٍ ولا حياء وكأنك تدافع عن قضيةٍ سامية أو هدفٍ نبيل..

عضضتُ على شفتي مفكراً في استحالة أن تفهم هذه المرأة أو تصدق الرحلة التي مررتُ بها حتى بلغتُ هذه النقطة، ثم إنها أكملت مهتاجةً:

– أعلم أن من المستحيل الآن أن تعيد إليّ الأوراق التي استوليتَ عليها بالحيلة، وذلك يثير غضبي وخوفي منك..

– لا داعي للخوف!

– إذاً أطلب منك أن لا تعاود الاتصال بي ثانيةً أبداً، ولا بالطبيب إذ حذرته منك..

قالت ذلك وأنهت المكالمة فيما كان وجهي يتضرح بالحمرة والاضطراب.. رحتُ أفكر في هوان:

– إلى أين انحدرت؟ وكيف بلغت حياتي هذا الدرك؟ أنا العاطفي الثائر على الدوام..

وقبل أن اصحو من اضطرابي وحلم يقظني صدمتُ حين سمعتُ عبر المكالمة الثانية الصوت العريض للناشر السيد مروان:

– أعلم أنكَ لم تتوقع أن تسمع صوتي ثانيةً، خصوصاً بعد كل الشتائم التي بلغتك (منّا).. وفي الواقع فإن رأيي بك لم يتغير أبداً، ولكنني وجدتُ لزاماً علي أن ابلغك اكتشافاً مذهلاً توصلتُ إليه أثناء مراجعتي الأخيرة لرواية السعدي الناقصة..

– وما يكون ذلك الاكتشاف؟ ولمَ يتعين عليك إبلاغي أنا باستنتاجاتك؟

– لأنك الوحيد في العالم الذي تملك النسخة الأخرى لمخطوط الرواية الناقصة.. وذلك بالضبط هو اكتشافي.. الرواية الناقصة ليست ناقصة البتة.. لقد أنهاها الراحل على هيئة سؤالٍ محير بنهايةٍ مفتوحة، وكل ما في الأمر أن الدفتر الذي استعمله كان أكبر من حجم الرواية بكثير، فهي إذاً من جنس الروايات القصيرة ذات المئة صفحة (النوڤيلا)، وقد كتب منها الراحل في تلك الفترة الزمنية عدداً كبيراً إذ انشغل في ذلك الوقت لأسبابٍ اقتصادية بكتابة السيناريوهات والمقالات فكتب الروايات القصيرة في (أوقات فراغه).. لسببٍ مجهول يقرر أن لا ينشر هذه الرواية بالذات، ربما لموضوعها الحساس بالنسبة له وربما لأنها آلمته وعذبته بشدة.. وربما كان يأمل في أن يعرف يوماً نهاية المأساة يوماً ليخطها على الورق.. تلك الخاتمة التي لم تقع آنذاك، ولكنها كانت في الواقع موته بالذات..

رحت أفكر في رعب بما قاله غير قادرٍ على القبول أو النفي ثم أجبتُ بحذر:

– تلك تبقى بالتأكيد نظريةً قابلة للطعن، ولا يمكن إثباتها..

– ليست نظرية، إنها الواقع.. أعد قراءة الرواية.. كان خطأً فادحاً من البداية وفخاً أن ننظر للمخطوط على أنه ناقص.. من الرومانسية أن يترك

الأديب والرسام العبقري أعمالاً غير مكتملة ولكن السعدي بتركيزه ودقته وهدوئه شيءٌ آخر تماماً، وهو ليس ممن لا ينهون عملاً بدؤوه..

– سأعيد قراءتها، ولكن ذلك لا يهم الآن.. ما يعنين أكثر من كونها ناقصة أنها في الواقع كاذبة وملأى بتزييف الواقع.. قصة العاشق التعيس المظلوم يدفعه حبه للإدمان على الشراب والمهدئات ليبق في الواقع أكذوبةٌ تفتقر إلى الحياء..

– أكذوبة!.. وما أدراك أنها كذلك؟ وما إثباتك؟..

لم أشأ آنذاك أن أكشف جميع أوراقي فقلت كي أغير مجرى الحديث:

– ذلك اعتقادي.. ولكن ينبغي أن أهنئك والسيد صباح على الأخبار السعيدة.. أتمنى لكما زيجةً موفقة..

– أشكرك.. الزفاف بعد أسبوعين تماماً يتلوه شهر العسل في اليونان.. ثم نعيش في البيت الكبير لمعبودك الراحل (راح يقهقه)..

– حذاري.. فهذا المنزل لم يشهد في تاريخه زيجةً سعيدةً واحدة، وفيه بالذات انتحرت حماة الروائي بتناول علبتين كاملتين من الحبوب المهدئة وفيه فقدت زوجته عقلها وفقد هو حياته..

قهقه الناشر قائلاً:

– تلك الخرافات لا تعنيني.. إنما أنا رجل علم، وقد اتصلتُ بك ضد قناعاتي كي أطوي إلى الأبد صفحة تلك الرواية المشؤومة وكل علامات الاستفهام حولها.. كذلك كُتِبَتْ وكذلك ستُنشر في غضون شهر.. بحجمها الأصلي غير ناقصةٍ سطراً واحداً.. فلتسعد بحياتك أيها الشاب.. وداعاً..

هكذا أنهى مكالمته فجأةً دون أن يكون مستنداً لسماع رأيي، فالرواية الآن تقبع في مطبعةٍ ما بين يدي المنضدين والعمال، وغداً تخرج إلى العلن نسخةٌ تعلن جريمة الراحلة التعسة وتعكس دوري المذنب والضحية..

ثم رحت أعين بنهم قراءة المخطوط والذي ينتهي بالسؤال (ترى كيف تكون النهاية؟ آهٍ لو أنني أدري).. بالألم القاصر والتساؤل الحائر تنتهي دون إجابةٍ عن السؤال.. نهايةٌ مفتوحةٌ تماماً.. رحت أنفي نظرية الناشر بإباء ذواقة ألأدب واعتدادهم.. لكنني وكلما أعدتُ قراءة الفصل الأخير زدت اقتناعاً بنظريته..

عليّ اليوم أن أكشف للعالم براءة المسكينة التي قضت بقية ايامها في المصح بسبب ذلك الحب اللعين ذاته.. ربما كان زوجها صحيةً لكنها لم تكن أبداً الجلاد، وينبغي للعالم أن يسمع وجهة نظرها وصيحاتها من العالم الآخر بعد أن نعتها الجميع بأبشع الألفاظ والأوصاف..

{{أنا موشكةٌ تماماً على الجنون..

أكاد أفقد عقلي في منزلي بالذات وبجانب الرجل الذي أحببت يوماً.. بعد خروجي من المصح اعتقدتُ أن القدر منحني فرصةً أخرى.. ولكنني مستمرةٌ في رؤية الوجوه الشاحبة على النوافذ والخيالات الغامضة تتراقص خلفي تراقبني وتتجسس عليّ.. أنا أنام، وفي أحضاني تنام آخر رواياتي، لكنني أقسم أنه يقرأها رغماً عني ولا أدري كيف.. إن في عباراته تلميحاتٍ غمضة تذكر بآخر فصلٍ كتبت.. حتى إنه ينشر تباعاً بعض أفكاري وتفاصيلٌ لم أذكرها أمامه البتة..

اليوم قدم لي كاساً من العصير، وكدتُ لحماقتي أتناوله.. لكنني رأيتُ على وجهه النظرة الزائفة الحائرة المذنبة ذاتها.. وبدل أن أتناول الشراب منه رميت الكوب من يده على الأرض قائلة:

– ألم أطلب منك التوقف عن تلك المحاولات؟.. أنا لن أتناول من يدك شيئاً أبداً..

يزم شفتيه في حزم دون أن يبدو عليه الانزعاج.. ثم يشرع في تنظيف قطع الزجاج المتناثرة دون كلمةٍ واحدة.. كان ولا شك يفكر بطريقةٍ أخرى يقتحم من خلالها حصوني..

وفي الحديقة والحي أقسم أنني أسمع أصوات خطواتٍ تلاحقني.. من أولئك وماذا يريدون مني بالضبط؟..

ثم إنه يكشر عن أسنانه الحادة كلما شاهدني منهمكةً في التأليف.. كانت مهنتي تزعجه وتعكر صفوه..

– أنتِ إذاً مصرةً على الكتابة؟.. لقد أوصى الطبيب بأن تريحي أعصابك من الضغط النفسي..

– يوماً ما سأفعل.. ولكن ليس قبل أن أعيد كتابة المخطوط الذي سرقته مني وأخفيته في مكانٍ ما.. ذاكرتي تعاندني لحسن حظك، ولكنني أستعيد بالتدريج ذكرى الفصول والسطور واحداً تلو الآخر.. إنها تتشكل رويداً رويداً على الصفحات رغماً عنك..

– ما عدتُ أفهم شيئاً.. لقد فقدتِ بالفعل عقلكِ ولا يمكن فعل شيءٍ لإصلاح ذلك..

ذلك هو الجحيم بعينه (فكرت).. أن يتمنى المرء ويرجو سراً العودة إلى المصح لأمرً في غاية البؤس، والذي يتساءل باستمرار إن كان سيصحو من منامه أو لا.. والذي ينظر دوماً خلف كتفه.. ما نهاية هذا العذاب؟..

كنتُ قد اعتقدت أنه سيتوقف عن رؤية تلك الأفعى بمجرد خروجي من المصح، لكن ذلك لم يحدث..

رغم كل محاولاته البائسة لإخفاء العلاقة ما زلت أشم رائحتها على ثيابه، وأسمع همساته على الهاتف في غرفة المكتب، وتصدمني اعتذاراته المذنبة لي واللاضرورية حين يتأخر عن البيت..

أتساءل مشمئزةً عما يراه فيها، إذ كنت بلا شك أجمل منها بمراحل، وكذلك أشد حقيقةً وأصالة.. أسأله مرةً بمرارة:

– هل كذبتَ علي إذاً حين زعمت يوماً أنك تكره الشقراوات؟ لقد منعتني بحماسٍ آنذاك من تغيير لون شعري وادعيت أنك تحب لونه البني الداكن!

تَوَقَفَ عن مضغ اللقمة واتسعت عيناه بشدة إذ لم أكن قد وجهتُ له كلمةً واحدة منذ أسابيع.. لذا فوجئ وصعقه سؤالي:

– عجيب.. ما الداعي الآن لهذا السؤال، ومن أي أرضٍ نَبَتَ؟

– مال الداعي؟ أهذه فكاهة؟.. إن شقراءك تجلس معنا على المائدة وتنام بيننا ورائحة عطرها تملأ هذا المكان..

– شقرائي! كفي عن هذا الهراء إذ ليس لديكِ دليلٌ واحد على صدق خيالاتك.. أخبرتكِ مراراً بأنني أكتب لها مسرحية.. تحت ضغط الحاجة طبعاً..

– توقف عن الكذب.. وكذلك تكتب للمسرح! متعدد المواهب فيما أرى! ومتى تنتهي تلك التحفة الأدبية؟ عامان ليسا كفاية؟ ولماذا يواظب الكاتب على لقاء الممثلة الصاعدة؟.. أسئلةٌ بائسة دون أجوبة!

هنا ينهض عن المائدة محمر الوجه إذ علم أنه لا يمكن أن ينتصر عليّ في أي جدال، ولكنه يسدد لكماته إليّ عملياً وعلى أرض الواقع. هنا لاحقته إلى المطبخ وأنا أصيح:

– لمَ لا تتزوجها؟ هيا تزوجها أرجوك.. ربما توقفتُ على الأقل عن احتقارك..

ثم ألاحقه لغاية الباب وأنا أصيح:

– أجلبها لغرفة السقيفة المظلمة مكان عرسكن، وبيت العناكب والفئران..

لا أعلم حقاً من منّا يجعل الآخر أشد تعاسةً.. هو أم أنا؟ لما أطارده هكذا؟ وبي رغبةٌ حارقة لا يمكن مقاومتها لفضحه وتعريته؟ ولكن كيف ومتى ينتهي هذا الجنون؟.. إن علي فعلاً أن أعود إلى المصح}}.

* * *

- 28 -

وسط عذاباتي كان أشد ما آلمني أن نهال تقيم الآن على بعد عدة حارات مني وقد أوشكت على الوضع! تنغمس في حياتيها الجديدة غير عابئةٍ بي ولا بمشاعري.. بالندم يشتعل داخل صدري وبشوقي المستحيل إليها.. لرائحة شعرها الأملس ولنفحات أنفاسها الحارة على وجهي..

بعد عدة محاولاتٍ خجولة وافقتْ على لقائي.. فتحت لي الباب رفيقتها في السكن الجديد..

- لا تعتقد أنني أهملك أو أحاول الإساءة إليك (اعتذرت) لكنني موشكةٌ على الوضع في أي يومٍ واي لحظةٍ كما ترى والخوف يشلني من القادم المجهول..

كانت بطنها شديدة الضخامة ورغم ادعائها بالذعر كان وجهها تام الهدوء والسكينة خالياً تماماً من الاضطراب..

- نعم.. أنتِ تفكرين الآن في المستقبل بينما ما زلت أنا أعيش على الماضي عاجزاً عن التخلي عنه.. النساء يفكرن دوماً في الغد.. على وجهك ترتسم ذات النظرة المستقبلية القلقة التي رأيتُ يوم زفافك..

- هل حضرتَ زفافي؟..

- لقد تسللت إلى الحفل لألقي عليكِ النظرة الأخيرة وسط الزهور.. يومها لم تبدَ عليكِ ملامح السعادة..

– النظرة الأخيرة! (ضحكت).. أنتَ محق.. الفرق الوحيدين الجنازة والزفاف أن المرء يحضر زفافه مفتوح العينين، ويشم بأنفه رائحة الزهور..

– لكنك لم تعلمي آنئذٍ النهاية المحتمة..

– ذلك لأننا نرفض بعنادٍ تصديق حدسنا، ونعجز عن قراءة العلامات الواضحة للفشل.. لقد رغبتُ آنذاك في الزواج بشدة، وأما الآن فأرى الزواج قفصاً يسعى من هو خارجه للدخول إليه ويسعى من بداخله للتحرر..

– بهذه الأفكار عن الزواج تجعلين مهمتي مستحيلةً.. كيف إذاً يمكن أن تقبلي بي يوماً؟..

– للزواج أسسٌ كما تعلم، وبعضها ماديٌ للأسف.. أنا لم أعد وحدي، وعلي أن أضمن سلامة وليدي واستقراره المادي.. ما تكسبه بالكاد يكفيك وحدك..

رحت أحدق في وجهها الباسم المسترخي وقد قفزت إلى ذاكرتي على الفور صورة المرحومة وهي تلاعب في شبابها الأديب الصاعد لعبة القط والفأر.. اللامبالاة ذاتها وبسمة الرضا الغريبة على الوجه الناصع الممتلئ مديراً المفاوضات بحنكةٍ وصبر.. وفي الواقع فإن أوجه التشابه بيني وبين الروائي في شبابه المتعثر لم تغب عني يوماً..

لم أعلم بمَ أجيب لكنها تابعت حديثها المحسوب بدقة:

– وماذا عملت بعامك الفائت على أية حال؟ ما زلت تدور في الدوائر المفرغة ذاتها وأوهام الشهرة والمجد الأدبي وتكتب روايتك إياها!

– لون الفصول..

– نعم، ذلك كان اسمها.. لم تُنشر طبعاً؟..

– كلا.. لكنني أعمل اليوم بجدٍ على روايةٍ جديدة عن كاتبةٍ مغمورةٍ راحلةٍ طُمس ذكرها عمداً من التاريخ وسرقت أعمالها في وضح النهار.. لقد بلغتني شراتٌ من أعمالها وبما أنه لا يحق لي نشرها سيتضمنها كتابي الجديد محاولاً استعادة حقها الضائع وسمعتها الملطخة..

التوت شفتا نهال الدقيقتان في محاولةٍ لإخفاء إحباطها وخيبتها، وسألت حين بدأ الاهتمام يتسلل إلى عينيها الهائلتين:

– فالقصة إذاً واقعية؟..

– نعم.. جميع الشخصيات واقعية! أنا أحاول بلوغ الحقيقة ما أمكنني ذلك..

سرعان ما هزت كتفيها وأعلنت كأنثى عمليةٍ مجدة:

– ذلك لا يغير شيئاً من الواقع.. الحب والخيالات شيء والحياة الواقعية شيءٌ آخر.. لابد من أساسٍ متين تبنى عليه الحياة!

ثم سألت في شدة:

– وما اسم القصة الجديدة؟..

– الرواية الناقصة..

راحت نهال تشتت المحادثة بطرقٍ شتى وتغير موضوع لقائنا ما استطاعت.. كانت عملياً تعيد تجسيد الرواية الناقصة.. هي الآن في طور اللاهتمام وإضاعة الوقت، ويتعين علي إذاً اجتذاب اهتمامها المشتت..

في المنزل عدتُ لقراءة ما تبقى من فصولٍ ممزقة.. كان الفصل الوحيد المتبقي شبه الكامل غير مفهومٍ تقريباً.. الراحلة فيه تهذي أو تهلوس وما تفتأ تكرر الجمل وتشتم وتهدد دون مبرر أدبي. وقد بنت بي قراءة الفصل شعوراً عميقاً بالحزن.. من الواضح أن قواها العقلية الآن في انحدارٍ مستمر، أنها تنزلق نحو هاويةٍ لا عودة منها..

{{صحتُ بوجهه بشكلٍ مفاجئ:

– لماذا تدور بعصبيةٍ حولي هكذا كلما جلستُ لأكتب؟ ترى هل تخشى شيئاً؟ وهاتان العينان القلقتان المذنبتان؟..

– ليس ثمة ما أخشاه..

– بل تخاف أن أدوّن بالتفاصيل ما تفعل.. لقد باتت لديك اليوم سمعةٌ أدبية ينبغي الحفاظ عليها ناصعةً.. يا للمهزلة الكبرى!

– على العكس تماماً.. أخبار الفضائح تزيد من شهرتي ولكن اختيارها ليس أمراً سهلاً ولا مستساغاً.. لقد أسهم شكوكك للأسف في شهرتي..

– أنتَ إذاً تخشى أن أكتب ملحمةً رائعة تبدو خرابيشك بجانبها وضيعةً مزقة.. لقد جاهدتَ طيلة حياتك للتظاهر بالثقة العمياء، لكنك في الأعماق طفلٌ مهزوز خائف يقتصر داخلياً للثقة بالنفس.. وما تفتأ تسرق وتقتبس وتقلد..

ليس من السهل ابداً إحداث هزةٍ في أعماق الوغد إذ راح يقابل اتهاماتي كل مرة بابتساماتٍ شاقةٍ ظافرة لا سبب لها وكأنه يرثي لحالي أو يزدريني.. اللعنة وألف لعنة..

ليس في هذا العالم الحاوي الرمادي أصدقاء وليس لي فيه أقرباء، وإذاً لمن أشكو وعلى كتف من أبكي؟ الوحدة فقرٌ وعوز.. صراخٌ في وادٍ عميق.. وما الذي يجدها على المرء؟ أهو سوء الطالع أم ببساطة غرابة أطواره؟..

اليوم اختار زوجي عنواناً لإحدى قصصه القصيرة (حكايات الصيف الحزين)، وأنتبه في غمرة هيجاني لأن لإحدى قصصي القديمة العنوان ذاته وبالحرف.. ولست واثقةً من أنه اطلع على القصة إذ كتبتُها ومزقتها منذ دهر.. ورغم أن القصتين مختلفتان تماماً غير أن نسخ العنوان دليلٌ دافع على السرقة العلنية وفي وضح النهار.. كان من الممكن أن أشرع بفضحه دون تواني لولا أن أحداً في العالم ما كان ليهتم بسماع شكواي..

ثم إن شركاء المؤامرة سيسألون حتماً عن الكيفية التي وقع بها زوجي على قصتي القديمة، وفي الواقع فإنه يستخدم دون أدنى شك نوعاً من التخاطر العقلي يقرأ به أفكاري ويسبح بعيداً في بحر ماضي الخاص ناسخاً تأملاتي وسطوري التي كتبتها وكذلك التي ما زالت لم تولد بعد على الأوراق..

ثم باتت نوبات الإسهال والمغص تداهمني بكثرة.. هل تراه يدس لي السم في الطعام أم أنه يستعمل الإشعاع المسبب للمرض؟..

لم أتمالك نفسي إذ لا ينبغي السكوت أكثر..

وجدتُ نفسي أستل سكيناً حادة وأتقدم نحوه أثناء العشاء وأنا أزأر غاضبةً:

– أيها الشيطان اللعين.. فلتعترف.. كيف وصلت يدك الغادرة إلى طعامي؟..

نهض كمن لسعته حية إذ استلقى الطبق الساخن عن حجره.. حين أبصر مقدار غضبي والسلاح اللامع في عيني أخذ للوراء خطواتٍ سريعة..

– توقفي الآن.. هل جننتِ تماماً؟ أنا لا أفهم شيئاً..

– لقد اتخذتَ جميع احتياطاتي، ولكنك مع ذلك وجدتَ منفذاً لتدس السم لي، وربما كان إشعاعاً أو طاقةً خبيثة..

– ليس صحيحاً.. كفي عن الهذيان.. لقد باتت الحياة معك خطرةً حقاً..

– وماذا عن نوبات الإسهال الشديد والمغص؟ أنا بالكاد أتناول طعاماً.. أظننتَ أنني لا أدرك خطتك؟.. تريد أن تظفر بالبيت وحساب البنك وتقدمه مهراً لتلك العاهرة!

كانت فصل السكين قريبةً من رقبته لكنه تمكن بسهولةٍ من لي ذراعي والاستيلاء على السلاح.. لقد شتت الغضب الشديد قوتي وأفقدني توازني..

ثم إنه صاح في غضب:

– ما عاد يمكن السكوت على الأمر أكثر من ذلك.. لقد توقفتِ من فترة عن تناول الأدوية.. وأرى أن حالتك قد ساءت المرة بسرعةٍ مخيفة..

– ولكنك من يخفي الأدوية عني..

– كفي عن الهراء.. غداً أتصل بالطبيب ليستقبلك المصح ثانيةً.. كان خروجك خطأً كبيراً..

قال ذلك ثم غادر مسرعاً مذعوراً كوطواطٍ فارٍ من الجحيم..

زأرتُ في الفضاء بصوتٍ مرعب.. كنتُ يومها كرةً من الثلج تتدحرج بشكلٍ متسارع دون أن يمكن إيقافها والنتيجة المحتومة هي الانهيار الكامل والتحطيم المدوي}}.

كنتُ قد حبست أنفاسي تقريباً طيلة قراءة الفصل المروع.. غمرني الحزن والانقباض ممزوجين بالاهتياج والغضب المدمر..

بدا أن الحالة العقلية المرعبة التي سيطرت على الكاتبة قد انتقلت إلى جسدي عبر تلك السطور السحرية، ورغم الشعور بالظلم الذي غمر كلينا (الكاتبة وأنا) لم يكن بإمكاني الثقة الكاملة في صحة ما أقرأ.. لا يمكن هنا معرفة الحقيقة من الخيال ولا تمييز الوهم من المبالغة فوق الصفحات المخيفة..

نظرت إلى الوريقات نظرتنا للأطفال يقصون علينا بصوتٍ لاهثٍ متقطع روايتهم الخاصة عن مغامراتهم (الرهيبة) المتخيلة، وعن أصدقاءٍ أسطوريين وأعداءٍ مختلفين وأشباح.. من يعلم أين ينتهي الواقع وأين يبدأ الخيال؟.. ربما كان الفصل برمته هلاوس امرأةٍ مسكونةٍ بالشك..

* * *

- 29 -

استلقت نهال بعد الوضع وقد غمرها الرضا حتى الأذنين.. قالت:

- الطفل كامل! رأسٌ صغيرٌ جذاب وملامح دقيقة.. عشرة اصابع وعافيةٌ ونشاطٌ باديان.. ما أسعدني..

راحت تتحدث بصوتٍ هادئٍ منخفض كأنها لا تراني بل تكلم نفسها..

- والأهم من ذلك أنكِ في صحةٍ عظيمة.. لقد خلق حوضك العريض للحمل المريح والإنجاب السهل.

قلت ذلك ثم عضضت على شفتي بعد ملاحظتي المبتذلة.. ثم غيرت مجرى الحديث:

- كذلك تبدأ الرواية.. أقابل الزوجين الشهيرين في معرض الكتب قبل الفاجعة بأيام قليلة، وألفت نظرهما بموهبتي.. ثم أتلقى بعد أسبوعين اتصالاً من الأرملة الحسناء التي لا تبدو مفجوعةً أبداً بل تتحدث وتفكر بعقلية سيدة الأعمال وبمساحيق تجميلها المعتادة..

- إذاً أنت تلعب في الرواية شخصيتك الحقيقية!

- وما زلتُ فعلاً أعيش أحداث القصة شخصياً.. يوماً بيوم!

- ولكن أي روايةٍ بالضبط ناقصة؟..

– ذلك هو الخطأ الذي وقعنا به جميعاً! المخطوط غير المكتمل هو الذي أقع عليه فيما بعد من حيث لا أدري..

هنا بدأت نهال فجأة بإرضاع وليدها بينما رحت أتظاهر بقراءة الجريدة منشغلاً عنها..

كانت تلك اللحظات التي أغدو فيها لا مرئياً فجأةً كنبات الزينة مركبةً وصاعقة.. تضيع كلماتي مع الرياح دون من يسمعها، وأتأقلم بالتدريج مع مكانتي الجديدة في الحياة.. لكن هذه المواقف المحرجة كانت كذلك منزليةً وشهوانية إذ أماثل فجأةً زوجاً مهملاً..

حملت الصحف هذه الأيام خبرين جديدين حركا اهتمامي فأعدت قراءتهما عدة مرات..

الخميس القادم موعد زفاف الممثلة المخضرمة على الناشر الكبير في أحد الفنادق بعد أقل من عامٍ على ترملها..

وإذاً ينتقل غريمي الصلع بضربة قدرٍ ماكرة إلى سكنى الدارة الفاخرة التي تناقلتها الأجيال.. سيصبح النذل المتسلق سيداً لمنزل فقيدتي!.. ولكن بعد شهر عسلٍ طال أم قصر..

وأما الخبر الثاني فقد ظهر في مجلةٍ أدبية منفصلاً تماماً عن الأول.. نبأ ظهور روايةٍ أخيرة مفقودة للراحل الشهير تم نشرها اليوم في طبعةٍ فاخرة بكرمٍ من أرملته الحزينة! والتي تصادف أنها تتزوج هذا الأسبوع!

علي إذاً الإسراع لشراء نسخةٍ من العمل لأتحقق من أن كلمةً واحدةً لم تعدل، وأن ليس ثمة مزيدٌ من تزييف الحقائق وقلب الوقائع.. يكفي ما وقع من ظلمٍ على الراحلة أثناء حياتها..

كنت أقترب الآن من حائطٍ جديد تصطدم عليه آمالي إذ شارفتُ على إنهاء الصفحات.. يشبه العائق الذي بلغته حين أنهيتُ رواية السعدي دون الوقوع على نهايةٍ واضحةٍ للأحداث.. لذا سارعتُ إلى جمع المزق المتبقية والمتناثرة من المخطوط المدمر والتي لا ترقى لأن تكون فصلاً كاملاً، بل نصف صفحةٍ هنا وبضعة أسطرٍ هناك:

{{سأفضحه.. أقسم أنني سأكشف خيانته ومحاولته تسميمي.. سأتصل بالجميع وأجعلهم يأخذون حذرهم منه.. لن يعرفوا من الآن فصاعداً حين يقرؤوه من هو الكاتب الفعلي للصفحات، وأي شخصيةٍ مخاتلةٍ ظليلة تقف وراءها.. المداهن المتلون والذي لا يتورع عن الخيانة العلنية بل ودس السم للزوجة كأي جبان.. سأرسل رسائلي إلى الجرائد الأربعة واتصل بأصدقائه واحداً واحداً}}.

{{اللعنة.. حتى رباب تتهرب مني!.. من كانت أعز صديقاتي يوماً باتت تبادلني ضد رغبتها حديثاً عمومياً جافاً يتجنب الخوض بالتفاصيل.. حديثاً مجاملاً مداهناً كحديثنا لأطفال الغرباء:

– لا أصدق.. يخونك؟.. ولكن هل وضعت فعلاً سكيناً على رقبته يا عزيزتي؟.. أنا لا آخذ كلام أي منكما على محمل الجد حتى أتحقق من الآخر.. تلك اتهاماتٌ فظيعةٌ من كليهما، ويبدو أن خيالكما الروائي هذه الأيام يعمل بأقصى طاقته..

– ولكنكِ علمتِ كيف لعب زوجي دور الدون جوان منذ العام الأول لزواجنا، ومع ذلك تتظاهرين بالصدمة!.. أعرف حق المعرفة أن أخبار نزواته في أرجاء المدينة لا تفوتكِ، ولماذا إذاً تحجميني الآن عن تصديقي؟..

– تبقى جميع الشائعات أوهاماً حتى يتم إثباتها..

– بل لقد تورطتِ معه في المؤامرة.. أنتِ تتخذين جانبه تماماً، وترفضين حتى إبداء التعاطف معي.. لا عجب إذ طالما أعجبتِ به، ومن يعلم ما يدور بينكما في الخفاء.

هكذا تضمحل الصداقات! الواحدة تلو الأخرى تتكسر كالموجات على صخرة الصراحة.. وما كنت في خضم اضطرابي ولوعتي لأجامل أو أداهن.. اليوم جميعهم شركاء في المؤامرة ضدي.. لا داعٍ بعد اليوم لطلاء الحقائق الكريهة بالكلمات المعسولة}}.

{{المجلة الأدبية لا ترد على رسالتي!

لقد مضى أسبوعان! وبدل أن يرسلوا لمقابلتي والتحقق من صحة معلوماتي، فقد نشروا له قصة جديدة!

أي شيء في سبيل زيادة المبيعات!

مرعبٌ أن يعتبرك الجميع مجنوناً فاقد للأهلية.. ويتوقفون بشكلٍ جماعي عن تصديقك!.. حتى لو شكوتَ من الصداع نظروا إليك نظرةً ملؤها الريبة.. مستحيلٌ أن تحظى شهادتي ضده بتصديق أحد وهو الأديب الشهير المحبوب بآلاف الأصدقاء والمعارف.. لقد خسرتُ المعركة خسارة مذلة}}.

{{اليوم جلسنا في الصالة بكامل ملابسنا.. دون كلمةٍ واحدة، وأمامي حقائبي.. في انتظار وصول موظفي المصح لاصطحابي.. ربما في رحلتي الأخيرة.

أنظر إلى الأفق في انكسارٍ وغمٍ قاتل متماشيةً النظر إليه تماماً، وربما إلى أي شيءٍ آخر.. بينما جلس هو مصالباً ساقيه وهازاً إحدى قدميه في قلق وترقبٍ واضح.. لا شك يرجو في أعماقه أن يتم إجلائي عن المنزل هذه المرة

دون فضائح أو عراكٍ جسدي كالمرة السابقة.. إنه لا يطيق صبراً حتى أختفي من حياته.

بدا قلقاً بل وخائفاً حذراً مني.. ولذلك أحضر تلك الممرضة المرعبة الواقفة على الباب وبيدها الإبرة جاهزة أبداً.. كان يحمي بها ذاته الثمينة من جنوني ويضمن كذلك إخلاءً مسالماً (لبيته).

– هل تزوجتها؟.. (سألت)..

كان انتظارنا قد طال، وقد شعرت أن فرصتي لطرح هذا السؤال الملح لن تتكرر ابداً.. توقفت قدمه عن الاهتزاز دون إجابة..

– إذاً، فقد تم الأمر؟!

– تذكري أنكِ من طلبتِ مني ذلك..

رحت فجأةً أحدق في عينيه لا التمس منها الحقيقة.. لمحتُ فيها بريق الظفر والشماتة.. لقد انتر تماماً وأراد أن يزرع رايته فوق جسدي.. ويسدد لصدري الطعنة النجلاء، أم أنه ربما يكذب حتى يدفعني الدفعة الأخيرة نحو هاوية الجنون المطبق؟ ما عدن أعرف الحقيقة من الخيال، والصدق من الكذب.. إنها إذاً النهاية.

دخل أخيراً من الباب المفتوح موظفان شابان من المصح بينما اقتربت مني بحذر تلك المرأة المرعبة كبيرة الرأس هائلة الشعر ذات الثوب الداكن الطويل كغرابٍ أسودٍ كريه يجر على الأرض ذيله الطويل..

وداعاً يا منزلي.. وداعاً أيتها الحياة}}.

كانت العبارات الأخيرة مكتوبةٍ بخطٍ مرتجف مليء بالأخطاء الإملائية كرسالة الانتحار.. كلماتٍ أزليةٍ أبدية تشبه ما يُكتب على شاهدة قبر أو ما يُقرأ في تابين الراحلين.

طويت آخر تلك المزق الصفراء ويدي ترتجف بشدة، وكذلك جسدي كله يرتعد من التأثر، ثم اجهشت في بكاءٍ مريرٍ مكبوت..

* * *

- 30 -

إذاً فقد انتهى كل شيءٍ برحيلها الأخير.. ذوى الحب الذي دامشهراً وترك مكانه ندبةً أخرى.. كأنه كان سراباً أو زهرةً بريةً لم تعمر طويلاً..

كذلك حبي الضائع.. ظهرت على وجهه التجعدات كطفلٍ شاخ بسرعة حتى أشفقتُ عليه منّا..

وهكذا وجدتُ نفسي أجرجر قدمي ببطءٍ على الشوارع الخلفية الهادئة.. رحت أتأمل الأوهام والذكريات التي مرت كومضة، وأجتر الألم الذي غدا جزءاً لا يتجزأ مني..

وألفيت ذاتي تقترب بلا وعي من دارتهما الفخمة القديمة.. والتي تكاثرت حولها الأشجار المعمرة الداكنة وقت غروب الشمس.

لم أفهم ابداً السبب الذي أراحني دوماً كلما وقفت على ناصية الشارع متأملاً المنزل الرمادي الكبير المنتصب كشبحٍ عملاقٍ قادم من زمنٍ غابر.. في هذا المكان تنفس يوماً الوجهان البائسان.. من حجرة المكتبة نظر يوماً وقد غمره الشعور بالوحشة والنقص.. ومن حجرة الدور الثاني والمضاءة بنورٍ خافت ربما جلست تنوح سعادتها وتشكو الدنيا التي غدرت بها..

ثم إنني لمحتُ تلك المرأة الغريبة ذات الرداء الطويل واقفةً أعلى الدرجات المفضية إلى المنزل تعبث بالباب الخارجي وتنظر حولها مراراً..

وَقَفَتْ هناك زمناً قبل أن ألاحظ وجودها دون أن تقرع الجرس مرةً واحدة.. وبدت يائسة بل ومذعورة قليلاً إذ نظرت فوق كتفها مراتٍ عديدة جعلتني أنتبه أخيراً إلى غرابة المشهد..

ثم إنها ربما يئست وهبطت ثانيةً الدرجات الرخامية، ودارت حول الزاوية لتقف مقابل الجدار الجانبي الطويل ناظرةً إلى المنزل عبر بابٍ معدني في السور المحيط بالمنزل إحاطةً كاملة.

كان باب الحديقة ذاك مقفلاً على الدوام، ومع ذلك فقد هزته المرأة بعنفٍ وعزيمة دون أن ينفتح.. الآن ما عاد مجالٌ للتخمين.. ذلك الموقف غير طبيعي!

ثم إن المرأة فارعة القامة –وقد يئست تماماً– استدارت فجأةً ومضت تهرول في ضيق وتبربر بشيءٍ ما..

كنت يائساً بشدة، وخشيت من أن أضيع أثرها لدرجة أنني عدوت وراءها بقوة حتى بتّ بمحاذاتها، ثم صحت:

– هل إذاً ماتت زبونتك؟ أيمكنني مساعدتك في شيء؟ لقد رايتكِ هناك تعبثين بالباب..

هنا قطعت فجأة خطاها السريعة واستدارت وقد بوغتت.. كانت المرأة متوسطة العمر هائلة القوة الجسمانية وشعرها المرفوع الفتح ينتمي لعصرٍ آخر.. نظرت ناحيتي بوجهٍ كامد وتقاطيع متناسقةٍ غير جميلة كما لو من صورةٍ رماديةٍ قديمة لإحدى الجدات الصارمات.. قالت فجأة بصوتٍ ذكوري وقد ميزتني:

– كلا، لم تمت على حد علمي، ولكنهم استغنوا عني!.. هل تملك مفتاحاً للمنزل؟ لقد رأيتك هناك مراراً..

– كلا للأسف.. ولكن لم دخولكِ المنزل إن كنتِ لا تعملين به؟

صاحت بعنفٍ دون أن تجيب:

– إنما أتيتُ للاطمئنان وحسب..

ثم إنها استدارت ومضت غاضبةً..

– توقفي من فضلك.. لدي بعض الأسئلة..

لكنها اشاحت بيدها ومضت بسرعة البرق.. راقبتها عاجزاً تجر على الأرض ذيل ثوبها الطويل الفضفاض (كذيل غرابٍ أسود مبلول الريشات).. لقد قرأتُ تلك العبارة في مكانٍ ما.. اضطرب كياني فجأةً بالذاكرة وقد ومضت تلك الخاطرة في دماغي حتى شعرتُ بالدوار..

رأيتها تبتعد بسرعة وجسدها الممشوق يتضاءل بينما تجمدتُ في الذهول إذ اشتعل مصباحٌ فجأةً داخل رأسي.. لقد قراتُ تلك العبارة في فصل بطلتي الأخير الذي أبكاني.. هذه المرأة المخيفة هي الممرضة ذاتها التي روضت الراحلة وأفزعتها بإبرتها الضخمة وجرمها الفارع..

ما الخلل إذاً؟.. لماذا تحاول المرأة دخول منزلٍ طُردت منه، وصاحبته الآن في شهر عسلها؟..

غمرني شعورٌ كريهٌ بالشك القاتل وبالحاجة الماسة للتصرف العاجل إذ ليس ثمة وقتٌ أضيعه..

قفلتُ عائداً إلى المنزل الغامض وقد امتلأت بعزيمةٍ مفاجئة.. ثمة في هذا المكان سجينٌ ربما أو.. لا يمكن!!

رحت أدور حول المنزل بعصبية محدقاً في النوافذ السوداء والجدران التي ألقى عليها الغروب ظلالاً داكنة. طمأنني علمي أن صاحبة المنزل تسعد الآن بزواجٍ هناك في أحد المصايف بعد أن حصلت على كل شيء.. البيت والثروة.. حريتها وزوجٌ جديد.. ثم ستحصي أرباح الرواية الجديدة التي نزلت على الوسط الأدبي كصاعقة..

نافذةٌ واحدة في الدور الثاني انبعث منها ضوءٌ خافت، خفق قلبي بعنفٍ لمرآها.

ثم إنني لم أضيع وقتاً.. بشجاعةٍ لم أعهدها في نفسي تسلقت السور المعدني بخفةٍ دون تفكير لعلمي أن معظم الدارات المجاورة فارغةٌ بدورها.. ثم هبطت من الجانب الآخر في ظرف دقائق.. كان ذلك تهور اليائس لا يملك ما يخسره..

في الحديقة المهملة المهجورة عرفتُ طريقي دون صعوبة، وأخذت أشق طريقي وسط عشرات الصص الفارغة والنباتات الميتة والنوافير الحجرية المهمشة والدرجات إلى أن بلغت حجرة المكتبة من الخارج.

نظرت إلى النافذة المرتفعة التي قفزتُ منها يوماً ما وقد علمت أنها تُترك مفتوحةً غالباً، وإذ تسلقت داخلاً عبرها أدركتُ صدق حدسي..

داخل المكتبة المظلمة الباردة ضربني رعبٌ مفاجئ.. ماذا لو أنني وقعت في شركٍ ما؟ أو أن أحداً شاهدني واتصل بالشرطة؟ ما عساي أقول وأنا لا

أملك عذراً مقنعاً للتواجد هنا، حتى إنني لا أعلم عم أبحث بالذات.. هل تنتهي إذاً مطامحي الأدبية وخيالاتي الجامحة في غياهب السجون؟

تجمدتُ زمناً طويلاً في ظلام المكتبة محاولاً استراق السمع لما يدور في المنزل، وحين لم أسمع همساً أو حركة فتحت الباب بهدوء نحو الصالون الفاره..

صعدت الدرجات المظلمة بخفةٍ يدفعني الرعب إلى الأمام، إذ أدركت أن ما عاد بإمكاني التراجع.. ليس الآن..

قفزت إلى ذهني عشرات الصور لما يمكن أن أرى في الطابق العلوي.. والدة صباح المسنة المريضة تصيح ذعراً ما إن تراني؟ أم جثةً متحللة؟.. أم لا شيء البتة؟..

حين فتحت باب الحجرة الوحيدة المضاءة كانت يدي ترتعد من الخوف والتردد، وما كان شيءٌ في العالم لتخفيف عني وقع الصدمة..

المفاجأة التي كادت توقف قلبي، إذ جلست على السرير امرأةٌ كما توقعت.. غير طاعنةٍ في السن بل كهلةً بشعرٍ أشيبٍ طويل.

أسندت المرأة ظهرها إلى الحائط وغطت ساقيها بالدثار وعقدت يديها في حجرها.. ثم أدركت بعد صدمة المفاجأة الأولى أن ثمة خللاً في المرأة ذات الشعر الأبيض المنسدل، إذ بدت في تجمدها ووضعيتها الحجرية كتمثالٍ أو دمية عرض.

بعد أن انتبهت لأنها لم تراني ولم تنتبه لوجودي، وأنها لن تزعق بأعلى صوتها لاحظت أنها لا تتحرك وبالكاد تتنفس وأن عينيها معلقتان على الأرض دون أن يطرف لها جفن أشبه ما يكون بتمثالٍ حقيقيٍ للبؤس.

وحتى وجهها الأصفر الناحل والذي بدا أشد اصفراراً وشحوباً تحت نور المصباح الخافت كساه طلاءٌ شمسيٌ عجيب كطلاء وجوه موتى الهند الحمر..

ثم إن اكتشافاً آخر زحف علي ببطءٍ كما تزحف أفعى باردة على ساق المرء حتى تجمد الدم في عروقي..

إذ لمحتُ تلك الشامة الكبيرة المميزة التي كنت قد نسيتها فوق الشفة كعلامةٍ لا تزول أبداً على صاحبتها..

مستحيل!! هذا التمثال الجالس لا يمكن أن يكون لها..

كانت جنتان ضامرتين بشدة والصدغان فارغين تماماً، وكذلك انكمشت الشفتان فتحولتا لخطين دقيقين متكسرين.

هاتان عينا امرأةٍ ميتة أو مومياءٍ يكتشفها عصرنا، دون ومضةٍ من حياة حتى أنهما التصقتا جهة الأرض وعلاهما لمعانٌ زجاجي فذكرتاني بعيون السحالي والسلاحف.

أين هذا الوجه المخيف من وجه زينة المنير المدور النابض بالحياة، وأين الشفتين الخطيتين المتشققتين من فمها الكرزي دائم الضحك والضجيج؟.. أهذا ما تفعله الحياة بنا؟!!

وقفتُ هناك زمناً أحدق بالشعر الأبيض والوجه العجوز محاولاً التماس صلةٍ خفية بينه وبين وجه معشوقتي.. نعم.. ثمة رابطٌ خفيٌ ما بين الوجهين.. أو أنهما ذات الوجه بعد أن فقدت صاحبته ثلثي وزنها وعانت عقوداً من سوء التغذية المزمن والتجفاف وفقر الدم الشديد.

يا إلهي.. إنها هي.. لم تمت إذاً كما اعتقد الجميع..

تنفستُ أخيراً في فضاء الحجرة الراكد لأشم رائحة كسرات الخبز المتعفنة وزجاجات الأدوية الآسنة ورائحة بيت الجدات.. شعرت بحزنٍ كاسحٍ يغمرني وبرعب الصدمة الوجودي.

ربي.. ليتني لم أرها.. كنت كمن رأى للتو جثة محبوبه..

ثمة أشياءٌ لا ينبغي أن تقع عليها عينا المرء أبداً.. كالطفل يسترق النظر إلى مخدع والديه، أو الأم تعانق جثة رضيعها.. لا شيء أبداً يتمخض عن تلك المشاهد التعسة، سوى الذعر الدائم والكوابيس الأبدية..

* * *

- 31 -

في الحجرة ذات الضياء الشحيح والهواء الخانق ضربني من حيث لا أدري دوارٌ شديد وغثيان وأصيبت ساقي بالوهن المفاجئ.. ثم إنني تمالكت نفسي هامساً:

- المعذرة يا سيدتي.. هل أنتِ بخير؟.. أنا لم أقصد..

لكنها لم تسمعني! بقيت جالسةً تحدق في الأرض بوجهٍ حزينٍ كامد.. لم تظهر عليها علامة انتباهٍ لوجود غريب يشاركها الحجرة سوى تعبير الهم والقلق الأزلي الذي خيل لي أنه تكثف وزاد على الوجه الشمعي..

تساءلتُ في سري بقلق.. ما عساي فاعلٌ الآن؟ ليس ثمة في المنزل إلا أنا ولا يمكن أن يستمر وقوفي إلى الأبد.. ثم إنني تقدمت منها بحذر وجلست على جانب السرير ولمست كتفها وأنا أردد بإصرار:

- لا بأس عليكِ.. لقد أتيتُ لنجدتك، ولكن أخبريني.. هل أنتِ بخير؟..

لمستُ وجهها بحنانٍ وأسى غامر، فارتعدت شفتاها دون أن تنظر لي:

- أأنتِ مريضة؟.. هل أنتِ جائعة؟..

أفزعني ملمس وجهها شديد الجفاف وجلدها متناهي الرقة كقشرة.. هذه امرأةٌ مصابةٌ بالتجفاف الشديد ومن يدري ماذا أيضاً.. نقص السكر أو هبوط الضغط.. لكن النظرة الجامودية والوضعية الصملة هي بلا شك لشخصٍ فصامي..

على المنضدة المجاورة رأيت بقايا خبز وأطعمةٍ أخرى قديمة حتى لم أميزها وكأس ماءٍ فارغ.. ثم شعرت بالغضب العارم.. كيف تُترك هذه المريضة لوحدها هكذا؟ ألتموت؟.. أهذه هي الخطة السرية؟..

وليتني لم أطرح ذلك السؤال إذ أتاني الجواب بأسرع مما توقعت.. بلغني فجأة صوت خطا مسرعة خارج الباب دامت ثواني جمدني خلالها الرعب، ثم إن الباب انفتح بعنفٍ على مصراعيه وظهرت على الباب صباح..

تجمدت المرأة على الباب مذعورةً وقد غطت فمها بيديها، وغدت عنها تنهيدٌ خافتة.. سمعتُ وراءها صوتاً يقول:

– ماذا هنالك؟..

– هو ذلك المهووس في الحجرة.. (أجابت ثم ليظهر من خلفها السيد مروان بجرمه الضخم وعينيه الشريرتين) سمعته يردد غاضباً:

– أنت ثانيةً؟..

لم يكن عندي ما أقول.. جلستُ على السرير مستسلماً كالفأر في المصيدة دون أن يكون لدي أدنى تفسيرٍ أو حجة.. لا شيء البتة يغفر لي.. لكنني مع ذلك شعرت بالغضب منهما.. لقد كذبا علي وأخفيا عني وعن العالم حياة امرأةٍ محتضرة..

لاحظت ارتباك صباح المفاجئ وصمتها وعينيها القلقتين الخائفتين فقررت أن أتخذ موقع المهاجم عوضاً عن الدفاع عن النفس.. وهكذا رميتها بنظرةٍ نيرانية دون كلمةٍ واحدة.. اقترب مني مروان قائلاً:

– تعلم أنك في منزلنا.. عثرنا عليك متلبساً كاللص، ولو أنني أرديتك قتيلاً لالتمس لي القانون عذراً..

ثم إنه سحب مقصاً معلقاً على الحائط ووقف ثائراً مهتاجاً يرمقني بعدوانية:

– مروان.. توقف.. (صاحت ثم تمالكت نفسها وخاطبتني) لا يمكن أن تصدق طبعاً أن شخصين متحضرين شهيرين مثلنا يمكن أن يلجأ إلى العنف.. والآن.. ماذا أنت فاعل؟..

فكرت.. البشر المتحضرون يرتكبون جرائم حضارية..

– أجلس هنا بانتظار تفسيرٍ كامل.. لقد لعبت لعبةً قذرة منذ البداية.. أخفيتِ عني وعن العالم بأسره وجود امرأةٍ فضامية مريضة تحيا في منزلك عقداً كاملاً من الزمن.. أو بالأحرى تعيشين أنتِ في منزل طفولتها عالةً عليها بعد أن استوليتِ على كل شيء..

0 وعاش معنا زوجي أتذكر؟ بالأحرى زوجنا.. نحن لم نخفي شيئاً.. بعرف القانون هي ما زالت بين الأحياء.. للأسف، ومن كان ليتنبأ بأنها ستعيش بعد زوجها وهي المريضة الأزلية؟..

– لقد دفنتم بالحياة امرأةً دون رحمة.. أخفيتم وجودها عن الناس والمجتمع والوسط الأدبي وصفحات المجلات..

– أنت تهذي بلا فهم.. لقد كانت لها ممرضةٌ تعنى بها على مدار الساعة وبفضلها عاشت طيلة هذه الفترة.. كجرحٍ غائرٍ في جسدي يزداد عمقاً يوماً بعد يوم.. أتعلم مدى صعوبة إبقاء من يرفض الطعام والشراب والأدوية على قيد الحياة؟! في هذا المنزل المرعب ثمة صباحٌ يومي وإبرٌ عضلية وأنابيب تغذيةٍ أنفية.. ومع ذلك فقد مات قبلها!! ولم يكن ذلك في الحسبان مطلقاً، من كان يتوقع؟

– تعنين الممرضة التي طردتها شر طردة حالما واتتكِ الفرصة! أنا أعرف أكثر مما تظنين.. خطتكِ أن تتركي المسكينة لتموت من الجوع والتجفاف، ثم تحصلين أنتِ على كل شيء.. المنزل وثروتها..

– كان على تلك المخلوقة الشنيعة أن ترحل من هنا حين بدأت تتدخل في ما لا يعنيها.. لقد أخذت تطالبني بتقسيم التركة بيني وبين هذه الشمطاء.. ثم إنها راحت تطالب أيضاً بحصةٍ لها!! لقد تحملتُ فوق ما يتحمله مخلوق وقد آن لعذابي هذا أن ينتهي.. ثم بدأت الحمقاء تهدد بالاتصال بالشرطة!

– تقسيم ماذا؟ أنتِ تعيشين فيلا منزلها! لقد تطفلتِ على حياتها وسلبتها كل شيء..

– في هذا أنت مخطئ.. لقد نقل زوجي منذ زمن جميع أملاكها وحساباتها إلى اسمه بعد أن عينته المحكمة وصياً عليها إذ تطور مرضها لدرجة ما عاد بإمكانها الكلام أو المشي، ولكنها بوفاته ورثت ثانيةً نصف كل شيء فأصبحتُ شريكةً لهذه المخلوقة على حين غرة! لقد داهمني هذا التشابك المفاجئ فعلاً حياتي بأكملها.. كان طبيعياً ومتوقعاً أن أحصل على كل شيءٍ بمفردي، ولكنها قفزت ثانيةً إلى حياتي من هذه الحجرة العفنة، كأنما لتعاقبني..

هنا ارتفع صوت مروان الغاضب:

– ليس عليكِ توضيح أي أمرٍ لهذا الوغد.. كل هذه التفاصيل تضر ولا تنفع..

– كيف لا ترى؟ لقد انكشف السر الذي عذبني عقداً من الزمن، ويتعين الآن توضيح موقفي حتى لا يظن الشاب بي الظنون.. لقد اعتنينا بها أعواماً

طويلة وأطلنا حياتها البائسة أمداً لا يصدق حتى عاشت لترث!.. لو أنها بقيت وحدها دوننا لفطست منذ زمن.. حتى إنها أفسدت علي شهر عسلي مرتين!

صحتُ بها:

– تكذبين.. بل أنتِ من أرغمتِ زوجك على تخريج غريمتكِ من المصح إذ توقعت بها أن تموت في غضون أشهر..

– التمنيات شيءٌ والأفعال شيءٌ آخرٌ تماماً.. لقد فوجئتُ بكفاءة تلك الممرضة الفظيعة التي جلبها زوجي.. لقد كانت عنيفة جلفة لا يغمض لها جفن.. حتى إنها أدخلت الأنابيب الأنفية أحياناً مراتٍ عدة في اليوم، ولم تضيع موعداً لحقنة، ولم تنسَ حبةً دواءٍ واحدة كي تحافظ على وظيفتها.. ولم يعج بإمكاننا التخلص منها بعد أن كشفت سرنا وغدت شريكةً في حياتنا..

قالت ذلك، وانهارت على كرسيٍ كبير بجانب الباب مغطيةً وجهها براحتيها. قلت:

– فلتغطي وجهكِ كي لا ترى ضحيتكِ.. هذا التمثال البشري شاهدٌ على جريمتكما، أنتِ والأديب العظيم بالغ الحساسية.. لقد خَدَع أجيالاً من القراء ولكنه سرق من امرأته كل شيء.. حتى أفكارها، ومقتطفات أحاديثها ورواياتها.. سرق حياتها وبيتها وأتعسها دهراً وعشق وتزوج عليها في حياتها.. كيف إذاً لا تفقد عقلها؟..

– أنت كما أرى تتلذذ بالظلم والتجني.. من السهل إطلاق الأحكام حين نجهل التفاصيل.. لقد عاش زوجي بائساً زمناً في هذا المنزل المرعب.. ضحيتك المسكينة كانت وحشاً يتخفى تحت جلد حمل.. ولم تكن قادرةً يوماً على الحب أو تبادل المشاعر..

– كذلك أخبركِ زوجكِ! أنتِ لم تكتفي هذا من التجربة الذاتية..

– نعم، هو من أخبرني وصدقته.. حين عملنا معاً على تلك المسرحية كان يهذي معظم الوقت من التعاسة حتى أدمن المنومات والمهدئات والكحول.. لقد بكى على كتفي دون أن يحتاج لمن يغويه.. رجلٌ بهذه الحساسية يتوق إلى الحب والعواطف المتأججة لتبقيه يقظاً متوثباً وتبقي شعلة موهبته متقدة.. لقد حملت زوجته مورثات الجنون من أمها وفهم هو ذلك من العام الأول للزواج فشعر بالأسر الأبدي.. بات أسير اختيارٍ خاطئ.. خطأٌ قاتلٌ أفسد عليه حياته..

– لكنه لم يملك الشجاعة للطلاق بل فقط الشجاعة لارتكاب فعل الخيانة.. الطلاق كان سيعني له الفقر والصعود البطيء مجدداً لذا دفن خطأه في هذه الحجرة خلف البواب المغلقة إلى الأبد..

– لا تنسَ أنه كان قد غدا شخصيةً عامة، وما عاد بإمكانه تطليق زوجته المريضة والزواج بأخرى.. كان ليخسر سمعته وقاعدة قرائه..

– حجةٌ مضحكةٌ مبكية، وعوضاً عن ذلك فقد اخترع خبر وفاتها، وتحدث بإسهابٍ للإعلام عن ذكراها بعينين دامعتين ممتلكاً كذلك ملكة التمثيل.. حتى إنه ألف روايةُ قصيرة عن حزن الترمل!..

– كان حزيناً فعلاً.. بالنسبة إليه زوجته امرأةٌ ميتةٌ فعلاً.. لقد رثا في القصة حبه وشبابه..

– ثم انتقل ليسطو بالتدريج على قصصها المخزنة في الأدراج واحدةً تلو الأخرى.. أنا لم أقرأ قصصها لكن فهرس القصص الممزقة حمل ذات أسماء رواياته الشهيرة.. لم يعرف تاريخ الأدب سطواً أشد وقاحةً مما فعل.. حتى إنه

مزق أعمالها وأحرق الوريقات المتبقية كقاتلٍ يحرق جثة ضحيته.. أنا لا ألمح حزناً ولا فقداً في تلك الفعال بل دمٌ بارد وعقلٌ مخططٌ مبتكر لا يعرف ندماً ولا ترددا..

هنا ارتفع صوت مروان الحاقد المشمئز الواقف بجانب النافذة:

– توقف عن هذا الهراء.. تتحدث وكأنك عشتَ معهما زمناً.. على خيالك الروائي التوقف عن هذه الهلوسات والنظر إلى الحقائق. أمامك مخلوقةٌ حساسة يتيمة الأبوين صعدت بمجهودها الذاتي وعانت دهراً في زواجها حتى ارتكبت خطيئة عمرها، ألا وهي استدعاؤك أنت إلى حياتها.. وها قد أفسدت كل شيء.. من أنت حتى تحاسبها؟

– في الواقع أنت من فضحها إذ أخبرتني مراراً أنها يتيمة الأبوين فيما ادعت هي أن الممرضة هنا ترعى أمها المريضة المسنة.. عليكما من الآن فصاعداً تنسيق الأكاذيب والإدعاءات.

– وما أهمية ذلك الآن؟..

– أشعر أنني عشت معهما حقاً ردحاً من الزمن إذ درست تفاصيل الحكاية عاماً كاملاً مستعيناً بالشهود، ورأيت عشرات الصور السعيدة لهذه المخلوقة الشقراء التي انتشت بالأضواء وحياة الشهرة لأقصى درجة، وصعت خشبة المسرح مراراً فوق جثة ضحيتها..

– توقف.

– لقد أغوت الراحل وهي تعلم أن زوجته تراقبهما عبر الزجاج دون أن يكون بقدورها فعل شيء، ثم أنها جندته لكتابة المسرحيات لها وصناعة نجوميةٍ

من موهبتها المتواضعة.. أخبرتكَ مراراً أن هذا المنزل لم يعرف قط طعم السعادة وها قد أتى دورك..

هنا صاحت صباح بنزق:

– لتتوقف الآن ولتفعل ما تشاء.. أنت بغيضٌ بصورةٍ لا توصف.. لقد ظهر أخيراً كل شيء، وأنا أشعر فجأةً براحةٍ غريبة.. ليس ثمة أسرارٌ لتثقل القلب، لذا لا تعتقد أن بإمكانك ابتزازي..

– نعم انكشفت الأسرار لذا أتوقع أمرين لا ثالث لهما.. أولاً أن تنقل المسكينة للمشفى وتعالج مما أموالها الخاصة (والتي هي نصف أموالك)، وثانياً بأن يتم تقسيم كل شيءٍ بالعدل، كأنها حصتها رغم كل شيء.. ينبغي تعيين وصي من المحكمة.. سوف أبلغ القانون بوجود هذه المرأة ووضعها الصحي والقانوني ليتم ترتيب الأمور بالطريقة العادلة والصحيحة..

صمتت صباح برهةً وهي تحدق في الأرض.. كانت تتميز غيظاً ولم تعرف ما تقول.. ثم إنها رددت ببطء:

– من الآن فصاعداً لم تعد يعنيني شيء.. طالما تخلصتُ من ثقلها حول عنقي فلا بأس.. بمقدوري الآن أن أحيا حياتي وأخطو نحو المستقبل بضميرٍ ناصع.. كل ما أتمناه أن لا تصل قصتنا إلى صفحات المحلات فالأوغاد يعشقون الفضائح ويصنعون منها ثروات..

(قالت ذلك ونظرت لي جانبياً نظرة التماسٍ ورجاء)

– أنا لستُ معنياً بنشر الحقائق، طالما تحقق العدل (قلت ذلك بلهجةٍ ذات مغزى) أنتِ تفهمين طبعاً ما أعني.. ثم سيعلم المقربون بالتدريج ما حدث..

– طالما لا تقع فضيحةٌ كبرى فأنا ممثلةٌ مشهورة ولي سمعتي كما تعلم..

– نعم.. الطريقة التدريجية ستكون بالتلميح.. فقط لمن يهتم أو يحاول الاستنتاج إذ أنني أكتب بدوري روايةٌ جديدة..

رمتني بنظرةٍ قلقةٍ فضولية متسائلة عما أعني لكنها لم تشاء أن يطول ذلك الاجتماع أكثر من ذلك فنهضت بانزعاج.

كرهني الاثنان آنذاك لدرجة أنهما كانا قادرين على خنقي، ولكنهما أدركا فضيلة بلوغ انفراجةٍ نهائية، وقد بات بإمكانهما أخيراً تنفس الصعداء..

ألقيتُ على الروائية المريضة نظرةٌ أخيرةٌ عاطفيةً حنونة ثم غادرتُ المنزل الملعون إلى الأبد وهذه المرة من خلال الباب الرئيسي..

* * *

- 32 -

من المريح فعلاً أن تؤول الأمور كل حينٍ إلى خواتيهما.. بات الآن بإمكاني أن أتنفس براحةٍ أكبر وأنام بشكلٍ أفضل وقد بلغتُ أخيراً الحقيقة التي طاردتها عاماً كاملاً..

لكن نهاية كل مرحلة تحمل دوماً قلقاً مفاجئاً بخصوص الخطوة المقبلة.. كان علي أولاً إنهاء الأمور المعلقة من الماضي الشائك الملتبس، وهكذا فقد أبلغت السلطات بتفاصيل ما وقع، وتابعتُ عن بعد أمور المرأة المسكينة، وتأكدت من أنها تتلقى العلاج الممكن وكذلك نصيبها العادل.

وقد زرتها في المشفى مراتٍ لأطمئن عليها، وفوجئتُ بأنها ما زالت على حالها وصلابتها الأبدية أضحت مزمنة.. لكنني سمعتُ بعد عامٍ من الزمن أنها بدأت بالتلفظ ببعض الكلمات المتفرقة.. تنهدتُ بحزنٍ متسائلاً عن مغزى صراعي المحموم لإنقاذها وإن كنتُ قد ساعدتها فعلاً بمنع موتها المحتم.

وأما صباح وزوجها فقد اختفيا من الأنظار عاماً ونيف حتى هدأت العاصفة، وفي الواقع فقد جنيا أرباحاً كبرى من الرواية الأخيرة الملفقة والتي تلقفها المهتمون بفضولٍ عظيم ودرسوها وحفظوها ككتاب مقدس.

وأما أنا فقد وضعت اللمسات الأخيرة على روايتي حول الزوجين الأديبين الشهيرين دون ذكرهما بالاسم ولكن واصفاً بالتفاصيل كل ما جرى للزوجين المتنافسين اللدودين.

كان بمقدور المعنيين بسيرة الأديب العظيم استخلاص الحقيقة الكاملة من كتابي، ولكن أولئك للأسف كانوا قلة.. وحتى الناقد الحسيني لم تتسنى له فرصة قراءة كتابي لأنه توفي بعد المعمعة بفترةٍ قصيرة..

الحسنة الوحيدة مما حدث أنني حصلت أخيراً على فرصة لنشر كتابي الأول.. تحمس الناشر بشدة حين أخبرته بتفاصيل ما وقع ورغب في أن تحقق الرواية خبطةً أو فضيحةً ما، لكن ذلك لم يقع أبداً إذ قرأها عددٌ قليل من القراء وأقل من النقاد.. لقد أصيب الناس بنوعٍ من الخمول الفكري أو السبات الأدبي –للأسف– وما عادوا يكترثون بأنباء المشاهير أو بتاريخ الأدب!

وفي الواقع فقد تابعت روايات السعدي شهرتها وزاد ذيوعها وتم تحويلها واقتباسها مراراً للدراما.. البشر لا يكترثون أبداً بالحقيقة..

وأما الفصيلة المحتملة الأخرى من هذه الوقائع الغريبة هي أنني خطوت نحو نهال يوماً ما حاملاً في يدي –بفخر– عقد نشر روايتي الأولى..

وقد سُرت نهال لدى قراءة الرقم المكتوب على العقد، حتى إنها وافقت أخيراً على الزواج بي إذ سال لعابها وراودت خيالها الطموحات بالمال والشهرة..

وانتبهتُ سراً أثناء وقوفي أمامها وهي تقرأ العقد بعناية وعينين لامعتين إلى أن وقفتي تلك تماثل تماماً وقفة الأديب الراحل شاباً محاولاً إغواء أنثاه بالمال والمكاسب.. وضربني من جراء ذلك خوفٌ وتشاؤمٌ كبيرين.

الطبيعة البشرية كالتاريخ ما تفتأ تكرر ذاتها، وها هي القصة الأزلية نفسها تتكرر مرةً أخرى. متى تنكسر تلك الحلقة المفرغة؟

* * *

انتهت آب 2017

صدر للروائي

- **الفئران**، رواية، عام 1994، عن دار الشراع.
- **العزلة**، رواية، عام 1997، عن دار الثقافة.
- **المرحومة**، رواية، عام 2000، عن دار الشراع.
- **فضيحة مدوية في أُوغاريت**، رواية، عام 2005، عن دار كنعان.
- **دمشق الأخرى**، رواية، عام 2006، عن دار طلاس.
- **الغرفة رقم 1000**، رواية، عام 2007، عن دار طلاس.
- **مأساة ريفية**، ثلاث روايات قصيرة، عام 2008، عن دار طلاس.
- **سلالة الشمس**، رواية، عام 2009، عن اتحاد الكتاب العرب.
- **التفاح الأزرق**، رواية، عام 2010، عن دار كنعان.
- **قطتان في صندوق**، أربع روايات قصيرة، عام 2015، دار الفكر.
- **أنفاس الشيطان**، رواية، قيد الطباعة.